

للصاحب كمال الدّين
عمر بن أحمد بن أبي جرادة
المتوفى سنة ٦٦٠هـ

حقّقه وقدّم له
الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء الثاني




زبدة الحلب
من
تاريخ حلب



للصاحب كمال الدين

عمر بن أحمد بن أبي جرادة

المتوفى سنة ٦٦٠هـ

حققه وقدم له

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثاني





الطبعة الأولى

١٤١٨هـ/١٩٩٧م



دار الكتاب العربي / دمشق - القاهرة

دمشق: الحلبوني - تلكس ٤١١٥٤١ - هاتف ٢٢٣٥٤٠١

القاهرة: ٥٢ ش عبد الخالق ثروت، شقة ١١

ت + فاكس ٢٦٩٤٤٤٨ - ٣٩١٦١٢٢

[عصر الدولة الأتابكية][1]

وقيل : إنَّ ختلغ أبه لم يزل بالقلعة حتى وصل أتابك فنزل إليه .
وصعد أتابك إلى القلعة ، يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة ، من سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، وارتاد موضعاً ينقل أباه قسيم الدَّولة إليه ويدفنه به ، وكان مدفوناً بالقبَّة التي على جبَل قَرَنْبيا ، فعرض عليه بدرُ الدَّولة نقلَ أبيه إلى المدرسة التي أنشأها بالزَّجَّاجين .

وقيل : إنّ أبا طالب بن العجمي طلب منه ذلك ، فَنَقَلَهُ ورفعه في اللَّيل من سُور حلب ، ودفنه في البيت الشّمالي من المدرسة[2] ، واتّخذه تربةً لِمَنْ يموتُ من أولاده وَوَقَفَ على المُقْرئين على تربة والده القرية المعروفة بشامر[3] .

---

١ ـ أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح .
٢ ـ انظر الآثار الاسلامية ص ٩٠ ـ ٩١ .
٣ ـ تبعد شامر عن مدينة حلب مسافة ١٢ كم وهي من قرى منطقة جبل سمعان .

وأما الملك ابراهيم بن رضوان فَإنّه هرب منه إلى نصيبين ، وكانت في أقطاعه إلى أن مات .

وأما ختلغ أبه فانه سلّمه إلى فضائل بن بديع فكحله[١] بداره ، ثم قتله أتابك بعد ذلك .

وقيل : إنَّ بدر الدَّولة هرب منه عند ذلك ؛ وهَرَب فضائل بن بديع إلى قلعة ابن مالك خوفاً من أتابك .

وَوَلّى أتابك رئاسةَ حلب الرئيسَ صفيّ الدّين أبا الحسن علي بن عبد الرَّزّاق العجلاني البالسيّ ، فسلك أجملَ طريقةٍ مع النّاس .

وخرج أتابك من حَلَب ، وسار حتّى نزل أرض حماة ، فوصله صمصام الدّين خير خان بن قراجا ، وتأكّدَتْ بينهما مودَّةٌ لم تحمد عاقبتها ـ فيما نذكره بعد ـ وكذلك وصله سونج ابن تاج الملوك .

ثم سار أتابك[٢] بعد ذلك، فوطىء بساط السُّلطان، في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ؛ وعاد بالتّواقيع السلطانيّة بملك الغرب كله ، ودخل الموصل ، ثم فتح قلعة السّنّ[٣] ، وتوّجه إلى حلب ، ورعى عسكره زرع الرّها .

وعبر أتابك الفرات إلى حلب بتوقيع السّلطان محمود ، وقد كان السلطان آثر أن تكون البلاد لِدُبَيْس ، فقبّح المسترشدُ ذلك ، وكاتب

١ ـ التكحيل هنا : امرار ميل محمى على الجفنين حتى يلتصقا .
٢ ـ لزنكي ترجمة جيدة في بغية الطلب ص ٣٨٤٥ ـ ٣٨٥٧ .
٣ - السن مدينة على دجلة فوق تكريت عند مصب الزاب الأسفل . معجم البلدان .

السُّلطان وقال له فيما قال : إنَّ هذا أعان الفرنج على المسلمين وكثر سواد الكفار ؛ فبطل هذا التدبير .

واستقرَّ ملك أتابك بالمَوْصل ، والجزيرة ، والرّحبة ، وحلب ، والتوقيع له بجميع البلاد الشَّاميَّة وغيرها .

وتزوَّج أتابك خاتونَ بنت الملك رضوان ، وبَنَى بها في دَيْر الزَّبيب[1] ؛ وكانت معه إلى أن فتح الخزانة بحلب ، واعتبر ما فيها ؛ فرأى الكِبْر[2] الّذي كان على أبيه أقسنقر ، حين قتله تُتُش جَدُّها ، وهو مُلَوَّثٌ بالدّم ، فهجرها من ذلك اليوم .

وقيل : إنّه هدم المشهد الّذي على قبر رضوان ، عند ذلك .

ودام أتابك مهاجراً لها إلى أن دخلتْ على القاضي أبي غانم قاضي حلب ؛ وشكت حالها ، فصعد إليه ، وكان جباراً إلَّا أنه ينقاد إلى الحقّ ، وإذا خُوّف بالله خاف ، فخرج ليركب ، فلما ركب ذكر له القاضي ما ذَكَرَتْهُ خاتُون ، فساق دابَّته أتابك ، ولم يردّ عليه جواباً ، فجذب القاضي أبو غانم بلجام دابته ، فوقفتْ ، وقال له : «يا مَوْلانا ، هٰذا الشَّرْعُ لا ينبغي العُدُولُ عنه» ، فقال له أتابك : «اشهد عَلَيَّ أنَّها طَالقٌ» ، فأرسل اللجامَ وقال : «أمَّا السَّاعة فنعم !» .

---

١ ـ خارج مدينة حلب . بغية الطلب ص ٣٨٥٢ .

٢ ـ الكبر : قباء محشو يتخذ للحرب . المعرب للجواليقي ص ٢٥٢ . الحاشية ٢ .

واستوحشَ الأميرُ سوار بن أيتكين من تاج الملوك بوري صاحب دمشق ، وكان في خدمته ، فورد إلى حلب إلى خدمة أتابك ، في سنة أربع وعشرين ، فأكرمه وشرّفه ، وخلَعَ عليه ، وأجرى له الإقطاعات الكثيرة ، وأعطاه ولاية حلب وأعمالها ، واعتمد عليه في قتال الفرنج ، وكان له بصيرة بالحرب وتدبير الأمور ؛ وله وقعات كثيرة مع الفرنج ومواقف مشهورة أبان فيها عن شجاعة وإقدام ، وصار له بسببها الهيبة في قلوب الكفّار الأغتام .

وعزم أتابك في السَّنة على الجهاد ، وكتب إلى تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق ، يلتمس منه المساعدة ، فأجابه إلى ذلك وتحالفا على الصَّفَاء .

وكتب تاج الملوك إلى ولده بهاء الدين سونج بحماة ، يأمره بالخروج بعسكره ، وجَهَّز إليه مِنْ دِمَشق خمسمائة فارس ، وجماعةً من الأُمراء مقدّمهم شمس الخواص ؛ فخرجوا حتّى وصلوا إلى مخيّم أتابك على حلب ، فأكرمهم وتلقّاهم ، وأقاموا عنده ثلاثاً ، ثم أظهروا الغارة على عَزاز ، وركبوا وعطفوا على سونج ، وغدر به وبأصحابه ، ونهب خيامهم وأُثقالهم وكراعهم ، وهرب بعضهم ، وقبض على سونج والباقين ، وحملهم إلى حلب ، واعتقلهم فيها .

وسار من يومه إلى حماة فأخذها يوم السَّبت ثامن شوال ، وأقام بها أياماً ، وطلبها خير خان بن قراجا صاحب حمص ، وبذل عليها مالاً ، فسلَّمها إليه بكرة الجمعة رابع عشر شوال ، وضربت بوقاته عليها ، وخطب

له الخطيبُ على المنبر ، فلمَّا كان وقت العصر من ذلك اليوم قبض عليه ونهب خيامه وجميع ما فيها .

وسار فنزل حمص ، فقاتلها أربعين يوماً لم يظفر فيها بطائل غير الربض ، وكان يربط خير خان على غراير التّبن ، ويعاقبه ويعذّبُهُ أنواع العَذاب ، وانتقم الله منه ببعض ظُلمه في الدُّنيا ، وهو كان يحرّضُ أتابك على الغدر بسونج ، . فكأفاه الله[١] .

وهجم الشّتاء فعاد أتابك إلى حلب في ذي الحجَّة .

وملكتْ أنطاكية زوجة البيمند بنت بغدوين ، وحالفتْ جماعةً من الفرنج على قِتال أبيها ، ووقع بين الفرنج شرٌّ[٢] .

وهجم المسلمون ربضَ الأثارب ، وربض معرَّة مصرين ؛ فوصل بَغدوين من البيت المقدّس ، وأغار على أنطاكية وأخذ قوماً من أصحاب ابنته ، فقطع أيديهم وأرجلهم .

وفتح قومٌ من السرجندية[٣] باب أنطاكية ، فدخلها في سنة خمس وعشرين ، فطرحتْ ابنتهُ نفسها عليه ، فصفح عن ذنبها ، وأخذ أنطاكية ، ووهبها جبلة واللاّذقية ، وعاد إلى القُدس .

١ ـ انظر تاريخ ابن القلانسي ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ (حوادث سنة ٥٢٤ هـ) .
٢ ـ انظر وليم الصوري ص ٦٥٨ ـ ٦٦٠ .
٣ ـ غالباً ما كان السرجندية من المشاة ذوي التسليح الثقيل وممن كانت الكنيسة تتولى الإنفاق عليهم .

وتوجّه أتابك إلى الموصل في سنة خمس وعشرين وخمسمائة ، واستصحب معه سونج بن تاج الملوك ، وبعض المقدّمين ، من عسكر دمشق ؛ وترك الباقين بحلب ؛ وتردَّدَتِ المُراسلات في إطلاقهم ، فلم يفعل ؛ والتمس عنهم خمسين ألف دينار أجاب تاج الملوك إلى تحصيلها وحملها .

ووقع في هذه السَّنة وقعة بين جوسلين وسوار ، بناحية حلب الشماليّة ، فكانت الغلبة لجوسلين ؛ وقَتَل من المسلمين جماعةً ، وخرج سوار بعد ذلك فهجم ربض الأثارب ونَهَبَه .

ووصل دُبَيس في هذه السنة منهزماً من المسترشد ، وكان قد كسره عسكر المسترشد في هذه السّنة ، فانهزم وخفي خبره عن كلّ أحد ، فظهر بعد مدّة أنّه وصل إلى قلعة جعبر ، وأودع ابنَ السلطان عند مالك صاحبها ، وسار إلى جوسلين ، واستند إلى الفرنج فلم يَرَ ما يُعْجِبُهُ .

وكاتب تمرتاش ثم خاف من غَدْره ، وأن يفادي به خير خان ، فسار إلى بلد دمشق ، فنزل ضالاً على مكتوم بن حَسَّان .

وقيل : كان سائراً إلى صاحبة صَرْخد ليتزوَّجَها ، فضلّ في الطريق ، ولم يكن معه دليلٌ عارفٌ بالمناهل .

وقيل : كان قاصداً حلّة مُرى ، فهلك أكثر أصحابه .

وحصل في حلّة حسان كالمنقطع الوحيد في نفر يسيرٍ مِنْ أصحابه ،

فأنهض تاجُ الدَّوْلة بُوري العسكر إليه حينما سمع به ، فأَسَرَهُ ، ووصلوا به إلى دمشقَ ، لستٍّ خَلَوْنَ منْ شَعْبَان سَنَةَ خمسٍ وعشرين[1] ؛ وأنزله في دارٍ بقلعة دمشق ، وأكرمه وأضافه ، وحمل إليه من الملبوس والمفروش ما يليق به ، واعتقله اعتقال كرامة . وكاتب المسترشد في أمرهِ ، فردَّ عليه الجواب بالاحتياط عليه إلى أن يصل من يحمله إلى بغداد .

فلمَّا عرف أتابك زنكي ذلك ، أنفذ رسوله إلى تاج الملوك يطلبُ تسليم دبيس إليه ، وأن يُطْلِقَ له الخمسين ألف دينار المقرَّرة عن وَلَده سونج وبقيّة العسكر ، فأجاب إلى ذلك ، وتَقَرَّر الشَّرط عليه .

ووصل أتابك زنكي إلى قريب قارا بسونج والمعتقلين ؛ وتوجّه أصحابُ تاج الملوك بِدُبَيْس فتسلّمهُ زنكي ، وحمله في محفَّة مُقَيّداً ؛ وسلَّم سونج بن تاج الملوك وجماعَته إلى أصحابه .

وكان يظنّ دُبَيْس أنَّ أتابك زنكي يُهلكه ، فلمَّا وصل إلى حلب أطلقه وأكرمه ، وأنزله بحلب في دار لاجين ، وأعطاه مائة ألف دينار ، وخلع عليه خلعاً فاخرة[2] .

وكان عَرَض لدبيس في طريقه وهو مُكَبَّلٌ بالحديد شاعرٌ امتدحَهُ بأبياتٍ ، ولم يكن معه ما يُجيزهُ ، فكتب له في رُقْعَةٍ هٰذَيْنِ البَيْتَيْنِ ، ودفعها

١ ـ مرى بن ربيعة ، وحسان بن مكتوم . انظر بغية الطلب ص ٣٤٨١ ـ ٣٤٨٢ . تاريخ ابن القلانسي ص ٣٦٦ .

٢ ـ انظر بغية الطلب ص ٣٤٨٢ .

إليه :

الجُودُ فِعْلِي وَلٰكِنْ لَيْسَ لِي مَالُ ... وَكَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ بِالفَرْضِ يَحْتَالُ
فَهَاكَ خَطِّي إلى أَيَّام مَيْسَرَتِي ... دَيْناً عَلَيَّ فلي في الغَيْبِ آمالُ

فَجَاءه الشَّاعر بحلب ، وقد خَرَج مُسَيَّراً في مَيْدان الحَصَا ، فقال له : «يا أمير لي عليك دَيْنٌ !» فقال : «والله ما أَعْرِفُ لأَحَدٍ عَلَيّ دَيْناً»

فقال : «بلى ، وشاهِدُهُ منك» ، وأخرج له خَطَّه ؛ فلمَّا وقَفَ عليه قال : «إي والله دَيْنٌ وأَيُّ دَيْن !» وأمره أن يأتي إليه إذا نزل ، فأتاه فأعطاه ألفَ دينار والخِلْعةَ التي خلعها أتابك زنكي عليه ، وكانت جبَّة أطلس وعِمامة شَرب .

وحصل دُبَيْس بعد ذلك عند السُّلطان مسعود ، في سنة تسع وعشرين ، حتى كسر مسعود المسترشد وأَسرَه على بَاب مراغة[1] .

وسيَّر السُّلطان إلى أتابك زنكي يَسْتدعيه ، فكتب إلى أَتابك يُعْلِمُهُ ويُحَذِّرُهُ من المجيء فامتنعَ ، وكان السلطان قد سَيَّر دُبَيْساً إلى الحلّة ، واطّلع بعد ذلك على فِعل دُبَيْس ، فَرَدَّهُ ، وحَذَّره النَّاسُ فلم يفعل فوصل ، فلما وصل إلى الخيمة قام السُّلطان عن السَّرير ، وقال : «هٰذا جزاء مَنْ يَخُونُ مولاه» . وضَرَب رأسَه فأطَارَهُ ، فبلغ ذلك زنكي فقال : «فَدَيْنَاهُ بالمالِ وَفَدَانا بالرُّوحِ» .

---

١ ـ مراغة بلدة مشهورة عظيمة وهي أعظم بلاد أذربيجان وأشهرها . معجم البلدان .

وَوَصل سديدُ الدَّوْلة بن الأنباريّ كاتبُ الإنشاء للمسترشد إلى تاج الملوك ، في أواخر ذي القعدة لتسليم دُبَيْس إلى من يحمله إلى بغدادَ ، فوجد الأمرَ قد فات ، فعاد فصادفَتْه خيلُ أتابك زنكي بناحية الرَّحبة فأوقعوا به ، وقبضُوه ، ونَهَبُوا ما كان معه حتّى نهبوا القافلةَ الّتي كانت معه ، وقَتل بعضَ غِلْمانه ، ولقي شدّة عظيمة من الاعتقال إلى أن أُطلق ، وعاد إلى بغداد .

وفي سنة ست وعشرين وخمسمائة، فتح الملك كليام رامَ حمدان[1]، وسار أتابك ودبيس إلى بغداد ، مباينين للمسترشد ، وعزما على أن يهجما بغداد ، فبذل لهما الحِلَّة ، وأن يدخل نائبهما بغداد ، فأبيا فخرج إليهما المسترشد بنفسه ، والتقَوا في شعبان على عَقْرَقُوف[2] فكسرهما ، وعاد أتابك زنكي إلى الموصل ، وسار دُبيس إلى السّلطان سنجر .

ووقع بَيْنَ الفرنج ، في هذه السنة ، فتنٌ ، وقَتَل بعضُهم بعضاً ، وقتل صاحب زردنا ، ونزل التركمان على بلد المَعرَّة وكفرطاب ، وقسموا المغلاَّت ، فاجتمع الفرنج وهزموهم عن البلد ، وفتحوا حصن قبّة ابن ملاعب ، وأسروا منه بنتَ سالم بن مالك وحريم ابنِ ملاعب ، وخرَّبوا الموضع .

وأوقع الأَميرُ سيف الدّين سوار بفرنج تلّ باشر ، وقَتَلَ منهم خلقاً كثيراً ، وَوَثَب قومٌ من أهلِ الجبل على حِصْن القدموس ، فأخذوه وسلّموه

١ ـ رام حمدان من قرى ناحية معرتمصرين ، محافظة ادلب ، وتبعد عن ادلب مسافة ١٥ كم .
٢ ـ عقرقوف قرية من نواحي دجيل ، بينها وبين بغداد أربعة فراسخ .

إلى سيف الملك بن عمرون ، فاشتراه أبو الفتح الدَّاعي الباطنيّ منه .

ووصل صاحب القدس إلى أنطاكية ، وجمع وخرج إلى نَواز ، وسار إلى قنَّسرين في جموع الفرنج ، والتَقَوْا بِعَسْكَر حلب وسوار ، وفي سنة ثمانٍ وعشرين في ربيع الأوَّل ، فكسروا المُسلمين ، وقتلوا أبا القَاسم التركماني ، وكان شجاعاً ، وقتلوا القاضي أبا يَعْلى بن الخَشَّاب ، وغيرهما .

وتحوّل الفرَنجُ إلى النّقرة ، فصالحهم سوار والعسكر ، فأوقُعوا بسريّةٍ منهم ، فقتلوهم ، وعادوا برؤوسهم وأُسْرَى منهم ، فَسُرَّ النَّاسُ بذلك بعد مساءتهم بالأمس .

وأغارتْ خيل الرّها من الفرنج ببلد الشِّمال ، وهي عابرة إلى عساكر الفرنج ، فأوقع بهم سوار وحَسَّان صاحب منبج وقتلوهم بأسرهم وحملوا الرؤوس والأسرى إلى حلب[1] .

وفتح شمسُ الملوك اسماعيل بن تاج الملوك حماة من يد نائب صلاح الدّين[2] ، وكان قد عَزَم على ذلك ، فَتَحَصَّنَ واليها ، فانتهى ذلك إلى شمس الملوك ، فخرج في العَشر الأواخر من شَهر رَمَضان ، وعَزَم على قصدها والنَّاس بها غافلون .

وهجم يوم العيد على من فيها وَزَحف في الحال فتحصَّنوا منه ، فعاد في

١ ـ انظر ابن القلانسي ص ٣٧٤ (حوادث سنة ٥٢٧ هـ) مع الحواشي .
٢ ـ صلاح الدين اليغيسياني ، من أكبر شخصيات دولة زنكي .

ذلك اليوم ، وقد نكا أصحابه في أهلها ، ثمّ زحف عليها زحفاً قوياً ، فانهزموا بين يديه ، وهجم البلدَ فطلبوا الأمان فأمّنهم ، وحلّفه والي القلعة على أشياء اقترحها ، وأجابه إليها وسلمها إليه ، فسلّمها إلى شمس الخواصّ .

وحصر المسترشدُ الموصلَ ، وثارتْ الحروبُ بين السّلاطين ، فبلغ المسترشدَ ما أزعجه ، فعاد عنها ، فوصل حسام الدّين تمرتاش إلى خدمة أتابك زنكي ، فسار معه إلى لقاء داود بن سكمان بن أُرْتُق ، فكسره أتابك بباب آمد ، وانهزم داوُد وأسر ولده ، وقتل جماعة من أصحابِهِ ، وذلك في يوم الجمعة سلخ جمادى الآخرة .

ونزل على آمد وحَصَرَها ، وقَطَع شجَرها ، فصانَعَهُ صاحبُها بمال ، فرحل عنها إلى قلعة الصّور ففتحها ، وفتح البارعيّة ، وجبل جور ، وذا القرنين ، وَوَهَب ذلك كلَّه لِحُسام الدّين تمرتاش ، وفتح طنزة فاستبقاها لنفسه[1] .

وتزوّج أتابك صاحبة خلاط ابنة سقمان القُطبي .

واستولى أتابك على العقر[2] وشوش[3] وغير ذلك من قلاع الأكراد ؛

---

١ ـ أتى ابن الأزرق الفارقي على ذكر تفاصيل هذه الحوادث ، انظرص ٥٢٥٠ مع التعريف بالأماكن الجغرافية .

٢ ـ عقر الحميدية قلعة حصينة كانت للأكراد ببلاد الموصل ـ الأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ص ٨١١ .

٣ ـ عند ابن الأزرق «تل شيح» ووافقت رواية ابن العديم هنا رواية ابن الأثيرج ٨ ص ٣٤٣ .

وأغار في هذه السَّنة سوار على الجزر وحصن زَردنا ، وأوقع بالفرنج على حارم ، وشَحن على بلد المَعَرَّتين ، وعاد بالغنائم إلى حلب .

واستَوزر زنكي في هذه السَّنة ضياء الدين أبا سعد الكفرتوثي ، وكان مشهوراً بحسن الطَّريقة والكفاية وحبّ الخير والمذهب الحميد ، وقَدم معه إلى حلب ، وعَزَم على قصد دمشق ومُضايقتها .

وَذَكَرَ العظيمِيُّ في تاريخه : «أنّه حَصَرَها في هذه السَّنة مدَّة[1] ، ثمَّ رحل إلى حلب ، ثُمَّ شَرَّق إلى المَوْصل» .

والصحيح : أنَّه حَصَرَها في سَنة تسعٍ وعشرين وخمسمائة .

وذلك أنَّ صاحبها شمس الملوك أبا الفتح اسماعيل بن بوري ، انهمك في المعاصي والقبائح ، وبالغ في الظُّلم ، وأعرض عن مصالح الدّين والنظر في أمور المسلمين ، بعد اهتمامه أوّلاً بذلك .

واستخدم بين يديه رجلاً كردياً ـ يعرف ببدران الكافر ـ جاءه من بلد حمص ، وكان قليل الدّين متنوّعاً في أبواب الظلم ، ليس في قلبه لأحد رحمةٌ ، فَسَلَّطَه على ظُلم المسلمين ومصادرة المتصرّفين بأنواعٍ قبيحةٍ من الظُّلم ، وظهر منه بُخْلٌ عظيم وسَفَّتْ نفسُه إلى تناول الدنايا وغير ذلك من الأفعال الذَّميمة .

---

١ ـ أي سنة ٥٢٨ هـ ، انظر تاريخ حلب للعظيمي ـ ط . دمشق ١٩٨٥ ص ٣٨٦ ، وعند ابن القلانسي ص ٣٩٠ ـ ٣٩٢ بين حوادث السنة التالية ٥٢٩ هـ .

وعزم على مُصادرة كُتّابه وحُجّابه وأُمَرائه ، فخاف منه أصحابُه ، واستشعروا منه ، ووَقَعَتْ الوَحشةُ بينهم .

وعرف عزم أتابك زنكي على قصد دمشق ، وأنه متى وَصلها سُلّمتْ إليه ، فكاتب أتابك زنكي وَحثّه على سرعة الوصول إليها ليسلّمها إليه طوعاً ، وَشرَط عليه أن يمكّنه من الانتقام من كُلّ من يكرهه من المقدّمين والأُمراء والأعيان ، وكرَّر المكاتبة إليه في ذلك ، وقال : «إن أهملتَ هذا الأمرَ استدعَيْتُ الفرنج وَسَلَّمْتُ دمشقَ إليهم ، وكان إثمُ المسلمين في عنقك» .

وَشرَع في نقل أمواله وأحواله إلى صَرْخد : فظهر هذا الأمرُ لأَصْحابه ، فأشفقوا من الهلاك وأعلموا والدتَه زمرّد خاتون بذلك ، فقلقت له ، وحَسَّنُوا لها قتلَهُ ، وتمليك أخيه شهابِ الدّين محمود ؛ فرجح ذلك في نظرها ، وعزمتْ عليه ، فانتظرتْ وَقتَ خلوته مِن غلمانه وسلاَحِيّته ، وأدخلت عليه من أصحابها مَنْ قتله .

وأخرَجتْهُ فأُلقِيَ في ناحية من الدّار ليشاهدَهُ غِلمانه وأَصحابُه فسرُّوا بذلك ، وذلك في يوم الأَربعاء الرَّابع عشر من شهر ربيع الآخرة ، سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وقيل : إنَّه اتّهم يُوسُفَ بْنَ فيروز حاجبَ أبيه بوالدته ، فهرب منه إلى تدمر ، فأراد قتلَ أُمّه ، فبلغها الخبرُ فقتلتْهُ خوفاً منه ، وأجلستْ والدَتُه

مكانه أخاه شهابَ الدّين محمودَ بن بوري[1] ، وحلف النَّاسُ له . وتَوَجَّهَ أتابك زنكي من الموصل مُجدّاً ليتسلَّم دمشق من شمس الملوك ، فوصل إلى الرَّقة وقال : «أَشْتَهي أن أدخل الحمام» . فأحضرَ صلاحُ الدّين مسيّب بنَ مالك صاحب الرّقة ، وقال له : «أتابك يَشتهي دخولَ الحَمّام ، وهذه خمسمائة دينار تَسلّمها واعمل له بها دعوة» فلم يشكَّ في ذلك ، ودخلوها ، فلما حصلوا بها أخذوها منه ، وذلك في العشرين من شهر ربيع الآخر .

وبَلَغه ما جَرى بدمشق ، فلم يقطع طَمَعَه فيها ، وسار فنزل العبيدية[2] ، وراسَل أهلَ دمشق ، فلم يجيبوه إلى مطلوبه ، وردّوا عليه جواباً خشناً ، يتضمَّن أنَّ الكلمة قد اتَّفَقَتْ على حِفظ الدَّولة والذبّ عنها ، فلم يحفل بذلك .

وسار إلى حماة فخرج إليه شمسُ الخواص بعد أن توثَّق منه بالأيمان ، ورحل إلى دمشق ، وسار إليها ، فنزل على دمشق في عسكر عظيم ، وزحف عليها مراراً متعدّدة ، فلم يظفر فيها بطائل ، واشتدّ الغلاءُ في العسكر ، وعدموا القوتَ ، وقفز جماعةٌ من العسكر إلى دمشق ، ووقعت المراسلةُ في حديث الصلح ، وكان قد وصل مع أتابك بعض أولاد السُّلطان فطلب أن يخرج شهابُ الدّين محمود لوطء بساط ولد السّلطان ، فلم يفعل .

واتّفق الأمرُ على خروج أخيه تاج الملوك بهرام شاه ، واتّفق عند ذلك

١ - لمزيد من التفاصيل انظر القلانسي ص ٣٨٧ - ٣٩٠ .
٢ - في ابن القلانسي ص ٣٩١ : «وخيم بأرض عذراء إلى أرض القصير» .

وصول بشر بن كريم بن بشر رسولاً من المسترشد إلى زنكي بخلعٍ هُيِّئت له ؛ وتقدَّم إليه بالرَّحيل عن دمشق والوصول إلى العراق ، ليولِّيه أمره وتدبيره ، وأن يخطب للسُّلطان ألب أرسلان داود بن محمود المُقيم بالموصل ـ وكان قد وصل هارباً من بين يَدَي عَمّه السُّلطان مسعود ـ فأكرمه أتابك .

فدخل الرَّسُول وبهاءُ الدّين بن الشهرزُوريّ إلى دمشق ، وقرَّرا هذه القاعدة وأخمدا الفتنة ، وأكَّدا الأيمان ؛ وخطب يوم الجمعة الثَّامن والعشرين من جُمادى الأُولى بجامع دمشق بحضورهما ، على القاعدة الّتي وَصَل فيها الرَّسول[1] .

وعاد أتابك من دمشق ، فلمَّا وصل حماة قبض على شمس الخواص صاحبها ، وأنكر عليه أمراً ظهر منه ، وشكا أهلُها من نُوَّابِهِ فَتَسَلَّمها منه ، وأطلقه فهرب ، ورَدَّ حماة إلى صلاح الدّين وَرَحل مِنْ حَماة .

وسار إلى بلد حلب ، فنزل على الأثارب ، ففتحها أَوَّلَ رجب ، ثمَّ فَتَح زَردنا ، ثم تَلّ أَعذى، ثمّ فَتَح مَعَرَّة النُّعمان، ومَنَّ على أهلها بأملاكهم، ثمَّ فَتَحَ كَفَرطاب ونزل على شيزر فخرج إليه أبو المغيث بن منقذ نائباً عن أبيه ، ثمَّ نَزَل بارين[2] وأظهر أَنَّه يحاصرها ، ثمَّ سار ، وأهل حمص غارون ، فَشَنَّ عليهم الغارةَ ، واستاق كلَّ ما كان في بلدها ونهبهم .

---

١ ـ لمزيد من التفاصيل انظر ابن القلانسي ص٣٩٢ .

٢ ـ تعرف الآن باسم بعرين وهي من قرى منطقة مصياف في محافظة حماه وتبعد عن حماة مسافة ٤٢ كم .

ووصل ابن الفنش الفرنجي من بيت المقدس وخرج في جموع الفرنج ، فنزل قِنَّسرين ، فسار إليهم أتابك فأَحسن التَّدبير ، وما زال بالمسلمين حولهم حتى عادوا إلى بلادهم .

وسار زنكي إلى حمص فأحرق زرعها ، وقاتلها في العشر الأَواخر من شَوَّال ، ثمّ سار إلى الموصل في ذي القعدة من هذه السَّنة .

وسار منها في المحرَّم من سنة ثلاثين وخمسمائة إلى بغداد ، ومعه داود بن محمود بن ملكشاه الواصل إليه إلى الموصل ، فأنزله في دار السَّلطنة ببغداد ، وأتابك في الجانب الغربيّ ، والخليفة إذ ذاك الرَّاشد بعد قَتْل المُسْتَرشِد .

فوصل السّلطان مسعود إلى بغداد فحصرهم بها فوقع الوباء في عسكره ، فسار إلى أرض واسط ليعبر إلى الجانب الغربيّ ، فاغتنم أتابك غيبته ، وسار إلى الموصل ، وسار داود إلى مراغة .

وبلغ الخبر السُّلطان مسعود فعاد ، فهرب الرَّاشد ، ولحق أتابك بالموصل . ودخل مسعود بغداد ، فبايع محمد المقتفي ، وخطب له ببغداد وأعمال السُّلطان ، وبقيت الخطبَة بالشَّام والموصل على حالها إلى أن اتّفق أتابك زنكي والسّلطان مسعود واصطلحا ، وخطب بالشام والموصل للمقتفي ولمسعود . وفارق الرَّاشد إذ ذاك زنكي ، وسار عن الموصل إلى خراسان في سنة إحدى وثلاثين[1] .

---

١ ـ عاصر ابن الأزرق الفارقي هذه الأحداث ومواده على درجة عالية من الأهمية ، انظر الموسوعة الشامية ص ٥٢٢٦ ـ ٥٢٤٩ .

وسار سيف الدّين سوار في سنة ثلاثين وخمسمائة في جمع من التركمان يبلغ ثلاثة آلاف إلى بلد الّلاذقيَّة ، وأغار على الفرنج على غرّة وقلّة احتراز ، فعادوا ومعهم ما يزيد على سبعة آلاف أسير ، ما بين رجل وامرأةٍ وصبي وصبيَّةٍ ومائة ألف رأس من البقر والغنم والخيل والحمير ، والّذي نهبوه - على ما ذُكر - مائة قرية وامتلأت حلب من الأُسارى والدَّواب ، واستغنى المسلمون بما حصل لهم من الغنائم .

ووصل أتابك زنكي من الموصل إلى حلب ، في رابع وعشرين من شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين ، وسَيَّر صلاحَ الدّين في مقدمته ، فنزل حمص ، وسار أتابك إلى حماة ، وعَيَّد عيدَ الفطر في الطَّريق ، وأخذ من حلب معه خمسمائة راجلٍ لحصار حمص .

ورحل أتابك من حماة إلى حمص في شوال وبها أنَر[1] من قِبَل صاحب دمشق ، فحصرها مدّة .

وخرج الفرنج نجدةً لحمص وغيلةً لزنكي ، فرحل عَن حمص ، ولقيَهم تحت قلعة بارين ، فكسرتْهُم طلائعُ زنكي مع سوار ، فأفنوا عامَّتهم قتلاً وأسراً ، وقتل أكثر من ألفَيْن من الفرنج ، ونجا القليلُ منهم ، فدخل إلى بارين مع ملكهم كندياجور[2] صاحب القدس ؛ وأقام الحصار على بارين

١ - المعلومات لدى ابن القلانسي أوسع ص ٣٩٧ - ٣٩٨ ، وسيكون لمعين الدين أنر دور السيادة في دمشق حتى وفاته فبعد وفاته بقليل سقطت - كما سنرى - لنور الدين محمود بن زنكي . انظر تاريخ ابن القلانسي ص ٤١٥ .
٢ - هو فولك أوف آنجو . انظر تاريخ وليم الصوري ص ٦٨٦ - ٦٨٩ .

بعشر مجانيق ليلاً ونهاراً ، ثمَّ تقرَّر الصلح في العشر الأواخر من ذي القعدة على التَّسليم بعد خراب القلعة .

وخلع على الملك وأُطلق ، وخرج الفرنج منها ، وتسلَّمها زنكي ، وعاد إلى حلب .

واستقرَّ الصلح بين أَتابك وصاحب دمشق ، وتزوَّج أتابك خاتون بنت جناح الدَّولة حسين ، على يد الإمام بُرهان الدّين البَلْخي ، ودخل عليها بحلب في هذه السَّنة .

ووصل في هذه السَّنة ملك الروم كالياني[1] من القُسْطَنْطينية في جموعه ، ووصل إلى أنطاكية فخالفه الفرنج ـ لطفاً من الله تعالى ـ وأقام إلى أن وصلته مراكبه البحريَّة بالأَثقال والميرة والمال ، فاعتمد لاون بن دوبال[2] صاحب الثّغور في حقّه فتحاً عظيماً .

وتخوّف أهلُ حلب منه فَشرَعوا في تحصينها وحفر خنادقها ، فعاد إلى بلاد لاون فافتتحها جميعها ، فدخل إليه لاون متطارحا ، فقال : «أنت بين الفرنج والأَتراك لا يصلح لك المَقام» ، فسيَّره إلى القُسطنطينية ، وأقام في عين زربة وأذنه والثُّغور ، مدَّة الشتاء .

وكان في عودهِ عن أنطاكية إلى ناحية بغراس[3] في الثَّاني والعشرين من

١ ـ هو يوحنا بن ألكسيوس كومنين . انظر تاريخ وليم الصوري ص ٦٨٤ ـ ٦٨٦ .
٢ ـ ملك دولة أرمينية في كليكية .
٣ ـ وصف ابن العديم كل من عين زربه والمصيصة وبغراس ومدن الثغور الأخرى في كتابه بغية الطلب ص ١٥١ ـ ١٧٢ .

ذي الحجة من سنة إحدى وثلاثين ، أنفذ رسوله إلى زنكي ، وظفر سوار بسريّة وافرةِ العَدَد مِن عَسْكره ، فقَتل وأُسر ، ودخل بهم إلى حلب .

ووصل الرَّسولُ إلى زنكي ، وهو متوجّهٌ إلى القبلة فردّه ومعه هدية إلى ملك الروم : فهود وبزاة وصقور ، على يد الحاجب حسن ، فعاد إليه ومعه رسول منه وأخبره بأنّه يحاصر بلاد لاون ، فسَار إلى حماة ، ورحل إلى حمص فقاتلها .

ثم سار في نصف المحرّم من سنة اثنتين وثلاثين فنزل بعلبك ، وأخذ منها مالاً ، وسار إلى ناحية البقاع فملك حصن المجدل[1] من أيدي الدمشقيين ، ودخل في طاعته ابراهيم بن طرغت والي بانياس .

وشتى أتابك زنكي بأرض دمشق ، وورد عليه رسول الخليفة المقتفي والسلطان مسعود بالتّشريف ، ثمَّ رحل أتابك عن دمشق في شهر ربيع الآخر ، وعاد إلى حماة ، ثمَّ رحل عنها إلى حمص ، فخيّم عليها ، وجرّد من حلب رجالاً لِحصارها ، وجمع عليها جموعاً كثيرة ، وهجم المدينة ، وكسر أهلها ونالَ منهم منالاً عظيماً .

ونَقضَ الفرنج الهدنة الّتي كانت بينهم وبين زنكي على حلب ، وأظهروا العِنَاد ، وقبضوا على التّجار بأنطاكية والسّفار من أهل حلب ، في جمادى الأولى من السّنة ، بعد إحسانه إليهم واصطناعه لمقدّميهم ، حين

١ ـ في تقويم البلدان ص ٢٣٠ . وبالقرب من عين الجرضيعة تعرف بالمجدل وهي على الطريق الآخذ من بعلبك على وادي التيم . هذا وتعني كلمة مجدل : حصن .

أظفره الله بهم ، وانضافوا إلى ملك الرُّوم كالياني .

وَظَهر مَلِكُ الرُّوم بغتةً من طريق مدينة البلاط ، يوم الخميس الكبير من صومهم ؛ ونزل يومَ الأحد يومَ عيد النَّصارى ، وهو الحادي والعشرون من شهر رجب ، على حصن بزاعا .

وانتَشرت الخيلُ بغتةً فلطف الله بالمسلمين ، فرأوا رجلاً من كافر ترك[1] ومعه جماعة منهم ، قد تاهوا عن عسكر الروم ، وأظهروا أنّهم مستأمنةٌ وأنذروا من بحلب بالرُّوم .

فتحزَّر النَّاسُ وتحفَّظوا ، وكاتبوا أتابك زنكي بذلك ، فوصله الخبر وهو على حمص ، فسيّر في الحال الأمير سيف الدّين سوار والرّجالة الحلبّيين وخمسمائة فارس ، في أربعة من الأمراء الاصفهسلاريّة[2] منهم زين الدّين علي كوچك ، فقويت قلوب أهل حلب بهم ، ووصلوا في سابع وعشرين من رجب .

وأمّا الرُّوم فإنَّهم حصروا حصن بزاعا ، وقاتلوه سبعة أيّام ، فضعفتْ قُلوب المسلمين ، وكان الحصن في يد امرأة فسلَّموه إلى الرُّوم بالأمان ، بعد أن توثَّقوا منهم بالعهود والأيمان ، فغدروا بهم ، وأسروا من بزاعا ستة آلاف مسلم أو يزيدون ؛ وأقام الملِكُ بالوادي يدخّن على مَغَاير الباب عشرة أيّام ، فهلكوا بالدخان .

---

١ ـ استخدمت بيزنطة أعداداً كبيرة من العناصر التركية الوثنية بمثابة مرتزقة في جيوشها .
٢ ـ القادة الكبار .

ثم رحل فنزل يوم الأربعاء الخامس من شعبان ، بأرض الناعورة ، ثُمَّ رحل يوم الخميس سادس شعبان ، ومعه ريمند صاحب أنطاكية وابن جوسلين ، فنزل على حلب ونَصَب خيمته من قبليّها على نهر قويق ، وأرض السعدي ، وقاتلَ حَلَب يوم الثّلاثاء من ناحية بُرج الغَنَم[1] وخرج إليهم أحداثُ حلب ، فقاتلوهم وظهروا عليهم ، وقُتِل من الرُّوم مقدَّمٌ كبيرٌ ورجعوا إلى خيمهم خائبين .

وَرَحل يوم الأربعاء ثامن شعبان مقتبلاً إلى صلدي[2] فخاف مَنْ بِقَلْعَة الأثارب من الجُند المسلمين ، فهربوا منها يوم الخميس تاسع شعبان ، وطرحوا النَّار في خزائنهم .

وعَرف الرُّوم ذلك فخَفَّتْ منهم سرِّيةٌ وجماعةٌ من الفرنج ، ومعهم سبي بزاعا والوادي ، فملكوا القلعة ، وألجأوا السَّبْيَ إلى خنادِقها وأحواشها ، فهرب جماعةٌ منهم إلى حلب ، وأعلموا الأميرَ سيفَ الدّين سوار بْنَ أيتكين بذلك ، وأنَّ الروم انعزلوا عنها .

فنهض إليهم سوار في لَمَّةٍ من العسكر ، فصابحهم وقد انتشروا بعد طلوع الشَّمْس ، فوقع عليهم واستخلص السَّبي جميعَه إلاّ اليسير منهم ، وأركب الضُّعفاء منهم خلف الخيَّالة حتَّى أنّه أخذ بنفسه جماعةً من الصّبيان ، وأركبهم بين يديه ومِنْ خلفه ، ووصل بهم إلى حلب ، ولم يبق من السَّبي إلاَّ

١ - كان هذا البرج من أشد أبراج سور حلب مناعة .
٢ - قرية قريبة من حلب على نهر قويق .

القليل ، ووصل بهم إلى حلب في يوم السَّبت الحادي عشر من شعبان ، فسُرَّ أهلُ حلب سروراً عظيماً .

وكان أتابك قد رحل من حمص إلى حماة ثم رحل إلى سَلَمية ، ورحل ملك الرُّوم إلى بلد مَعَرَّة النُّعمان ، ورحل عنها يوم الاثنين ثالث عشر شعبان إلى جهة شَيْزَر ، ونزلوا كفرطاب ورموها بالمجانيق ، فسلَّمها أهلُها في نصف شعبان .

وهرب أهل الجسر[1] ، وتركوه خالياً فوصله الرُّوم ، وجلسوا فيه ورحلوا عنه إلى شيزر ، يوم الخميس سادس عشر شعبان ، فوصلوها في مائة ألف راكب ومائة ألف راجل ، ومعهم من الكراع والسّلاح ما لا يحصيه إلَّا الله ، فنزلوا الرَّابية المشرِفَة على بلدة شيزر ، وأقاموا يومَهم ويوم الجمعة إلى آخر النّهار .

وركبوا وهجموا البلدَ ، فقاتلهم النَّاسُ وجُرح أبو المرهف نصر بن منقذ ، ومات في رمضَان من جُرْحِه ذلك .

ثمَّ انهزم الرُّوم ، وخرجوا ، ونزل صاحب أنطاكية في مسجد سمّون ، وجوسلين في المصّلى ، وركب الملكُ يوم السَّبت ، وطلع إلى الجبل المقابل لقلعة شيزر المعروف بجريجس ، ونصب على القلعة ثمانية عشر منجنيقاً وأربع لعب تمنع النَّاس من الماء .

---

١ - جسر شيزر وكان عليه موقع حصين غير بعيد عن شيزر نفسها .

وَدَام القتالُ عشرة أيام ، ولقي أهل قلعة شيزر بلاءً عظيماً ، ثمّ اقتصروا في القتال على المجانيق ، وأقاموا إلى يوم السَّبت تاسع شهر رمضان .

وبلغهم أنَّ قرا أرسلان بن داود بن سكمان بن أُرْتُق عَبَر الفُرات في جموعٍ عظيمة تزيد عن خمسين ألفاً من التّركمان وغيرهم ، فأحرقوا آلات الحصار ، ورحلوا عن شيزر ، وتركوا مجانيق عظاماً رفعها أتابك إلى قلعة حلب بعد رحيلهم ، وساروا بعد أن هجموا ربض شيزر دفعات عدة ، ويخرجهم المسلمون منها[1] .

فوصل صلاح الدّين من حماة يوم السَّبت تاسع الشَّهر ، وبلغه أنَّ الفرنج هربوا من كفرطاب فسار إليها ، وملكها ، ووصل أتابك يوم الأحد عاشر الشّهر ، وسار إلى الجسر يوم الاثنين ، فوجد الفرنج قد هربوا منه نصف اللَّيل ونزل أهلهُ من «أبي قبيس»[2] ، فمنعوهم .

وَدَخل الرُّوم مضيق أُفامية إلى أنطاكية ، وطلبها من الفرنج فلم يعطوه إيّاها ، فرحل عنها إلى بلاده ، وسَيَّر أتابك خلفهم سرِّية من العسكر تتخطَّفُهم . هذا كلّه وأتابك لم يستحضر قرا أرسلان بن داود ، ولم يجتمع به ؛ بل بَعَث إليه يأمُره بالعود إلى أبيه ، وأنّه مستغنٍ عنه وانحاز عنهم فنزل

---

١ ـ لمزيد من المعلومات انظر ابن القلانسي ص ٤١٥ ـ ٤١٨ . وليم الصوري ص ٦٩٥ ـ ٦٩٧ .

٢ ـ ماتزال قلعة أبي قبيس قائمة ، وتبعد عن مدينة حماه مسافة ٥٤ كم .

أرض حمص ، وكتب إلى شهاب الدّين محمود بن بوري يطلبها .

وتردّدت الرّسل بينهم على أن يسلّم إلى أتابك حمص ، ويعوّض أنر واليها ببارين ، واللكمة[1] والحصن الشرقيّ ، وأن يتزوّج أتابك أمه زمرّد خاتون بنت جاولي ، ويتزوَّج محمود ابنةَ أتابك ؛ ويسلّم أتابك حمص ، ويسلّم الدمشقيون المواضع المذكورة .

وسارت زمرّد خاتون مِن دارها إلى عسكر زنكي مع أصحابه المَندوبين لإيصالها إليه في أواخر شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين ، وقد اجتمع عنده رسول الخليفة المقتفي ، وألبسه التَّشْريف الواصل إليه ، ورسول السّلطان ، ورسول مصر ، والرّوم ، ودمشق .

ورحل أتابك عن حمص ، وسار إلى حلب ، ثمَّ خرج منها إلى بزاعا وفَتَحها بالسَّيف ، يوم الثلاثاء تاسع عشر محّرم من سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ؛ وقَتَل كلَّ من كان بها على قبر شَرَف الدَّوْلة مسلم بن قريش ، وكان ضُرب عليها بسَهْم في عينهِ فمات .

وَعَاد منها إلى حلب ، وسار إلى الأثارب ، ففتحها ، في ثالث صَفَر .

وفي يوم الخميس ثالث عشر صفر ، حدثت زلزلةٌ شديدةٌ ثمّ اتبعها أخرى ، وتواصلت الزّلازل ، فهرب النَّاس من حلب إلى ظاهر البلد وَخَرجت الأحجارُ من الحيطان إلى الطَّريق ، وسمع النَّاسُ دوياً عظيماً ،

---

١ ـ اللكمة : حصن بالساحل قرب عرقة . معجم البلدان .

وانقلبت الأثاربُ فهلك فيها ستّمائة من المسلمين ، وسلم الوالي ومعه نفرٌ يسيرٌ ، وهلك أكثر البلاد من شيح ، وتلّ عمار[١] ، وتلّ خالد ، وزَردنا[٢] ؛ وشُوهِدَت الأرضُ تموج ، والأحجار عليها تضطّرب كالحنطة في الغربال .

وانهدمَ في حلب دورٌ كثيرةٌ ، وتشّعث السُّورُ ، واضطّربت جُدران القلعة ، وسار أتابك مشرّقاً فَنَزل القلعة فأخذها ، وسار منها إلى القلعة[٣] ، ثمَّ إلى الموصل .

وتواترت الزَّلازل إلى شَوَّال ، وقيل : إنَّ عدَّتها كانت ثمانين زلزلة . وكان في سنة اثنتين وثلاثين قد عولَ أتابك على قَبض أملاك الحلبيين الّتي استحدثوها من أيَّام رضوان إلى آخر أيّام إيلغازي ، ثمَّ قرر عليهم عشرة آلاف دينار ، فأدّوا مِنْ ذلك ألف دينار ؛ وجاءتْ هذه الزَّلازل ، فهرب أتابك من القلعة إلى ميدانها حافياً ، وأطلق القطيعة .

وفي هذه السَّنة ، نهض سوار إلى الفرنج فغنم من بلادهم ، ولحقوه فاستخلصوا ما غنم ، وانهزم المسلمون فغنم الفرنج ، وأخذوا منهم ألفاًومائتي فارس ، وأسروا صاحب الكهف ابنَ عمرون ، وكان قد سلَّمها إلى الباطنية[٤] .

---

١ ـ تل عمار في منطقة أعزاز محافظة حلب ويبعد عن حلب مسافة ٣٣ كم .
٢ ـ زردنا في جوار مدينة أدلب وتبعد عنها مسافة ٢٥ كم .
٣ ـ عند العظيمي في تاريخ حلب ص ٣٩٤ : «وفتح داراً ورأس العين» .
٤ ـ الكهف إحدى قلاع الدعوة في جبال بهراء .

وفي شهر رمضان منها ، استحكمَ الفَسَادُ بين أتابك وتمرتاش ، فنزل أتابك زنكي[1] دارا ، وحصرها وافتتحها في شوّال ، وأخذ رأس عين[2] وَجَبَل جُور[3] وَذَا القَرْنين[4] ومات سوتكين الكرجي بحّران ، فأَنْفَذَ أتابك زنكي وأخذها .

وقُتِلَ شِهابُ الدّين محمود بن تاج الملوك على فراشه ، ليلةَ الجمعة الثالثة والعشرين من شوّال من السنة ، قتله البغش ويوسف الخادم ، وفرّاش ، وكان قد قَرَّبهم واصطفَاهم[5] .

وسير أنر إلى محمَّد أخيه صاحب بعلبك ، فأجلسه في منصب أخيه وأخرج أخاه بهرام شاه فمضى إلى حلب وشرّق إلى أتابك زنكي .

وعلمتْ والدتُه زمرُّد خاتون ، فأرسلت إلى زوجها زنكي ، وهو بالموصل تستدعيه لطلب الثار بولدها ، وتحثُّه على الوصول ، فأقبلَ وفي مقدّمته الأمير الحاجب صلاح الدّين ، فسار إلى حماة .

ووصل زنكي حتّى عبر الفرات ، ونزل بالناعورة ، ودخل حلب ،

---

١ ـ دارا مدينة بين نصيبين وماردين . معجم البلدان .

٢ ـ رأس العين إحدى المدن السورية على نهر الخابور مقابل الحدود التركية .

٣ ـ جبل جور أحد حصون ديار بكر قريب من أرمينية . الأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ج ٢ ص ٧٧٦ .

٤ ـ حصن ذي القرنين حصن يقع تحته رأس دجلة شمالي ميافا فارقين ـ الأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ج ٢ ص ٧٨٣ .

٥ ـ لمزيد من التفاصيل انظر ابن القلانسي ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ . مرآة الزمان ج ١ ص ١٧١ .

ورحل إلى حماة في سابع ذي الحجة ، ورحل إلى حمص ، ثم إلى بعلبك ، فحصرها أوّل محّرم من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، وضربها بالمجانيق إلى أن فتحها يوم الاثنين رابع عشر صفر .

وفتح القلعة يوم الخميس خامس وعشرين منه ، وأقام بها إلى منتصف شهر ربيع الآخر ، وكان قد حلف لأهل القلعة بالأيمان المغًلظة والمصحف والطلاق ، فلمّا نزلوا غدر بهم ، وسلخ واليَها ، وشنق الباقين ، وكانوا سبعةً وثلاثين رجلاً ، وغَدَر بالنّساء ، وأخذهم .

وسار في نصف ربيع الآخر إلى دمشق لُمضايقتها فنزل على دَارَيّا ، وزحف إلى البلد ، وراسل محمَّد بن بوري في تسليمها ، وأخذ بعلبكّ وحمص ، وما يقترح معهما عوضاً عنها ، وأراد إجابته إلى ذلك فمنعه أصحابه ، وخوَّفوه الغدرَ به ، فمات محمّد بن بوري ، في ثامن شعبان ، ونصبَ ولَدَه عَضب الدولة أبق مكانه .

وكاتب أنر الفرنج في نجدته ، وتسليم بانياس من ابراهيم بن طرغت إليهم ، فتجمَّعوا لذلك ، فرحل أتابك عن دمشق ، في خامس شهر رمضان ، للقاء الفرنج إن قربوا منه إلى ناحية بصرى وصرخد من حوران ، وأقام مدّة ، ثم عاد إلى الغُوطة فنزل عذراء وأحرق عدة ضياع من الغوطة .

ووصل الفرنج فنزلوا بالميدان ، فرحل أتابك إلى ناحية حمص . وأسر ريمند صاحب أنطاكية ابراهيم بن طرغت صاحب بانياس ، وقتله ، ونزل

معين الدّين أنر عليها فحصرها وتسلَّمها ، وسلّمها إلى الفرنج ، وعادت خاتُون إلى حلب في عشرين من ربيع الأَول .

وعاد أتابك إلى حلب في الرّابع والعشرين من جُمادى الأُولى ، واستقرّ الحالُ بين زنكي وأبق على أن خطب زنكي بدمشق .

ومات قاضي حلب أبو غانم محمّد بن أبي جرادة في شهر ربيع الآخر من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، فولّى أتابك قضاء حلب وَلَده أبا الفضل هبة الله بن محمد بن أبي جرادة ، ولمَّا استحضره وولَّاه القضاء قال له : «هذا الأمرُ قد نزعتهُ من عُنقي ، وقلَّدتُك إيَّاه ، فينبغي أن تتقي الله وأن تساوي بين الخصمين ، هكذا» ؛ وجمع بين أصابعه .

وكثر عَيْث التّركمان وفسادهم ، وامتدت أيديهم إلى بلاد الفرنج ، فأَرسلوا رسولاً إلى أتابك يشكونهم ، فعاد الرَّسول متنصّلاً ، فلقيه قومٌ من التّركمان فقتلوه ، فأغار الفرنج على حلب ، فأَخذوا من العَرب والتّركمان ما لا يُحصى .

وعاد أتابك في سنة ستّ وثلاثين على الحلبيّين بالقطيعة الّتي كان قرَّرها على الأَملاك، وأرسل إليهم عليّ الفُوتي العجمي، فعسف النَّاس في استخراج القطيعة ، وأخرق بهم ، ومات ابن شقارة بحلب ، وصارت أملاكهُ إلى بيت المال فردَّ على النَّاس ما كان وُظِّف على أملاكه من القطيعة وأخذه منهم .

وأغار الفرنج في سنة ست وثلاثين وخمسمائة على بلد سَرْمين ، وأخرَبوا

ونهبوا ، ثمَّ تحوَّلوا إلى جبل السُّمَّاق ، وكذلك فعلوا بكفرطاب ، وتفرّقوا فأغار علم الدّين بن سيف الدّين سوار مع التّركمان إلى باب أنطاكية ، وعادوا بالغنائم والوسيق العظيم .

وأغار لجة التركي وكان قد نزح عن دمشق إلى خدمة زنكي على بلد الفرنج ، في جمادى ، فساق وسبى وقتل ، وذكر أن عدّة المقتولين سبعمائة رجل .

واتّفق في هذه السَّنة خلفٌ شديدٌ بين أتابك زنكي وقرا أرسلان بن داود بن سكمان بناحية بهمرد[1] ، فالتقيا فكسره أتابك ، وفتح بهمرد ، وعاد إلى الجزيرة ، ثم إلى الموصل فشتّى بها .

وفي هذه السّنة تقرَّر الصُّلح بين أتابك والأُرتقيَّة ووصل أولادُهم إلى الخدمة ثمّ عادوا .

وفي خامس شعبان مات وزيرُ أتابك ضياء الدّين بن الكفرتوثي ووزّر موضعه أبا الرضا بْنَ صدقة ، ثمَّ عزله في سنة ثمان وثلاثين .

ونهض سوار في شهر رمضان إلى بلد أنطاكية ، وعند الجسر جمع عظيم وخيم مضروبة من الفرنج ، فخاض التّركمان إليهم العاصي ، وكسروا الجميع هناك ، وقتلوا كلَّ من كان بالخيم ، ونهبوا وسبوا ، وعادوا إلى حلب بالوسيق العظيم ، والأسرى والرؤوس .

---

١ ـ احدى قلاع ديار بكر . الأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ج ٢ ص ٨٢٠ .

وفتح أتابك قلعة آشب المشهورة بالحصانة[1] في ثالث وعشرين من شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين .

وخرج ملك أنطاكية إلى وادي بزاعا ، فخرج سوار فردّهم إلى بلد الشّمال واجتمع سوار وجوسلين بين العسكرين فاتّفق الصُّلح بينهما .

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، فتح أتابك قلعة انيرون[2] ، وبعدها قلعة حيزان[3] ، وممَّا كان أيضاً بيد الفرنج جملين ، والموزر[4] ، وتل مَوْزَن[5] ، وغيرهما .

وخرج عسكر حلب فظفروا بفرقةٍ كبيرةٍ من التّجار والأَجناد وغيرهم خرجت من أنطاكية تريد بلادَ الفرنج ، ومعها مال كثير ودوابّ ومتاع ، فأوقعوا بهم ، وقتلوا جميعَ الخيَّالة من الفرنج الخارجين لحمايتهم ، وأخذوا ما كان معهم ، وعادوا إلى حلب ، وذلك في جمادى الأولى من السّنة .

وفي يوم الأربعاء خامس وعشرين من ذي القعدة ، وقعتْ خيلُ تركمان نهضتْ من بلد حلب ، فأَوقعتْ بخيلٍ خارجةٍ من بَاسُوطا[6]

---

١ ـ هدم عماد الدين هذه القلعة وعمر مكانها واحدة جديدة حملت اسمه «العمادية» . معجم البلدان .

٢ ـ من قلاع ديار بكر .

٣ ـ بلدة من ديار بكر قرب أسعرد . معجم البلدان .

٤ ـ هما في اقليم نصيبين .

٥ ـ بلد بين ماردين والرها اسمها اليوم ويران شهر . اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٥ .

٦ ـ باسوطا الآن في منطقة عفرين محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٦٩ كم .

فقتلوهم ، وأسروا صاحب باسوطا وجاءوا به إلى حلب ، فسلّموه إلى سوار فقيّده .

وعزل أتابك وزيرَهُ جلالَ الدّين أبا الرّضا بالمَوْصل ، واستوزر أبا الغنائم حَبَشي بن مُحمّد الحلّي .

وكان أتابك زنكي لايزال يفكّر في فتح الرّها ، ونفسه في كل حين تُطالبه بذلك ، إلى أن عرف أنَّ جوسلين صاحبها قد خرج منها في معظم عسكره ، في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، لأمرٍ اقتضاه ، فسارع أتابك إلى النّزول عليها في عسكر عظيم ؛ وكاتب التّركمان بالوصول إليه ، فوصل خلقٌ عظيمٌ .

وأحاط المسلمون بها من كلّ الجهات ، وحالوا بينها وبين مَنْ يدخل إليها بميرةٍ أو غيرها ، ونصب عليها المجانيق ؛ وشرع الحلبيّون فنقبوا عدّة مواضع عرفوا أمرها إلى أن وصلوا تحت أساس أبراج السُّور ، فعلقوه بالأخشاب ، واستأذنوا أتابك في إطلاق النّار فيه ، فدخل إلى النّقب نفسه وشاهده ثم أذِنَ لهم ، فألقَوْا النّارَ فيه ، فوقع السُّور في الحال[1] .

وهجم المسلمون البلد ، وملكوه بالسَّيف يوم السَّبت سادس عشر جمادى الآخرة ، وشرعوا في النَّهب والقتل والأسر والسَّبي ، حتّى امتلأت أيديهم من الغنائم ، ثمَّ أمر أتابك برفع السَّيف عن أهلها ، ومنع السَّبي ،

١ ـ كان النقابون يفتحون ثغرة بأسفل السور تملأ أثناء العمل بالخشب ثم تحرق الأخشاب فينهار السور .

وردّه من أيدي المسلمين ، وأوصى بأهلها خيراً ، وشَرع في عمارة ما انهدم منها وترميمه .

وكان جمالُ الدّين أبو المعالي فضل الله بن ماهان رئيس حَرَّان هو الّذي يحثُّ أتابك في جميع الأوقات على أخذها ، ويسهّل عليه أمرها فوَجِدَ على عضَادة مِحْرابها مكتوب :

أَصْبَحْتُ صِفْراً مِنْ «بَني الأَصْفَرِ» أَخْتَالُ بالأَعْلَامِ والمِنْبَرِ
دَانٍ مِنَ المَعْرُوفِ حَالٍ بِهِ نَاءٍ عن الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ
مُطَهَّر الرَّحْبِ عَلَى أَنَّني لَوْلَا «جَمَالُ الدّين» لَمْ أُطْهَرِ

فبلغَ ذلك رئيسَ حران ، فقال : «امْحُوا جمال الدّين ، واكتبوا عمادَ الدّين» ، فبلغ ذلك زنكي ، فقال : «صَدَق الشَّاعِرُ لولاكَ ما طَمِعْنَا فيها» ، وأمر عُمَّالَه بتخفيف الوطأة عليهم في الخراج ، وأن يأخذوه على قَدْرِ مغلاَّتها[١] .

ثمّ رحل إلى سروج ففتحها ، وَهَرب الفرنج منها ، ثمَّ رحل فنزل على البيرة ، في هذه السنة فحاصرها في هذه السّنة .

وجاءه الخبر من الموصل أن نصير الدّين جقر نائبه بالموصل قُتل ، فخاف عليها ، وترك البيرة بعد أن قارب أخذها[٢] ، وسار حتّى دخل

١ ـ لمزيد من المعلومات انظر بغية الطلب ٣٨٥٠ ـ ٣٨٥١ . وانظر ما جاء عند المؤرخ السرياني المجهول .
٢ ـ لمزيد من التفاصيل انظر الباهر ص ٧٠ ـ ٧٢ .

الموصل ، وأخذ فرخانشاه ابن السّلطان الّذي قَتَل جقر ، وعزم على تَملُّك الموصل ، فقتله بدم جَقر ، وَولَّى الموصل مكانهُ الأمير زَين الدّين علي كوچك .

ثمّ شَرَع زنكي في الجمع والاحتشاد ، والاستكثار من عمل المجانيق ، وآلة الحرب ، في أوائل سنة أربعين وخمسائة ؛ ويُظهر للنَّاس أنَّ ذلك لقصد الجهاد ، وبعضُ النَّاس يقولُ : إنَّه لقَصْد دمشق ومُنازلتها ، وكان ببعلبكّ مجانيق فحُمِلَتْ إلى حمصَ ، في شعبان من هذه السَّنة .

وقيل : إنَّ عَزْمَهُ انثنى عن الجهاد في هذه السَّنة ، وأنَّ جماعةً من الأرمن بالرّها عاملوا عليها ، وأرادوا الإيقاعَ بمن كان فيها من المسلمين واطّلع على حالهم ؛ وتوجه أتابك من الموصل نحوها ، وقُوبل مَن عَزَمَ على الفساد بالقتل والصلب .

وسار ونزل على قلعة جعبر بالمرج الشَّرقي تحت القلعة ، يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجّة ، فأقام عليها إلى ليلة الأحد سادس شهر ربيع الآخر نصف اللَّيل من سنة إحدى وأربعين وخمسهائة ، فقتله يرنقش الخادم ؛ كان تهدّده في النّهار ، فخاف منه فقتله في اللَّيل في فراشه .

وقيل : إنَّه شرب ونام ، فانتبه فوجد يرنقش الخادم وجماعةً من غلمانه يشربون فضلَ شرابه ، فتوعَّدهم ، ونام فأجمعوا على قتله ، وجاء يرنقش إلى تحت القَلعة ، فنادى أهلَ القلعة : «شيلُوني فقد قتلتُ أتابك» . فقالوا له :

«اذْهبْ إلى لَعْنَةِ الله ، فقد قتلتَ المسلمين كُلَّهم بقتله»[1] .

وقد كان أتابك ضايَقَ القلعة ، فقلَّ الماءُ فيها جدّاً ، والرُّسل من صاحبها عليّ بنِ مالك تَتَرَدَّدُ بينه وبين أتابك ، فبذل عليُّ بنُ مالك له ثلاثين ألف دينار ليرحلَ عنها ، فأجابه إلى ذلك .

وَنَزل الرَّسُول ، وقَد جمع الذَّهَبَ حتّى قلع الحلقَ من آذان أخَواتِهِ ، وأحضر الرَّسُول ، وقال لبعض خواصّه : «امضِ بِفَرَسه وقرّبه إلى قِدْر اليَخْني فإنْ شَرِبَ منه فأعلمني» . ففعل ذلكِ ، فشربَ الفرسُ مَرَقة اليخني ، فعلم أنَّ الماء قد قَلَّ عندهم ، فغالط الرَّسُولَ ودافعه ، ولم يُجِبْهُ إلى مُلْتَمَسِهِ ، فأُسْقِطَ في يد عليّ بن مالك .

وكان في القلعة عنده بقرة وحش ، وقد أَجْهَدَهَا العَطَش ، فصعدتْ في دَرَجة المِئذنة حتّى عَلَت عليها ، ورفعت رأسها إلى السَّماء ، وصاحَتْ صيحةً عظيمةً ، فَأَرْسَل الله سحابةً ظَلَّلَتِ القلعةَ ، وأمطروا حتى رووا ، فتقدَّم حسّان البعلبكيّ صاحب مَنْبج إلى تحتِ القلعة ، ونادى عَليَّ بْنَ مالك ، وقال له : «يا أمير عليّ ، ايشْ بقي يخلّصك من أتَابك» فقال له » «يا عاقِل ، يُخَلّصُني الذي خلصك مِنْ حَبْس بلك» . يعني حين قُتل ، بلك على منبج وخلص حسّان ، فصدق فأله ـ وكان ما ذكرناه ـ.

وأخبرني والدي ـ رحمه الله ـ أنَّ حارس أتابك كان يحرسُه في اللَّيْلَة التي

---

١ ـ عزا وليم الصوري ص٧٤٢ مقتل زنكي إلى مؤامرة دبرها صاحب قلعة جعبر .

قُتِل فيها بهذَيْن البيتين :

يَا رَاقِد اللَّيْل مَسْرُوراً بأَوَّلِهِ ، إنَّ الحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحَارا !
لاَ تَأْمَنَنَّ بِلَيْلٍ طَابَ أَوَّلُهُ فَرُبَّ آخر لَيْلٍ أَجَّجَ النَّارا !

وكان أتابك جباراً عظيماً ذا هيبة وسطوة ، وقيل : إنَّ الشاووش[1] كان يصيح خارج باب العراق ، وهو نازل من القَلْعَة ، وكان إذا ركبَ مَشَى العسكرُ خَلْفَهُ كأَنَّهُم بَيْنَ حيطين مَخافة أن يدوسَ العَسْكَرُ شيئاً من الزَّرع ، ولا يجسر أحدٌ على هيبته أن يدوسَ عِرْقاً منه ، ولا يمشي فرسُه فيه ، ولا يجسر أحدٌ من أجناده أن يأخذ لفلَّاح علاقة تبن إلَّا بثمنها أو بخطٍ من الدّيوان إلى رئيس القرية ؛ وإن تَعدَّى أحدٌ صلبه .

وكان يقولُ : «ما يتّفق أن يكونَ أكثر من ظالمٍ واحد» ـ يعني نفسه ـ فعمرت البلادُ في أيَّامِهِ بعد خَرابها وأَمِنَتْ بعد خَوْفِها ، وكان لايُبْقي على مُفْسِدٍ ، وأوصى ولاتَه وعُمَّاله بأهل حَرَّان ، ونهى عن الكلف والسّخر والتثقيل على الرَّعية ، هذا ما حكاه أهل حَرَّان عنه .

وأما فلَّاحو حلب فَإنَّهم يَذْكُرون عنه ضدَّ ذلك[2] .

---

١ ـ يكتب أيضاً «الجاووش» وهو المنادي الذي يتولى استنفار العساكر لتخرج إلى القتال ، وقرأنا في النوادر السلطانية لابن شداد ص ٦٦ ، ١٠٨ «فركب السلطان وصاح الجاووش فركب العسكر» .

٢ ـ كانوا يذكرون «أنه كان عليهم منه جور وظلم في أيام ولايته ، وأكثر ما كان يذكر عنه من الظلم ما يلزم الناس به من جمع الرجالة للقتال والحصار» . بغية الطلب : ٢٨٥٢ .

وكانت الأَسعار في السَّنة الّتي تُوّفي فيها رخيةً جدّاً ، الحنطة ستّ مكايك بدينار ؛ والشَّعير أثنا عشر مكّوكاً بدينار ؛ والعَدس أربع مكايك بدينار ؛ والجلبان خمسة مكايك بدينار ؛ والقطن ستّون رطلاً بدينار ؛ والدّينار هو الّذي جعله أتابك دينارَ الغلّة ؛ وقدره خمسون قرطيساً برساً[1] وذلك لقلّة العالم .

وَلَمَّا قُتِلَ افترقت عَسَاكِرُهُ فأخذ عسكر حلب ولدَه نورَ الدّين أبا القاسِم محمودَ بن زنكي ، وطلبوا حلب فملّكوه إيّاها ، وأخذ نورُ الدّين خاتمَه من إصْبِعِهِ قبلَ مسيره إلى حلب ، وسار أجنادُ الْمُوصل بسَيْف الدّين غازي إلى الموصل وملكها .

وبقي أتابك وَحْدَه ، فخرج أهلُ الرَّافقة فَغَسَّلوه بقحف جَرَّةٍ ، ودفنوه على باب مَشْهَدِ عَليّ ـ عليه السَّلام ـ في جوار الشُّهَدَاءِ منَ الصَّحَابة ـ رضْوَانُ الله عليهم ـ وبَنى بُنوهُ عليه قبة ، فهي باقية إلى الآن[2] .

وَمَلَك المَلِكُ العَادِل نورُ الدّين أبو القَاسِم محمود بن زنكي بن أق سنقر حلب ، عند ذلك في شهر ربيع الآخر يوم الثّلاثاء عاشر الشهر ، سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .

ووَصَل إليه صلاحُ الدّين الياغيسياني يُدبّر أموره ويقُوم بِحِفظ دَوْلته

---

١ ـ من أنواع الدراهم النحاسية قد يوازي كل /١٣/ منها درهماً فضياً .

٢ ـ انظر بغية الطلب ص ٣٨٥٥ ـ ٣٨٥٧ . وزالت معالم القبة الآن ، وكانت قرب مايعرف الآن بباب بغداد ، ودللت بعض الحفريات الأثرية على مكان القبر .

فحينئذٍ راسلَ جوسلين الفرنجي أهلَ الرّها وعامّتهم من الأَرمن ، وحَمَلُهم على العصيان وتَسليم البلد ، فأجابوه إلى ذلك ، وواعدُوهم يوماً يصلُ إليهم فيه .

وسار إليها فملك البلد ، وامتنعت القلعة فقاتلها ، فبلغ الخبر إلى نور الدّين محمود بن زنكي ، وهو بحلب ، فسار إليها في عسكره ، فخرج جوسلين هَارباً إلى بلده .

ودخلها نُور الدّين فَنَهَبَها وسَبَى أهلَها ، وخَلَت منهم ، فَلَمْ يَبْقَ بها منهم إلاَّ القليل[1] .

وأرسل نور الدّين مِنْ سَبْيها جاريةً في جُملة ما أهداهُ إلى زَيْن الدّين علي كُوچك ، نائب أبيه بالموصل ، فلمّا رآها دخل إليها ، وخرج مِنْ عندها وقد اغتسل ، وقال لِمَنْ عِنده : «تَعْلَمُونَ ما جرى لي يَوْمَنا هذا ؟» قالوا : «لا» ، قال : «لمَّا فتحنا الرّها مع الشَّهيد وَقَعَ بيدي من النَّهب جاريةٌ رائقة أعجبني حسنُها ومال قلبي إليها ، فلم يكن بأسرع من أن أمر الشّهيد فَنُودي بردّ السَّبي المنهُوب ، وكان مَهيباً مَخوفاً ، فردَدتُها وقلبي متعلّقٌ بها ، فلمَّا كان الآن جاءتني هديّةُ نور الدّين وفيها عدّة جوارٍ منهُنَّ تِلك الجارية ، فَوَطِئْتُها خوفاً أن يقَعَ مثل تلك الدَّفعة» .

وَشَرَع نور الدّين ـ رحمه الله ـ في صَرْف هِمَّته إلى الجهاد ، فدخل في

١ ـ أوفى التفاصيل حول هذه الواقعة عند المؤرخ السرياني المجهول . الموسوعة الشامية ص ٢٠١٥ ـ ٢٠٢١ .

سَنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، إلى بلد الفرنج ؛ فَفَتح أرتاح بالسَّيف ، ونهبها وفتح حِصْنَ مابولة ، وبَسَرْفُوث ، وَكَفرلاثا وهَاب[1] .

وكان الفرنجُ بَعْد قتل والده قَدْ طمعوا وظَنُّوا أنَّهم يستردّون ما أخذه ، فلمَّا رأوا من نُور الدّين الجدَّ في أول أمره ، علموا بُعْد ما أمّلوه .

وخرج مَلِك الألمان ونَزَل على دمشق ، في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وسَار لنجدتها سيفُ الدّين غازي من الموصل ، ونور الدين محمود ، فوصلا إلى حمص .

وتوَّجه نور الدّين إلى بعلبكّ ، واجتمع بمُعين الدّين أنَر بها ، ورحل مَلِكُ الألمان عَنْ دِمَشْق ، وكان صحبتُه ولد الفنش ، وكان جده قد أخذ طرابلس من المسلمين ، فأخذ ولد الفنش هذا حصن العريمة من الفرنج ، وعزم على أخذ طرابلس من القمص ، فأرسل القمص إلى نور الدين إلى بعلبكّ يقول له في قصد حصن العريمة وأخذِهِ مِنْ وَلَد الفنش .

فسار نُور الدّين ومُعين الدّين أنَر معه ، وسيّرا إلى سَيْفِ الدّين غازي إلى حمص ، يستنجِدانِهِ فأمدَّهما بعسكرٍ كثيرٍ مع الدُّبيسي صاحب الجزيرة ، فنازلوا الحِصْن ، وحصروه وبه ولدُ الفنش .

فزحف المُسلمون إليه مراراً ، ونقب النقَّابون السُّور فطلب مَنْ به مِنَ الفرنج الأمانَ ، فملكه المسلمون ، وأَخذوا كلَّ مَنْ بهِ مِنْ فارس وراجل ،

---

١ ـ انظر الأعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ٢ ص ٤٢٥ .

وصبيّ ، وامرأةٍ ، وفيهم ابن الفنش ، وأخربوا الحصنَ ، وعادوا إلى حمص[١] .

ثم عاد سيف الدين غازي إلى الموصل .

وتجمّع الفرنج ليقصدُوا أعمالَ حلب ، فخرج إليهم نورُ الدّين بعسكره والتقَاهُم بيغرى[٢] ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم الفرنج ، وأسر منهم جماعَة وقُتل خلقٌ ، ولم ينجُ إلاَّ القليل .

وفي هذه الوقعة يقول الشّيخ أبو عبدالله القيسراني مِن قصيدة :

وَكَيْفَ لاَ نُثْني عَلَى عَيْشِنَاالـ ـمَحْمُودِ والسُّلْطَانُ «مَحْمُودُ !»
وَصَـارِمُ الاسْلاَمِ لاَ يَنْثَنِي إلاَّ وشِلْوُ الكُفْـر مَقْـدُودُ
مَكَـارِمٌ لَمْ تَـكُ مَـوْجُـودَةً إلاَّ وَ «نُورُ الدّينِ» مَوْجُودُ[٣]

وَشَرع نُور الدّين في تَجْديد المدارس والرّباطات بحلب ، وجَلَب أهلَ العِلم والفقهاءَ إليها ، فجدّد المدرسة المعروفة بالحَلاَويّين ، في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، واستدعى بُرهانَ الدّين أبا الحسن علي بن الحسن البَلْخي الحنَفي وَوَلاَّهُ تَدريسَها ، فَغَيَّر الأَذان بحلب ، وَمَنع المؤذّنين مِنْ قَوْلهم : «حَيَّ عَلَى خَيْر العمَل» وَجَلَسَ تحت المنارة ومعه الفقهاء ، وقال

١ ـ الحديث هنا عن حصار دمشق للمرة الثانية ، الآن من قبل ما يعرف بالحملة الثانية ، مع ما تلته من أحداث . انظر وليم الصوري ص ٧٧٩ ـ ٧٩١ .

٢ ـ من عمل حارم ناحية العمق ، ولعلها المعروفة الآن باسم يغله في محافظة ادلب ـ ناحية كفر تخاريم .

٣ ـ انظر القصيدة بأكملها في الروضتين لأبي شامة ج ١ ص ٥٥ ـ ٥٦ .

لهم : «مَنْ لم يؤذّن الأَذَان المشروعَ فألقوه من المنارة على رَأْسه» ، فأذَّنوا الأَذَان المشروع ، واستمرّ الأمرُ منْ ذلك اليوم .

وجَدَّدَ المدرسةَ العَصْرُونيّة على مذهب الشافعي ، وولاَّها شرف الدّين بْنَ أبي عَصْرُون[1] ، ومدرسةَ النفري ، وولاَّها القطبَ النّيسابُوري[2] ، ومسجد الغَضَائِري وَقَفَ عليه وقفاً ، وولاَّهُ الشيخَ شُعَيْب[3] ، وصار يُعْرَفُ به .

وبَقيَ بُرْهانُ الدّين البلخي بحلب مُدَرِساً بالحَلاَويَّة إلى أن أخرجه مجدُ الدّين بْن الدَّاية ، لوحشةٍ وقعت بينهما ، ووَلَيها علاءُ الدّين عبدُ الرحمن بن محمود الغزنوي وَمَات وَوَليها ابنه محمود ، ثُمَّ وليها الرّضي صَاحبُ المحيط ، ثُمَّ وليها علاءُ الدّين الكاساني[4] .

وتُوفّي سيفُ الدّين غازي بن زنكي بالموصل في سنة أربع وأربعين وَتَرك ولداً صغيراً ، فربَّاه عَمُّه نورُ الدّين ، وَعَطَفَ عليه .

واتّفق الوزيرُ جمال الدّين وزينُ الدين علي على أن مَلَّكوا قُطب الدّين مودود بن زنكي الموصلَ ، وكان نُور الدّين أكبرَ منه ، وكاتَبَهُ جماعةٌ من الأمراء وطلبُوه .

---

١ ـ انظر حولها الأثار الاسلامية ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨ .
٢ ـ انظر حوله الأعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ج ١ ص ٢٤٨ ـ ٢٥١ .
٣ ـ اسمه الآن جامع التوتة ، انظر حوله الآثار الاسلامية ص ٦٣ ـ ٦٤ .
٤ ـ تحدث ابن شداد عن هذه المدرسة وترجم للذين درسوا فيها . الأعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ١ ص ٢٦٤ ـ ٢٧١ .

وفيمَنْ كاتَبَهُ المقدَّمُ عبد الملك والد شمس الدّين محمد ، وكان بسنجار ، فكتب إليه يَستدعيه ليتسلَّم سِنجار .

فَسَارَ جريدةً في سَبْعين فارساً من أمراء دَوْلته فوصل سنجار مُجداً ، ونزل بظاهر البَلد ، وأرسل إلى المقدّم يُعلمه بوصوله ، فرآهُ الرَّسُول وقد سار إلى الموصل ، وترك ولدَهُ شمسَ الدّين محمّداً بالقلعة ، فسَيَّرمَنْ لَحق أباه في الطَّريق ، وأعلمه بوصول نور الدّين ، فعاد إلى سنجار ، وسلَّمها إليه ، وأرسل إلى قرا أرسلان صاحبِ الحِصن[1] يستدعيه لموجدة كانت بينهما ، فوصل إليه .

ولما سمع قطبُ الدّين والوزيرُ جمال الدّين ، وزينُ الدّين بالموصل ، جمعوا العَسَاكر ، وعزموا على قَصْد سِنجار وساروا إلى تَلّ أعفر[2] ، فأشار الوزير جمالُ الدّين بمداراته ، وقال : «إنّنا نحنُ قد عظَّمنا محلَّه عند السُّلطان ، وجعلنا محلّنا دونه ، وهو فيعظّمنا عند الفرنج ، ويُظْهِرُ أنَّهُ تبعٌ لنا ، ويقول : إنْ كُنتم كما نُحبّ وإلاَّ سلَّمتُ البِلادَ إلى صاحب الموصل ، وحينئذٍ يفعل بكم ويصنَع ، فإنْ هَزَمْناه طَمعَ فينا السُّلطان ويقولُ : إنّ الَّذي كانوا يعظِمونَهُ ، ويخوّفوننا به أضعفُ منهم ، وقد هزموه ، وإنْ هو

---

١ ـ حصن كيفا ، وهو قلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر . الأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ج ٢ ص ٧٨٤ .

٢ ـ ويقال له تل يعفر وتلعفر ، بلدة بالعراق غربي الموصل على طريق سنجار . الأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ج ٢ ص ١٧٧٣ .

هَزَمَنا طَمِعَ فيهِ الفرنج ، ويقولون : إنَّ الّذي كان يحتمي بهم أضعفُ منه ، وبالجملة فهو ابنُ أتابك الكبير» ؛ وأشار بالصُّلح .

وسار إلى نور الدين بنفسه ، فوفَّق بينهما على أن يسلّم سنجار إلى قطب الدّين ، ويتسلَّم الرّحبة ، ويستقلّ نورُ الدّين بالشَّام جميعه ، وقطب الدين بالجزيرة ما خلا الرّها ، فإنّها لنور الدين[1] .

وعاد نُور الدّين إلى الشَّام ، وأخذ ما كان قَد ادَّخره أبوه أتابك مِن الخزائن ، وكانت كثيرةً جدّاً .

فغزا نورُ الدّين محمود بن زنكي بلدَ الفرنج من ناحية أنطاكية ، وقصَد حصن حارم وهو للفرنج ، فحَصَره ، وخرب ربضه ، ونَهَب سوادَه ، ثُمَّ رحل إلى حِصن إنِّب[2] فحَصَره أيضاً .

فاجتمعَ الفرنجُ مع البرنس صاحب أنطاكية وحارم ، وتلك الأَعمال ، وساروا إلى نُور الدّين ليرحّلوه عن إنِّب ، فلقيهم يومَ الأَربعاء حادي وعشرين من صفر ، سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، واقتتلوا قتالاً عظيماً ، وباشَر نُور الدين القتالَ ذلك اليوم ، فانهزمَ الفرنجُ أقبحَ هزيمةٍ ، وقُتل منهم جمعٌ كثير ، وأُسِر مثله .

---

١ ـ انظر الروضتين ج ١ ص ٦٧ ـ ٦٨ .

٢ ـ قال ياقوت : «إنب حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب له ذكر» ، وفي أيامنا هذه إنب قرية تتبع ناحية محمبل ـ منطقة أريحا ، محافظة ادلب ، ويبعد عنها بقرابة كيلومتر واحد تل انب الأثري ، ويشرف هذا التل على كل من وادي الغاب وسهل الروج . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .

وكان مِمَّن قُتل ذلك اليوم البرنس صاحب أنطاكية ، وكان مِنْ عظماء الفرنج وأقويائهم . ويُحْكى عنه أنَّه كان يأخذُ الركاب الحديد بيده ، فَيُطْبِقُهُ بيدِهِ الواحدة ؛ وأنّه مرّ يوماً وهو راكبُ حِصاناً قويّاً تحت قنطرةٍ فيها حلقَةٌ أو شيء ممَّا يتعلّق به ، فتعلّق بيديهِ وضَمَّ فخذيه عَلَى الحصان فَمَنَعهُ الحركَةَ .

فلما قُتل البرنسُ مَلَكَ ابنُه بيمند ، وتَزَوَّجتْ أمّه بابرنس آخر ، ليدبّر البلدَ إلى أن يكبر[1] ابنها ، وأقام معها بأنطاكية ، فَغَزاهم نُور الدّين غزوةً ثانية ، فاجتمعوا ولقوه فَهَزَمهم ، وقَتَل منهم خلقاً وأسر كذلك ، وأسر البرنس الثَّاني زوج أم بيمند ، واستقلّ بيمند بأنطاكية .

وفي ذلك يقولُ الشَّيخُ أبو عَبدالله القَيْسَرانيّ مِنْ قَصِيدَةٍ أوَّلها :

هٰذِي العَزَائِمُ لاَ مَا تَدَّعي القُضُبُ ... وَذِي المَكَارِمُ لاَ مَا قَالَتِ الكُتُبُ
صَافَحْتَ يَا « بنَ عِمَادِ الدّينِ» ذروتها ... بـراحـةٍ للمَسَاعي دَونَها تَعَبُ
أَغْرَتْ سُيوفُك بالأفرنج راجفةً ... فُؤَادُ رومية الكُبْرَى لها يَجِبُ
ضَـرَبْتَ كبشَهُمُ مِنْها بِقَـاصِمَةٍ ... أودى بها الصُّلْبُ وانْحطَّت بها الصُّلُبُ
طَهَّرْتَ أَرْضَ الأَعادي مِنْ دِمائِهِمُ ... طَهَارةً كلُّ سَيْفٍ عِنْدَها جُنُبُ[2]

وقال ابنُ مُنير في ذلك :

صَدَم الصَّليبَ على صَلاَبة عُودِهِ ... فَتَفَـرَّقَتْ أَيدي سَبَـا خَشَبَـاتُـه
وَسَقى البرنْسَ وَقَدْ تَبَرْنَس ذِلَّةً ... بالرّوجِ ممّا قَدْ جنَت غَدَرَاتُه

١ ـ انظر وليم الصوري ص ٧٨٩ ـ ٧٩٣ ، ٨٠٤ ، ٨١٤ .
٢ ـ انظر القصيدة كاملة في الروضتين ج ١ ص ٥٨ ـ ٥٩ .

تَمْشي القَنَاةُ بِرَأْسِهِ وَهُوَ الَّذي نَـظَمَتْ مَدَارَ النَيـرِّيَنْ قَنَاتُـه[١]

وَسارَ نُور الدِّين محمود إلى أفامية ، في سنة خمس وأربعين ، فالتجأ الفرنجُ إلى حصنها فقاتله ، واجتمع الفرنج وساروا إليه ليرحّلوه عنه ، فوجدوه قَدْ مَلَكه وملأه من الرّجال والذَّخائر ، فَسَار في طلبهم ، فعدلوا عَن طريقه ، ودخلوا بلادهم .

وَجَمَع نُور الدِّين العساكرَ وَسَار إلى بلادِ جُوسلين الفرنجي ليملكها وكَان جُوسلين من أشْجَع الفرنج وَأَسدّهم رأياً ، فجمع الفرنجَ وأكثر ، وسار إلى نُور الدِّين والتقيا ، فانهزم المُسلمون وقُتل منهم وأسر .

وكان سِلاَحدار نُور الدّين مِمَّنْ أُسر ، فأخذ جوسلين سلاحه ، فسيَّره إلى الملك مَسْعُود بن قِلج أرسلان صاحب قونية ، وقال : «هٰذا سلاحُ زَوْج ابنتِك» . . فعظم ذلك على نُور الدّين ، وهَجَر الرّاحةَ إلى أن يأخذ بثأره ، وجعل يفكّر في حيلةٍ يحتالُ بها على جوسلين ، وعلم أنّه إن قصدَهُ احتمى في حُصونه .

فأحضر أمراء التّركمان ، وبذل لهم الرَّغائب إنْ ظَفِروا بجوسلين ، فجعلوا عليه العيونَ ، فخرج إلى الصَّيْد فظفر به طائفةٌ من التّركمان ، فصانَعَهم على مال يُؤَدّيه إليهم ، فأجابوه إلى إطلاقه إذا أحضر المالَ ، وأرسلَ في إحضاره .

---

١ ـ انظر القصيدة بأكملها في الروضتين ج ١ ص ٦٠ ـ ٦٢ .

فمضى بعضُ التّركمان إلى مجدِ الدّين أبي بكر بنِ الدَّاية ، وكان ابنَ دايةِ نُور الدّين ، واستنابَهُ في حلب ، وسلَّم أمورها إليهِ ، فأحسَنَ الولايةَ فيها والتَّدبيرَ ، فأعلَم ذلك التّركماني ابنَ الداية بصورةِ الحال ، فَسيَّر مجدُ الدّين معه عسكراً ، فكبسوا أولئك التُّركمان ، وأخذوا جوسلين أسيراً ، وأحضروه إلى ابن الدَّاية ، في محرم هذه السّنة[١] .

فسار نُور الدّين عند ذلك إلى قلاع جوسلين ، ففتح عزاز بعد الحِصار ، في ثامن عشر شهر ربيعِ الأوّل ، سنة خمس وأربعين وخمسمائة ، وفَتَح تلّ باشر ، وتلّ خالد ؛ وفَتَح عَيْن تاب سنة خمسين[٢] ؛ وفتح قورس[٣] والرَّاوندان[٤] وبرج الرصاص[٥] ، وحصن البيرة وكفرسود[٦] ومرعش[٧] ونهر الجوز .

وتجمَّع الفرنج وساروا إليه وهو ببلاد جوسلين ليمنعوه عن فتحها ، في سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، فلمَّا قربُوا منه رَجع إليهم ، ولَقيهم عند دلوك ، فاقتتلوا فانهزم الفرنج ، وقتل منهم وأسر كثير ، وعاد إلى دلوك ففتحها[٨] .

١ ـ انظر وليم الصوري ص٧٩٣ ـ ٧٩٤ .
٢ ـ انظر حولها بغية الطلب ص ٣٢٣ .
٣ ـ انظر حولها الأعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ٢ ص ٤٣٨ ـ ٤٤١ .
٤ ـ انظر حولها بغية الطلب ص ٣٢٤ .
٥ ـ انظر الأعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ٢ ص ٩٨ ـ ٩٩ .
٦ ـ ويعرف أيضاً باسم كفرسوت ، قرب بهسنا . معجم البلدان .
٧ ـ من أجل مرعش انظر بغية الطلب ص ٢٣٥ ـ ٢٣٨ .
٨ ـ من أجل دلوك انظر الأعلاق الخطيرة ـ قسم حلب . ج ٢ ص ٤٣٥ ـ ٤٣٧ .

وأمّا تلّ باشر فإنّه تسلّمها منهم بعد فتحه دمشق ، لأنهم لما علموا أنّه فتح دمشق ، وأنّه يقصدهم وَلاَ طاقة لهم به راسلوه ، وبذلوا له تسلميها إليه ، فَسَيَّر إليهم الأميرَ حسَّان صاحب منبج لقربها من منبج فتسلَّمها منهم ، وحصَّنها .

وكان فتحه دمشق في صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، لأنّ الفرنج أخذوا عسقلان من المصريين في سنة ثمان وأربعين ، ولم يكن له طريق إلى إزعاجهم عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان[1] .

وطمع الفرنج في دمشق ، وجعلوا عليها قطيعةً يأخذونها منهم في كلّ سنة ، فخاف نُور الدّين أن يملكها الفرنج ، فاحتالَ في أخذها لعلمه أنَّ أخذها بالقهر يصعب لأنّه متى نازلها راسلَ صاحبها الفرنج مستنجداً بهم ، وأعانوه خوفاً من نور الدين أن يملكها فيقوى بها عليهم .

فراسل مجير الدين أبق بن محمد بن بوري صاحبها ، واستماله وهاداه ، وأظهر له المودَّة حتى وثق به ، فكان يقول له في بعض الأوقات : «إنّ فلاناً قدْ كاتَبني في تسليم دمشق» ـ يعني بعض أمراء مجير الدّين ـ فكان يبعد ذلك عنه ، ويأخذ أقطاعه ، فلما لم يبقَ عندهُ أحد من الأمراء قدّم أميراً يقال له عَطاء بن حفاظ الخَادم ، وكان شجاعاً وفوض إليه أمورَ دولته ، فكان نُور الدّين لا يتمكَّن من أخذ دمشق منه ، فقبض عليه مجيرُ الدّين وقتله .

١ ـ انظر وليم الصوري ص ٨٠٨ ـ ٨١٤ .

فسارَ نُور الدّين حينئذٍ إلى دمشق ، وكان قد كاتَبَ أهلَها واستمالهم ، وكان النّاس يميلون إليه ، لما هو عليه من العَدْل والديّانة والاحسان ، فوعدوه بالتّسْليم إليه .

فلمّا حَصرَ دمشقَ أرسل مُجير الدّين إلى الفرنج يبذُل لهم الأموالَ وتسليم قلعة بعلبكّ إليهم ، لينجدوه ويرحلوا نورَ الدّين عنه ، فشرعوا في جَمع فارسهم وراجلهم لذلك .

فتسلّم نورُ الدّين دمشقَ ، وخرج الفرنج وقد قُضي الأمر فعادوا خائبين ، وسلّمها إليه أهلُها من باب شرقي ، والتجأ مجير الدّين إلى القلعة ، فراسله وبَذَلَ له عوضاً عنها حمص ، وغيرها ؛ فسلّمها إليه وَسَار إلى حمص ، ثم إنّه راسلَ أهلَ دمشقَ ، فعلم نُور الدّين ، فخاف منه ، فأ خذ منه حمصَ ، وعوّضه ببالسَ ، فلم يَرْضَ بذلك ، وسار إلى بغداد فمات بها .

وسار نورُ الدّين إلى حارم ، وهي لبيمند صاحب أنطاكية ، وحصرها في سنة إحدى وخمسين ، وضَيَّق على أهلها ، فتجَّمع الفرنج وعَزَموا على قصْدِهِ فأرسل والي حارم إلى الفرنج ، وقال : «لا تلتقوه فَإنّه إنْ هَزَمكم أخذَ حارمَ وغيرها ، ونحنُ في قُوَّةٍ والرأيُ مطاولته» ، فأرسلوا إلى نُور الدّين ، وصالحوه على أن يُعْطوه نصف أعمال حارم ، ورجع نور الدّين إلى حلب .

ووقعتِ الزّلازل في شهر رجب في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، بالشّام ، فخربت حماة ، وشيزر ، وكفرطاب ، وأفامية ، ومعرّة النعمان ،

وحمص، وحصن الشميميس[1]، عند سلمية، وغير ذلك من بلاد الفرنج. وتَهَدَّمتْ أسوارُ هذه البلاد فجمع نُورُ الدّين العساكرَ، وخاف على البلاد من الفرنج، وشرع في عمارتها حتّى أَمِنَ عَلَيْها.

وأمَّا شيزر، فانقلبت القلعة على صاحبها وأهله، فهلكوا كلُّهم، وكان قد ختن ولداً له وعمل وليمةً، وأحضر أهلَه في داره، وكان له فرسٌ يحبُّه ولا يكاد يفارقه، وإذا كان في مجلسٍ أقيم ذلك الفرس على بابه، فكان ذلك اليوم على الباب، فجاءت الزَّلزلةُ فقام النَّاس ليخرجوا من الدَّار فخرج واحد من الباب فرمحه ذلك الفرس فقتله، فامتنع النَّاسُ من الخروج، فسقطتِ الدَّارُ عليهم فهلكوا.

وبادرَ نُورُ الدّين، ووصل إلى شيزر، وقد هَلَك تاجُ الدَّولة بنُ مُنْقِذ وأولادُه، ولم يَسْلَمْ مِنْهُمْ إلاَّ الخاتون أُخت شمس الملوك زوجة تاج الدَّوْلة، ونُبِشَتْ من تحت الرَّدْم سالمةً، فتسلَّم القلعةَ وعمَّر أسْوارَها ودورَها، وكان نُور الدّين قَدْ سأل أُختَ شمس الملوك عن المال وهدَّدها، فذَكرتْ له أنَّ الدار سقطتْ عليها وعليهم، ونُبِشَتْ وهي دُونهم، وَلا تَعْلَمُ بشيءٍ، وإنْ كان لهم شَيءٌ فهو تحت الرَّدم.

وكانَ شرفُ الدَّولة اسماعيل غائباً، فلمَّا حضر وعاين قلعةَ شيزر، ورأى زوجةَ أخيه في ذلك الذُّلّ بعد العزّ، عَمِلَ قصيدةً أوَّلها:

لَيْسَ الصَّبَاحُ مِنَ المَسَاءِ بِأَمْثَلِ فَأَقول لِلَّيْلِ الطَّويلِ أَلا آنْجلي

١ - بقايا هذا الحصن على مقربة من سلمية على الطريق الواصله بمدينة حماه.

قَالَ فيها :

يَا «تَاجَ دَوْلَة هَاشِم» بَلْ يا أَبا آلتّـ ـيجانِ بَلْ يا قَصْدَ كُلِّ مُؤَمَّلِ
لَوْ عَايَنَتْ عَيْنَاكَ «قَلْعَةَ شَيْزَرٍ» والسِّتْرُ دُونَ نِسائها لم يُسْبَلِ
لَرَأَيْتَ حِصْناً هَائِلَ المَرْأى غَدَا مُتَهَلْهِلاً مِثْلَ النَّقا المُتَهَيِّلِ
لاَ يَهْتَدي فِيهِ السُّعاةُ لَمسْلَكٍ فكأنَّما تَسْري بِقَاعٍ مُهْوِلِ

ذَكَر فيها زَوْجَةَ أخيهِ ، فقال :

نَزَلَتْ عَلَى رَغْمِ الزَّمَان وَلَوْ حَوَتْ يُمْنَاكَ قَائِم سَيْفِهَا لَمْ تَنْزِلِ
فَتَبَدَّلَتْ عَنْ كبرِها بِتَواضُعٍ وَتَعَوَّضَتْ عن عِزِّها بتَذَلُّلِ[1]

وَأَقامَت الزَّلازِل تَتَرَدَّدُ في البلاد سبع سنين ، وهلك فيها خلقٌ كثير .

وفي هذه السَّنة أبطلَ الملكُ العادِلُ نُور الدّين ، وهو بشيزر ، مظالمَ ومكوساً بِبلاده كلّها مقدارها مائة وخمسون ألف دينار .

ثم إنَّ نور الدّين تلطَّف الحال مع ضحَّاك البِقاعيّ ، وراسله ، وهو ببعلبكّ ، وكان قَد عَصَى فيها بعد فتح دمشق ، ولم يرَ أن يحصره بها لِقُرْبه من الفرنج ، فسلَّمها إلى نُور الدّين في هذه السَّنة[2] .

وجَرَتْ وقعةٌ بين نور الدّين وبين الفرنج بين طبريّة وبانياس ،

---

١ ـ انظر بغية الطلب ص ١٦٤٠ ـ ١٦٤٢ .
٢ ـ انظر تاريخ ابن القلانسي ص ٥٠٩ .

فكسرهم نُور الدّين كسرةً عظيمةً في جُمادى الأُولى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة[1] .

ثمَّ عاد نُور الدّين إلى حلب ، فمرض بها في سنة أربع وخمسين مرضاً شديداً ، بقلعتها ، وأشفى على الموت ، وكان بحلب أخوه الأصغر نصرة الدّين أمير أميران محمَّد بن زنكي ؛ وأُرْجِفَ بِمَوْتِ نُور الدّين ؛ فجمع أمير أميران النَّاسَ ، واستمالَ الحلبيّين ، ومَلكَ المدينةَ دُونَ القَلْعَة ، وأَذِنَ للشِّيعة أنْ يَزيدوا في الأَذان : «حَيّ عَلَى خيْرِ العَمَلِ مُحَمَّدٌ وَعَليٌّ خَيْرُ البَشَر» ، عَلَى عَادَتِهم مِنْ قَبْلُ ، فمالوا إليه لذلكَ .

وثارتْ فتنة بين السّنة والشّيعة ، ونَهَبَ الشِّيعةُ مَدْرَسَة ابنِ عَصْرُون وغيرها من أدر السّنة ، وكان أسد الدّين شُيركوه بحمص ، فبلغه ذلك فسار إلى دمشق ليغلب عليها ، وكان بها أخوه نَجْمُ الدّين أيُّوب فأنكر عليه ذلك ، وقال : «أهلَكْتَنا والمصلحةُ أن تعود إلى حلبَ ، فانْ كان نُور الدّين حيّاً خدمتَه في هذا الوقت ، وإنْ كانَ ماتَ فأنا في دمشق ، وتفعل ما تريد» .

فعاد مُجداً إلى حلب ، فوجد نُور الدّين وقد ترجّح إلى الصَّلاح ، فأجلسه في طَيَّارةٍ مُشرِفَةٍ إلى المدينة ، بحيثُ يراه النَّاسُ كلهم ، وهو مصفرّ الوجه من المرض ، ونادَوْا إلى الناس : «هذا سُلْطَانكم» . فقال بعضُهم :

---

١ ـ انظر وليم الصوري ص ٨٩٠ ـ ٨٩٢ .

«ما هذا نُور الدّين ، بل هو فلان» ـ يعنون رجلاً كان يشبهه وقد طلى وجهه بصفرة ، ليخدعوا الناس بذلك .

ولما تحقّق أمير أميران عافيةَ أخيه خَرَج من الدَّار الّتي كان بها تَحْتَ القلعة ، وبيده تُرْسٌ يحميه من النّشّاب ، وكان النَّاس قد تَفرَّقوا عنه ، فسار إلى حَرَّان ، فملكها .

وسَيّر نُور الدّين إلى قاضي حلب ، جدّي أبي الفَضل هِبَة ِالله بن أبي جَرادة ، وكان يلي بها القَضَاء والخطابةَ والإمامَة ، وقَالَ لَهُ : «تَمضي إلى الجامع ، وتُصَلي بالنّاس ، ويعاد الأَذَانُ إلى ما كان عليه» .

فَنَزَلَ جَدّي ، وجَلَس بشمالية الجَامِع تحتَ المنارة ، واسْتَدْعَى المُؤَذّنين ، وأَمَرَهم بالأذان المشروُع على رأي أبي حنيفة ، فخافوا فقال لهم : «هَا أنا أسفَل منكم ولي أسوةٌ بكم» .

فصَعد المؤذّنون وشرعوا في الأذان ، فاجتمع تَحت المنارة مِنْ عَوَامّ الشّيعة وغوغائهم خلقٌ كثير ؛ فقام القاضي إليهم ، وقال : «يا أصحابَنا ، وفّقكم الله ، مَنْ كان على طهارةٍ فليدخل وليصلِّ ، ومَنْ كان مُحدثاً فليجدّد وضوءَهُ ويُصلي ، فان المولى نُور الدّين ـ بِحَمْدِ الله ـ في عافية ، وَقَدْ تَقَدَّم بما يفعل ، فانصَرفوا راشدين» . فانصرفوا وقالوا : «ايش نقول لقاضينا» ! ونزل المؤذّنون وصَلَى بالنَّاس ، وسَكنتِ الفِتَنُ .

فلما عُوفي نُور الدّين قَصَدَ حرَّان ، فَهَرب نصرة الدّين أمير أميران ،

وترك أولادَه بالقعلة بحرَّان فتسلّمها ، وأخرجهم منها ، وسلَّمها إلى زين الدين على كوچك ، نائب أخيه ، قطب الدّين .

ثمّ سار إلى الرقَّة وبها أولادُ أميرك الجاندار ، وقد ماتَ أبوهم ، فشفع إليه بعضُ الأمراء في إبقائها عليهم ، فَغَضِب ، قَال : «هَلاّ شَفِعْتم في أولاد أخي لَمَّا أُخذت مِنهم حَرَّان ، وكانتِ الشَّفاعَةُ فيهم مِنْ أَحبِ الأَشياء إليّ» ؛ وأخذها منهم .

وخرج مجدُ الدّين بْنُ الدَّاية مِن حلب إلى الغَزاة ، في شهر رجب من سنة خمس وخمسين ، فلقي جوسلين بن جوسلين ، فكسره ، وأخذه أسيراً ، ودخل به إلى قلعة حلب .

ثمّ إنَّ الفرنج أغاروا على بلد عَيّن تاب ، فأخذوا التّركمان ، ونهبوا أغنامهم ، وعادوا يُريدون أنطاكية ، فخرج إليهم مجدُ الدّين ، ولقيهم بالجُومة[1] ، وكسرهم ، وقَتَل منهم خلقاً عظيماً ، وأَسر البرنسَ الثَّانيَ وخلقاً معه ، ودخل بهم إلى حلب في مستهل ذي الحجة من سنة ست وخمسين وخمسمائة .

وفي سنة سبع ، ولى نُورُ الدّين كمالَ الدّين أبا الفضل محمَّد بن الشَّهرزوري قضاء ممالكه كلِّها ؛ وأمر القضاةَ ببلادِه أَنْ يكتُبوا في الكُتب بالنّيابة عنه ، وكان قَد حَلَف له على ذلك وعاهده عليه ، وكان ذلك بدمشق

---

١ ـ الجومة : من نواحي حلب . معجم البلدان .

في السَّنة المذكورة ، فامتنع زكيّ الدّين قاضي دمشق ، فَعُزِلَ ؛ وكُتب إلى جدّي أبي الفضل بحلب ، فامتنع أيضاً .

وَوَصل نُور الدّين ومعه مجد الدّين بن الدَّاية ، واستدعاه نُور الدّين إلى القلعة ، وقال : «كُنَّا قَدْ عَاهَدنَا كمالَ الدّين ، وحلفنا له على هذا الأمر ، وما أنت إلَّا نائبي ، وله اسم قضاء البلاد لا غير» فامتنَع وقال : «لا أَنُوبُ عن مَكَانَين» . فولَّى قضاء حلب مُحيي الدّين أبا حامد بن كمال الدّين ، وأبا المفاخر عبد الغفور بن لُقمان الكردي ؛ وذلك بإشارة مجد الدّين لِوحشةٍ كانت بينهُ وبَيْنَ جدّي .

ثُمَّ إنَّ نُور الدّين جَمَعَ العَسَاكِرَ بحلب ، في سنة سبع ، وسار إلى حارم ، وقاتلها ، فجمع الفرنجُ جموعَهم ، وساروا إليه . فطلب منهم المَصَاف فلم يجيبوه ، وتلطَّفوا معه حتَّى عاد إلى حلب .

ثمَّ جمع العساكر في سنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائة ، ودخل إلى بلاد الفرنج ، ونزل في البقيعة تحت حصن الأكراد محاصراً له ، وعازماً على أن يقصد طرابلس .

فاجتمع الفرنج ، وخَرَج معهم الدّوقس الرّومي ، وكان قد خرج في جمعٍ كثيرٍ من الرُّوم ، واتَّفق رأيُهم على كبسة المسلمين نهاراً ، فإنَّهم يكونون آمنين ، فركبوا لوقتهم ولم يتوقفوا ، وساروا مجدين إلى أن قربوا من يزك[1]

١ ـ اليزك : الحرس المتقدم أو الطلائع .

المسلمين ، فلم يكن لهم بهم طاقة ، وأرسلوا إلى نور الدّين يعرّفونه الحال ، فرهقهم الفرنج بالحملة عليهم فلم يثبت المسلمون وعادوا منهزمين إلى نور الدّين والفرنجُ في ظُهورهم ، فوصلوا جميعاً إلى عسكر نور الدّين ، حتّى خالطهم الفرنجُ ، فقتلوا ، وأسَروا ، قتلاً عظيماً وأسراً كبيراً .

وكان الدّوقس أشدَّهم على المسُلمين ، فلم يُبق أصحابُه على أحدٍ وقصدوا خيمةَ نُور الدّين ، وقد ركب فيها فرسه ، فنجا بنفسه ؛ ولسرعته ركبَ الفرسَ والشّبْحةُ في رجله ، فنزل انسانٌ كرديٌّ ، وفداه بنفسهِ ، فقطع الشّبحة ، ونجا نُورُ الدّين ، وقُتِلَ الكُرديُّ ، فأحسنَ إلى مخلفيه ، ووَقَفَ عليهم الوقوف[1] .

وَوَصل نُور الدّين إلى بُحَيْرة قَدس[2] ، وبينه وبين المعركة نحو أربعة فراسخ ؛ وتلاحق به مَنْ سَلِم من العسكر ، فقال له بعضُهم : «المصلحةُ أنْ نَسير ، فانَّ الفرنج ربَّما طمعوا وجاؤوا إلينا ، ونحنُ على هذِهِ الحال» ؛ فوبَّخَهُ وأسكتَهُ ، وقال : «إذا كان مَعي ألف فارس التقَيْتُهُم ، وَوَالله لاَ أستظِلُّ بسقفٍ حتى آخذَ بثأري وثأر الاسلام» .

وأرسل إلى حلب ودمشق ، وأحْضَرَ الأَموالَ والثّيابَ والخيامَ والسّلاحَ والخيلَ ، فأعطى الناسَ عوضاً عَمّا أخذ منهم بقولهم ، وأصبح عسكرهُ كأن لم يُهْزَمْ ولم يُنْكَب ، وكلّ مَنْ قُتل أَعْطَى أولادَه أقطاعه .

---

١ ـ انظر وليم الصوري ص ٨٨٧ ـ ٨٨٨ .
٢ ـ بحيرة قدس هي بحيرة قطينة حاليا قرب حمص .

ولمَّا رَأى أصحابُ نُور الدّين كثرةَ خَرجه قال له بعضُ صَحابة السُّوء : «إنَّ لك في بلادِكَ إدراراتٍ وصلَاتٍ ووقوفاً كثيرة على الفُقهاء ، والفقراء ، والقرّاء ، والصوفيَّة وغيرهم ؛ فلو استعنتَ بها في هذا الوقتِ لكانَ أصلح» ، فَغَضبَ من ذلك وقَال : «والله إنَّني لا أَرجُو النَّصر إلاَّ بدُعاء أُولئكَ ، فإنَّما تُرزقُون وتُنصَرُون بِضُعَفَائِكم ، كيف أَقْطَعُ صلات قومٍ يُقاتلون عَنِّي وأنا نائمٌ على فراشِي بسهامٍ لا تُخطىء ، وهؤلاء القوم لهم نَصيبٌ في بيت المال ، كيف يحلّ لي أن أعطيه غيرهم !» .

وقيل : إنَّ بُرهان الدّين البَلخي قال لِنُور الدّين : «أتُريدُون أن تنصرا وفي عَسكركم الخمور والطُّبول والزّمورُ ، كلاَّ وَالله» . فلمَّا سمع نُور الدّين كلاَمه عاهد الله على التَّوبَة ، ونَزَع عَنْهُ ثيابَه تلك التي كان يلبسُها ، والتزم بلبس الخَشن ؛ وبطل جميع ما كان بَقي في بلاده من الأَعشار والمُكوس والضَّرائب ؛ ومنع من ارتكابِ الفَوَاحِش ، وكتب إلى البلادِ إلى زُهَّادها وعُبَّادها يذكرُ لَهُمْ ما نال المُسلمين مِنَ القَتْل والأَسر ، ويستمدّ منهم الدُّعَاء ، وان يَحُثُّوا المُسلمين على الغَزَاة ؛ وكاتَبَ المُلوك الإسلامية يطلُب منهم النجد والاستعدادَ ، وامتنعَ من النَّوم على الوَطيء وعن جَميع الشَّهَوات .

وراسله الفرنجُ في طلب الصُّلح فامتنع ، فبينا هو في الاستعداد للجهاد إذ وَرَدَ عليه في شهر ربيع الأوَّل، من سنة تسع وخمسين وخمسمائة، شاور وزير العَاضِد بمصر إلى دمشق ، ملتجئاً إليه ، ومستجيراً به على ضرغام ، وكان قد نازعه في الوزارة وغلب عليها .

وطلب منه إرسال العسكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه ، ويكون لنُور الدّين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر ، ويكون نائبه مقيماً بعساكره في مصر ، ويتصرَّفُ بأمر نُور الدّين واختياره ، فبقي متردّداً بين أن يفعلَ ذلك وبين أن يجعلَ جلَّ قصده إلى الفرنج ، ثُمَّ قويَ عزمُهُ وَسيَّر أسَد الدّين شيركوه بن شادي ، في عسكر معه ، في جُمادى الأولى من سنة تسع وخمسين ، وتقدَّم إلى أسد الدّين أن يُعيد شاور إلى مَنصبه .

وسار نُور الدّين إلى طرف بلاد الفرنج ممَّا يلي دمشق ، بما بقي من العساكر ليمنَع الفرنج من التَّعَرُّض لأسد الدّين وشاور في طريقهما ، فاشتغل الفرنجُ بحفظ بلادهم من نُور الدّين عن التَّعرُّض لهما ، وَوَصل أسدُ الدّين وشاور إلى بلبيس ، فخرج إليهم ناصر الدّين أَخُو ضِرغام بعسكر المصريّين ، ولقيهم فانهزمَ وعاد إلى القاهرة .

وَوَصل أسدُ الدّين إلى القاهرة ، فنزل عليها في آخر جُمادى الآخرة ، فخرج ضرغام فقتل ، وقُتل أخوه ، وخلع على شاور وأُعيد إلى الوزارة .

وأقام أسدُ الدّين بظاهر القاهرة ، فَغَدر شاور ، وعاد عَمَّا كان قرَّره مع نُور الدّين ، وأمر أسد الدّين بالعَود إلى الشَّام فامتنع ، وطلب ما كان استقرَّ فلم يُجبه إليه ، فأرسل أسَدُ الدّين نُوَّابَه فتسلَّموا بلبيس ، وحكم على البلاد الشرقية .

فأرسل شاور إلى الفرنج ، واستنجدَ بهم ، وخَوَّفَهم من نُور الدّين إن مَلَك مصرَ ، فسارعُوا إلى تلبِيَته ، وطَمِعُوا في مُلك الديار المصريَّة ، وساروا

إلى بلبيس ، وسار نُور الدّين إلى طرف بلادهم ليمنعهم عن المسير ، فلم يلتفتوا ، وتركوا في بلادهم مَنْ يحفظها .

وَسَار مَلِكُ القُدس في الباقين إلى بلبيس ، واستعان بِجَمْع كثير كانُوا خرجوا إلى زيارة القُدس ؛ وأقام أسدُ الدّين ببلبيس ، وحصَره الفرنجُ ، والعسكر المصريّ ثلاثةَ أشهرٍ وهو يغاديهم القتال ويراوحهم ، فلم يظفروا منه بطائل ، مع أنَّ سور بلبيس قصيرٌ ، وهو مِنْ طِين[1] .

فعندَ ذلك خَرَج نُور الدّين لِقَصدِ بلاد الفرنج ، ونَزَل إلى حلب وجمع العساكر وأرَسل إلى أخيه قطب الدّين صاحب الموصل ، وإلى فخر الدّين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وإلى نجم الدّين ألبي صاحب ماردين وَغَيْرِهم مِن أَصحاب الأَطراف واستنجدَ بهم .

فسارَ قطبُ الدّين ومقدَّمُ عسكره زينُ الدّين علي كوجك ، وسَيَّر صاحب ماردين عسكره ؛ وأما صاحبُ الحصن فقال له خواصّة ونُدماؤُه : «على أي شيءٍ عَزَمتَ» ؟ فقال : «على القعود ، فإنَّ نورَ الدّين قد تَحَشَّفَ مِنْ كثرة الصَّوم والصَّلاة ، فهو يُلقي نفسَه وَمَن مَعه في المهالك» .

فلمّا جاء الغدُ أمر العسكر أن يتجهَّر للغزاة فسألوه عمّا صَدَفَهُ عَنْ رَأْيه ، فقال : «إنَّ نُور الدّين إنْ لم أُنْجِدهُ خرجت بلادي عَنْ يدي ، فانه قد كاتب زهادها والمنقطعين عن الدّنيا يستمدُّ منهم الدّعاء ، ويطلبُ منهم أن

---

١ ـ انظر وليم الصوري ص ٨٩٤ ـ ٩٢٢ .

يحثُّوا المسلمين على الغَزَاة ، وقَد قَعَد كلُّ وَاحدٍ منهم ومعه أتباعُه وأصحابُه ، وهم يَقْرَؤُون كُتُبَ نور الدّين ، ويبكون ، فأخافُ أن يجتمعوا على لَعنتي والدعاء عليَّ» . ثم تجهَّز وسار بنفسِهِ .

ولمَّا اجتمعت العَساكِرُ خَرَجَ نُور الدّين إلى حارم ، وحصَرها ، ونصب المجانيقَ عليها ، وزحف إليها ، فخرج البرنس بيمند ، والقمص صاحب طرابلس ، وابن جوسلين والدوك مقدّم كبير من الروم . وابن لاون ملكُ الأَرمن ، وَجَمعوا جميعَ مَنْ بقي من الفرنج بالسَّاحل ، وقَصَدوا نورَ الدّين .

فرحل إلى أرتاح ليتمكَّن منهم إنْ طلبوه (ويبتعدوا) عن البلاَد إنْ لقوه؛ وسَيَّر أثقاله إلى تيزين[1]، فساروا فنزلوا على الصفيف[2]، ثم عادو إلى حارم ، فتبعهم نُور الدّين على تعبئةِ الحرب ، فلمَّا تَقَاربوا اصطَفُّوا للقتال فحملَ الفرنجُ على ميمنة المسلمين ، وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن ، فانهزم المسلمون حتّى وصلوا إلى جدارهم ؛ ونورُ الدّين واقفٌ بازائهم على تلّ هُناك يتضرَّعُ إلى الله ، وهو مكشوفُ الرَّأس .

وبَقيَ راجلُ الفرنج فوق عِمّ ، ممَّا يلي حارم بالصّفيف ، فَعَطَفَ عَلَيْهم زينُ الدّين عليّ كوچك في عسكر المَوْصل ، وكان نورُ الدين قد جعله كميناً في طرف العَمْق ، وآجام القصب ، فَقَتَلَهم عن آخرهم .

١ - تيزين من نواحي حلب ، كانت تعد من أعمال قنسرين . معجم البلدان .
٢ - في الروضتين نقلا عن العماد والأصفهاني «نزلوا على عم» الروضتين ج ١ ص ١٣٣ ، هذا ويوجد الآن في منطقة حارم قرية اسمها صفصافة .

ورجعتِ الخَيَّالة من الفرنج خوفاً على الرَّاجل أن يتبعوا المسلمين ، فيقع المسلمون عليهم ، فوجدوا الأمرَ على ما قَدَّرُوه ، فرأوا الرَّجالة منهم قَتلى وأسرى ، واتّبعهم نور الدين مَع من انهزم من المسلمين ، فأحاطوا بهم من جميع الجهات ، فاشتدَّ الحرب ، وكثر القتلُ في الفرنج ، فوقعت عليهم الغلبة .

وعَدَل المسلمون إلى الأسر ، فأسَروا صاحبَ أنطاكية ، وصاحبَ طرابلس ، والدّوكَ مقدَّم الروم ، وابنَ جوسلين ، ولم يسلم إلاَّ مليح بن لاون ، قيل إنَّ الياروقيَّة أفرجوا له حتى هرب ، لأَنَّهُ كان خالَهُم ، وكانَ عدّة القَتْلى تَزيدُ على عَشْرَة آلاف .

وسار إلى حارم فملكها في شهر رمضان من السنة ، وبث سراياه في أعمال أنطاكية ، فنهبوها وأسروا أهلها ، وباع البرنس بمال عظيم وأسرى من المسلمين[1] .

ثمَّ سار في هذه السَّنة إلى دمشق ، بعد أن أَذِن لعسكر الموصل وديار بكر بالعَوْد إلى بلادهم ، ثمَّ خرج إلى بانياس ، فحصَرها وقاتلها ، وكانَ مَعَهُ أخوه نصرة الدّين أمير أميران ـ وكان قد رضي عنه وسامحه ـ وهو على حارم ، بعد أن دخلَ إلى الفرنج ، فأصابه سهم أَذْهَبَ إِحْدى عَيْنَيْهِ ، فقال له : «لو كُشِفَ لَكَ عن الأَجْر الّذي أُعِدَّ لَكَ لتمنَّيْت ذَهَابَ الأُخْرى» ، وَجَدَّ في حصارها وفَتْحِها ، وملأ القلعة بالذَّخائر والرّجال ، وَشَاطر الفرنج

١ ـ انظر وقارن الروضتين ج ١ ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .

في أعمالِ طَبرية ، وقرَّروا له على ما سوى ذلك مالاً في كل سنة .

ووصل خَبَرُ فتح حارم وبانياس إلى الفرنج النَّازلين على بلبيس ، فأرادوا العَوْد إلى بلادهم ، فراسلوا أسدَ الدّين في الصُّلح رجاءَ أن يَلْحَقُوا بانياس ، فاتَّفق الحالُ على أن يَعُود إلى الشَّام ، ويسلّم ما بيده من أعمال مصر إلى أهلها ، ولم يَكنْ عنده علمٌ بمَا جَرَى لِنُور الدّين بالشَّام ، وكانَت الذَّخائر قد قَلَّت عِنْدَه ببلبيس .

وخَرَج من الدّيار المصرية إلى الشَّام ، وجاء الفرنج ليدركوا بانياس ، فوجدوا الأمرَ قَدْ فَاتَ ، وكَشَفَ أسدُ الدّين الديار المصرية ، واستصغر أمرَ مَنْ بها .

ودخلتْ سَنة إحدى وستّين وخمسمائة ، فَسَار نُور الدّين إلى المُنَيْطِرة[1] جريدةً في قلة العسكر ، على غَفْلَة من الفرنج ، وَحَصر حصنها ، وأخذه عنوةً ، وقَتَل مَنْ به ، وسَبَى وغَنم غنيمةً كثيرةً ، وأيس الفرنجُ من استرجاعه بعد أن تجمَّعوا له وتفرّقوا .

وتحدَّث أسدُ الدّين مع نُور الدّين ، في عوده إلى الدّيار المصريَّة ، فلمَّا رأى جدَّه سيَّره إليها في ألفي فارسٍ من خِيار العسكر ، في سنة اثنتين وستّين وخمسمائة .

فسار على البَرّ ، وتَرَك بلادَ الفرنج عِلى يمينه ، فوصَل الديار المصريَّة

١ ـ حصن بالشام قرب طرابلس . معجم البلدان .

وعَبر النّيل إلى الجانبِ الغَرْبي عند أطفيح[١] ، وحكم على البلاد الغربيّة ، ونزل بالجيزة مقابل مصر ، فأقام نيّفاً وخمسين يوماً .

فأرسل شاور واستنجد بالفرنج ، فسار أسدُ الدّين إلى الصَّعيد ، وبَلَغَ إلى مَوْضعٍ يعرف بالبَابَين[٢] ؛ وسارت العساكرُ المصريّة والفرنجيّة خلفه ، فوصلوا إليه وهو على تعبئة وقد جعل أثقاله في القلب ليتكثّر بها ؛ وَجَعل ابنَ أخيه صلاح الدين في القلب ، وأَوْصاهُم مَتَى حملوا عليه أن يندفع بين أيديهم قليلاً ، فإذا عادُوا فارجعُوا في أعقابهم .

واختار من يثق بشجاعته ، ووقف بهم في الميمنة ، فحمل الفرنجُ على القلب ، فاندفع بين أيديهم غير مفرقين ، فحمل أسدُ الدّين بمن معه عَلى مَنْ بَقي منهم ، فهزمهم ووضع السَّيف فيهم ، وأكثر القتلَ والأَسرَ ، وعاد الذين حَملُوا على القلب فوجدوا أصحابهم قد مَضوا قتلاً وأسراً فانهزموا .

وسار أسدُ الدّين إلى الاسكندريّة ، ففتحها باتّفاق من أهلها ، واستنابَ بها صلاحَ الدين ، وعاد إلى الصَّعيد ، وجبى أمواله .

وتجمَّع الفرنج والمصريّون ، وحَصَروا صلاح الدّين بالاسكندريّة ، فصبروا على الحصار إلى أن عاد أسدُ الدّين ، فوقعَ الصُّلح على أن بَذَلوا لأسد الـدين خمسين ألف دينار ، سوى ما أخذ من البلاد ، وأن الفرنج

١ ـ بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر ، على شاطىء النيل في شرقيه . معجم البلدان .
٢ ـ على عشرة أميال من المنية . وليم الصوري ص ٩١١ ـ ٩١٣ مع وصف المعركة بتفاصيل مفيدة جداً .

لا يُقيمون في البلاد ، فاصطلحوا على ذلك ، وعاد إلى الشّام ، وتسلّم المصريّون الاسكندرية[١] .

وأمّا نُور الدّين فإنَّه جَمَع العساكرَ في هذه السَّنة ، ودخل مِن حِمص إلى بلاد الفرنج ، فنازَل عَرْقَة ، ونهب بلدها ، وخَرَّب بلادَهم ، وفَتَح صَافيتا والعَريمة ، وعاد إلى حمص ، وخرج إلى بانياس ، وخرج إلى هونين[٢] ، فانهزم الفرنج عنه وأحرقوه ، فوصل إليه نُور الدين من الغَد ، فخرب سوره وعاد .

وكان حسَّان صاحب منبج قد مات ، وأقطع نُور الدّين منبج ولدَه غازي بن حسَّان ، فعصى عليه في هذه السَّنة ، فَسَيَّر إليه عسكراً ، وأخذوها منه فأقطعها أخاه قطب الدّين ينال بن حسّان ، وهو الّذي ابتنى المدرسةَ الحنفيَّة بمنبج .

وفي سنة ثلاثٍ وستّين وخمسمائة ، نزَل شهابُ الدّين مالك بن عليّ بن مالك صاحب قلعة جعبر ليتصيّد ، فأخـذه بنُو كلاب أسيراً وحملوه إلى نُور الدّين في رجب ، فاعتقله وأحسنَ إليه ، وَرَغَّبه في الأقطاع فلم يُجِبْهُ ، فَعَدل إلى الشدّة والعُنف .

ثمَّ سَيَّر إليها عسكراً فلم يقدر على فتحها ، فعدل إلى اللّين مع صاحبها ، إلى أن اتّفق الحالُ على أن عَوَّضَهُ عنها بسروج وبزاعا والملوحة[٣] ،

١ - انظر وليم الصوري ص٩١٣ - ٩٢٢ .
٢ - هونين حصن بجبل عاملة في جنوب لبنان الحالي . انظر معجم البلدان .
٣ - الملوحة قرية كبيرة من قرى حلب .

وسلَّم إليه القلعَة في سنة أربع وستّين ، وقيل لمالك : «أيّما أحبُّ إليكَ سروج أو القلعة ؟» فقال : «هذه أكثر مالاً ، وأمَّا العزُّ ففارقناهُ بالقلعة» .

وفي هذه السَّنة أطلقَ نور الدّين في بلادهِ بعضَ ما كان قد بقي من المظالمِ والمؤن .

ثمَّ إنَّ الفرنج طمعوا في الدّيار المصريّة فصعدوا إليها في سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة ، وأخذوا بلبيس ، وساروا إلى القاهرة فقاتلوها ؛ وسَيّر العاضِدُ يستغيثُ إلى نُور الدّين ، وسيّر شُعُورَ نِسائه في الكتب ، فوصله الرَّسُول وهو بحلب ، وبذل له ثُلْثَ بلاد مصر ، وأن يكون أسدُ الدّين مقيماً عندهم .

وكتبوا إلى أسد الدّين بمثل ذلك ، فوصل إلى نور الدين إلى حلب من حمص وقد عزم على الايفاد إليه ، فأمره بالتجهّز إلى مصر ، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثّياب والسّلاح والدّواب ، وحكمه في العسكر والخزائن فاختار ألفَي فارس ، وأخذ المال وجمع ستَّة آلاف فارس ، وسار هو ونور الدّين إلى دمشق ، فوصلها سلخ صفر ، ورحل إلى رأس الماء[1] .

وأضاف إلى أسد الدّين جماعةً من الأمراء منهم : عزّ الدّين جورديك ، وغرس الدّين قلج ، وشرف الدّين برغش ، وعَيْن الدَّولة بن يارُوق ، وقطب الدّين ينال بن حسّان ، وصلاح الدّين ابن أخيه .

---

١ ـ نبع السريا في حوران الذي تشرب منه بلدة الشيخ مسكين .

وسارَ أسدُ الدّين ، فلمّا قاربَ مصر رحل عنها الفرنج إلى بلادهم ، ووصل أسدُ الدّين إلى القاهرة سابع جمادى الآخرة ، ودخل إليها واجتمع بالعاضد ، وخلع عليه وعاد إلى خيامه ، وفي نفس شاور منه ما فيها ، ولا يتجاسر على إظهاره .

وكان شاور يخرج في الأحيان إلى أسد الدّين يجتمع به ، فخرج في بعض الأيّام على عَادَتِه فلمْ يجده في الخيام ، وكان قد مَضَى لزيارة قَبْر الشّافعي ـ رضيَ الله عنه ـ فلقيَه صَلاحُ الدّين ، وجورديك ، في جَمْعٍ من العسكر وخدموه ، وأعلمُوه أنَّ أسد الدّين قد مضى للزيّارة فقال : «نمضي إليه» فساروا جميعاً ، فساوره صلاحُ الدّين وجورديك ، وألقياه إلى الأرض ، فهرب عنه أصحابُه وأُخِذَ أسيراً .

وأرسلوا إلى أسد الدّين فحضر في الحال ، وجاءه التّوقيع في الحال بالوزارة على يد خادمٍ خاصٍ ، ويقول : «لا بُدَّ من رأسه» ، جرياً على عادتهم في وزرائهم أنّ الذي يقوى على الآخر يقتلُه ، فقُتل وأُنفذ رأسهُ إلى العاضِد[1] .

وأنفذ إلى أسد الدّين خلعه الوزارة ، فسار ودخل القصرَ ، وتَرتّب وزيراً في سابع عشر شهر ربيع الآخر ، ودام آمراً ناهياً إلى أن عرض له خوانيق ، فمات في الثّاني والعشرين من جُمادى الآخرة[2] .

---

١ ـ انظر لمزيد من التفاصيل وليم الصوري ص ٩٢٨ ـ ٩٣٦ .

٢ ـ توفي نتيجة نهمه وتخليطه بالطعام انظر ما ذكره ابن الأزرق الفارقي ص ٥٣١٩ من الموسوعة الشامية .

وفوّض الأمر بعده إلى ابن أخيه ، وكان جماعة من الأمراء الذين كانُوا مع أسد الدّين قد تَطاولوا إلى الوزارة ، منهم : عَيْنُ الدَّولة بن ياروق ، وسيف الدّين المشطوب ، وشهابُ الدّين محمود الحَارميّ ـ خال السُّلطان صلاح الدّين ـ وقطبُ الدّين يَنَال بن حسّان .

فأرسلَ العَاضِدُ إلى صلاح الدّين ، وأحضره عنده ، وولاّه الوزارة بعد عمّه ، وخلع عليه ، ولقَّبه بالملك النَّاصر ، فاستَتَبَّتْ أحوالُه ، وبَذل المال ، وتاب عَنْ شُرب الخمر ، وأخذ في الجدّ والتشمير في أموره كلّها ، وكان الفقيهُ عيسى الهكّاري معه ، فميَّل الأمراء الذين كانوا قد طمعوا بالوزارة إلى الانقياد إليه ، فأجابوا سِوى عين الدَّولة بن يارُوق ، فإنَّه امتنَع ، وعاد إلى نُور الدّين إلى الشَّام .

فاستمرَّ الملكُ الناصر بالدّيار المصريّة وزيراً ، وهو نائبٌ عن نُور الدّين ، وكان إذا كتب إليه كتاباً يكتب : «الأمير الاسفهسلار ، وكافّة الأُمراء بالدّيار المصريّة يَفْعَلُون كذا» . وتكتب العلامة على رأس الكتاب ، ولا يذكر اسمه .

وسَيَّر الملك النَّاصِرَ ، وطلب أباه نجم الدّين وأهله ، فَسَيَّرهم نُورُ الدّين إليه مع عسكر ، واجتمع معهم من التُّجّار خلقٌ عظيمٌ ، وذلك في سنة خمسٍ وستّين .

وخاف نُور الدّين عليهم منَ الفرنج ، فسار في عساكره إلى الكرك فحصره ونصب عليه المجانيق ، فتجمّع الفرنج ، وساروا إليه وتقدّمهم ابن

الهنفَري ، وابن الرقيق[1] ، فرحل نُور الدِّين نحوهما قبل أن تلحقهما بقيّة عساكر الفرنج فرجعا خوفاً منه واجتمعا ببقيّة الفرنج .

وسلك نُور الدِّين وسط بلادهم ، فنهب وأحرق ما في طريقه إلى أن وصل إلى بلاد الاسلام ، فنزل على عَشترا[2] على عزم الغزاة ، فأتاه خبرُ الزَّلازل الحادثة بالشَّام ، فإنَّها خربَت حلب خراباً شنيعاً ، وخرج أهلُها إلى ظاهرها .

وتواتَرتِ الزَّلازل بها أيّاماً متعدّدة ، وكانت في ثاني عشر شوَّال من السَّنة يوم الاثنين طلوع الشمس ، وَهَلك من النَّاس ما يزيدُ على خمسة آلاف نفر ذكر وانثى ، وكان قد احترق جامعُ حلب وما يجاورُه من الأسواق قبل ذلك في سنة أربع وستّين وخمسمائة ، فاهتمَّ نورُ الدّين في عمارته وإعادته والأسواق التي تليه إلى ما كانت عليه ، وقيل : إنَّ الاسماعيليّة أحرقوه .

وبلغه أيضاً وفاةُ مجد الدّين ابن دايته ، أخيه من الرضاعة بحلب ، في شهر رمضان سنة خمس وستّين وخمسمائة ، فتوجّه نور الدّين إلى حلب ، فوجد أسوارها وأسواقها قد تَهَدَّمت .

ونزل على ظاهر حلب حتى أحكم عمارة جميع أسوارها ، وبنى الفَصيل الدائر على البلد ، وهو سورٌ ثان .

---

١ ـ في الروضتين ج ١ ص ١٨٣ : «وساروا اليه وان ابن الهنفري وفيليب بن الرقيق وهما فارسا الفرنج في وقتهما في المقدمة إليه» .

٢ ـ على مقربة من بلدة نوى في حوران سورية .

ورمّم نوّابُه ما خرب من الحُصُون والقلاع مثل بعلبك ، وحمص وحماة ، وبارين ، وغيرها .

وخرجَ نورُ الدّين إلى تلّ باشر ، فوصله الخبر بوفاة أخيه قطب الدّين بالموصل في ذي الحجّة ، وكان أوصى بالمُلْك لابنه الأكبر عماد الدّين زنكي ، وكان طوع عمّه نور الدّين لكثرة مقامه عنده ، ولأنّه زوجُ ابنته .

ثمّ إنّ فخر الدّين عبد المسيح وخاتون ابنة تمرتاش بن إيلغازي زوجة قطب الدّين ، وهي والدة سيف الدّين غازي بن قطب الدّين اتفقا على صَرف قطب الدّين عن وصيّته لابنه عماد الدّين إلى سيف الدّين غازي .

فَرحَل عمادُ الدّين إلى عمّه نور الدّين مستنصراً به ليعينه على أخذ المُلك له ؛ فسار نُور الدّين في سنة ستّ وستّين وخمسمائة ، وعبر الفُرات عند قلعة جَعْبر في مستهلّ المحرَّم ، وقصد الرّقّة فحصرها وأخذها ، ثم سار في الخابور ، فملكه جميعه ، وملك نصيبين ، وأقام بها يجمع العساكر ، وكانت أكثر عساكره في الشّام في مقابلة الفرنج .

فلمّا اجتمعت العساكرُ سار إلى سنجار فحصرها ، ونصب عليها المجانيق ، وفتحها فسلَّمها إلى عماد الدّين زنكي ابن أخيه ، وجاءته كتُب الأمراء بالمَوصل يبذلون له الطّاعة ، ويحثّونه على الوصول إليهم ، فسار إلى الموصل .

وكان سيفُ الدّين غازي وعبد المسيح قد سَيَّرا عزّ الدّين مسعود بن قطب الدّين إلى أتابك شمس الدّين إيلدكز صاحب أذربيجان وأصبهان ،

يستنجدانه على نُور الدّين ، فأرسل إيلدكز إليه رسولاً يَنهاه عن التعرُّض للمَوْصل فَقَال نور الدين: «قُلْ لصَاحِبك أنا أصلح لأَوْلَاد أخي منك، فلا تَدْخُلْ بيننا ، وعند الفراغ من إصلاح بلادهم يكونُ لي معكَ الحديث على باب هَمَذان ، فانك قد ملكتَ هذه المملكةَ العظيمةَ ، وأهملتَ الثُّغور حتَّى غلب الكرج عليها ؛ وقد بُليتُ أنا ولي مثل رُبع بلادك بالفرنج ، فأخذْتُ مُعْظَمَ بلادهم ، وأسرتُ ملوكهم» .

وأقام على الموصل فعزم مَنْ بها مِنَ الأمراء على مُجاهرة عبد المسيح بالعصيان ، وتسليم البلد إلى نُور الدّين ، فعلم بذلك ، فأرسل إلى نور الدين في تسليم البلد على أن يقرَه بيد سيف الدّين ؛ وطلب الأمان لِنفسه وعلى أن يمضي صُحبته إلى الشَّام ، ويقطعه ما يرضيه فتسلَّم البلد ، وأبقى فيه سيفَ الدّين غازي .

وعاد إلى حلب فدخلها في شعبان من هذه السَّنة .

وكتب إلى الملك النَّاصر صلاح الدّين يأمرُهُ بقطع الخُطبة العاضِديّة وإقامة الخطبة المُستَضيئيّة العَبَّاسيَّة ، فامتنع واعتذر بالخوف من قيام أهل الدّيار المصرية عليه ، وكان يُؤثر أن لا يقطع الخُطبة للمصريّين في ذلك الوقت ، خوفاً من نُور الدّين أن يدخل إلى الدّيار المصريّة فيأخذها منه ، وإذا كان العَاضِدُ معه امتنعَ وأهل مصر معه ، فلم يَقبل عذرَهُ نُور الدّين ، وألحَّ عليه .

وكانَ العاضِدُ مريضاً فخطب للمستضيء في الديار المصريّة ، وتُوفيِّ

العَاضِدُ ، ولم يعلم بِقَطْع الخُطبة ، وقيل : إنَّه علم قبل موته ؛ وكان ذلك في سنة سبع وستّين وخمسمائة .

وفي هذه السَّنة تَتَبَّع نُور الدّين رسوم المظالم والمؤن في جميع البلاد الّتي بيده ، فأزالها وعفى رسومها ومحا آثار المنكرات والفواحش ، بعدما كان أطلق مِنْ ذلك في تواريخ متقدّمة ، وكان مبلغ ما أطلقه أوّلاً وثانياً خمسمائة ألف وستّة وثمانين ألفاً وأربعمائة وستّين ديناراً .

وكان رَأى وزيرهُ مُوَفّق الدّين خالد بن القَيْسَراني في المَنَام كأنَّهُ يُغَسل ثياب نُور الدين ، فَفَسَّر ذلك عليه ، ففكّر في ذلك ولم يردَّ عليه جواباً ، فخجل وزيرهُ وبَقي أيَّاماً واستدعاه ، وقال : «تعال يا خالد ، اغسل ثيابي» ؛ وأمَرهُ فكتب توقيعاً بازالة ما ذكرناه .

وسارَ المَلِكُ النَّاصِر من مصر غازياً ، فنازل حصن الشّوبك وحصره ، فطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيّام، فلمَّا سمع نُور الدّين بذلك سار عن دمشق، فدخل بلاد الفرنج من الجهة الأُخرى ، فقيل للملك الناصر : «إنْ دَخَل نُور الدين مِنْ جانب وأنتَ مِنْ هذا الجانب مَلَكَ بلادَ الفرنج ، فلا يبقى لك مَعَهُ بديار مصر مقام ، وإنْ جاءَ وأنتَ ههُنا فلابُدَّ لك من الاجتماع به ، ويبقى هو المتحكِم فيك بما شاء ؛ والمصلحةُ الرّجوع إلى مصر» .

فرحل عن الشَّوبك إلى مصر ، وكتب إلى نُور الدّين يعتذرُ باختلال أمور الدّيار المصريّة وأنَّ شيعتها عزموا على الوثوب بها ، فلم يَقْبَل نُور الدّين

عذرَهُ ، وتَغَيَّر عليه وعزم على الدّخول إلى الديار المصريّة[١] .

فسمع الملكُ النّاصر ، فجمع أباه نجم الدّين وخاله شهابَ الدّين ، وتقيّ الدّين عمر، وغيرهم من الأمراء، وأعلمهم ما بَلَغَهُ مِنْ حركةِ نورالدّين واستشارهم ، فلم يجبه أحدٌ ، فقام تقيُّ الدّين ، وقال : «إذا جاءنا قَاتَلْنَاهُ» ووافَقَهُ غيره من أهله ، فشتّمهم نجمُ الدّين أيُّوب والدُ المَلِكِ النّاصِرِ ، وأقعد تقيَّ الدّين ، وقال للملكِ النَّاصر : «أنا أبُوك ، وهذا شِهابُ الدّين خالُك ، ونحنُ أكثر محبَّةً لك مِنْ جميع مَنْ تَرى ؛ وَوَالله لو رَأَيْتُ أنا وَهذا خالك نورَ الدّين لم يمكننا إلَّا أن نُقَبِّل الأرضَ بَيْنَ يديه ، ولو أَمَرَنا أَنْ نَضْرِب عُنقك بالسَّيف لفعلنا ، فإذا كُنَّا نحنُ هكذا ، فما ظنُّك بغيرنا ، وكلّ مَنْ نراه عندك ، فهو كذلك ، وهذه البِلادُ لِنُور الدّين ، ونحن مماليكه ونُوَّابُه فيها ، فانْ أَراد عَزْلَكَ سَمِعنَا وأَطَعْنا ، والرَّأيُ أَنْ تَكتبَ كتاباً مع نَجَّابٍ وتَقول لَه : بَلَغَني أَنَّك تريدُ الحَركة لأَجلِ البلاد ، ولا حاجة إلى ذلك بَل يُرْسِلُ المَوْلى نَجَّاباً يضع في رَقَبتي مِنديلاً ، ويأخذُني إليك» . وَتَفَرَّقوا .

فَلَمَّا خَلا نجمُ الدّين أيُّوب بالمَلِكِ النَّاصِر ، قالَ لَهُ : «كَيْفَ فَعَلت مِثْلَ هذا ؟ أَمَا تَعْلَم أَنَّ نُور الدّين إذا سَمِعَ عَزْمَنَا على مَنْعِهِ ومُحاربتهِ جَعَلْنا أَهَمَّ الوجوه إِليهِ ، وحينئذٍ لا نَقْوى بهِ ، وأَمَّا إذا بلَغَهُ طاعتُنا له تَرَكنا واشتغلَ بغيرنا ؛ والأَقْدَار بِيدِ الله ، وَوَالله لَوْ أَراد نُور الدّين قَصَبَةً مِنْ قَصَب السُّكَّرِ

١ ـ انظر وليم الصوري ص ٩٤٨ ـ ٩٥٣ .

لقاتلْتُه عليها حتّى أمنعه أو أقتل» . ففعل ما أشار به عليه والده ، فترك نُور الدّين قصده ، واشتغل بغيره .

وخَرَج نُور الدّين بالعساكر ، ففتح حصن عَرقة ، وصافيتا ، وعريمة[١] ، ونهب وخرَّب بلاد الفرنج ثم هادنهم .

ثمَّ إن الفرنج ساروا إلى بلد حوران في سنة ثمان وستّين للغارة ، فسار نُور الدّين إليهم ، فنزل عَشْتَرا ، وسَيَّر عسكره إلى أعمال طبريَّة ، فغنموا غنائمَ عظيمة ، وعادوا .

وكانَ نُور الدّين قد اسْتَخْدَم مليح بن لاون ، ملك الأَرْمن ، وأَقْطَعَهُ أقطاعاً من بلاد الإسلام ، وحضر معه حُروباً متعدّدة فأنجدَهُ في هذه السّنة بطائفةٍ مِنْ عَسْكَرِهِ ، فدخل مليح إلى أذنَه وطرسوس والمّصيصة ، وفتحها من يَد مَلِك الرُّوم ، وأرسل إلى نُور الدّين كثيراً من غَنائمهم وثلاثين أسيراً من أعيانهم[٢] .

وقَصَد قلج أرسلان ذَا النُّون بن الدَّانشمند صاحب ملطية وسيواس[٣] ، وأخذ بلادَه ، وأخرجه عنها طريداً ، فاستجار بنور الدين ، ووصل إليه فأكرمه ، وسَيَّر إلى قلج أرسلان يشفع إليه في إعادة بلاده إليه ،

---

١ ـ قلعة قريبة من منطقة صافيتا .
٢ ـ انظر وليم الصوري ص ٩٦٢ ـ ٩٦٣ .
٣ ـ هي الآن مركز ولاية في تركية وتبعد عن أنقره مسافة ٢٢٥ كم .

فلم يفعل فسار نُور الدّين إليه في هذه السَّنة فابتدأ بكيسوم[١] ، وبهسنى[٢] ، ومَرْعَش ، ومرزبان[٣] ، وما يليها ، وكان ملكه مرعش ، في أوائل ذي القَعدة ، والباقي بعدها .

وسَيَّر طائفةً مِنْ عَسكرِهِ إلى سيواس ، فملكها ؛ وراسله قلج أرسلان في الصُّلح ، وأتاه من أخبار الفرنج ما أزعجه فصالحه ، وأعطى سيواس ذا النّون ، وجعل معه قِطعةً مِنْ عسكره ، وَشَرط على قلج أرسلان إنجادَهُ بعساكره إلى الغزاة .

واتَّفق نُور الدّين وصلاح الدّين على أن يصل كلُّ واحدٍ منهما من جهته ، وتواعدا على يوم معلوم على أن يتّفقا على قتال الفرنج ، وأيهما سبق أقام للآخر منتظراً ، إلى أن يقدم عليه ، فَسَبق صلاحُ الدّين ووصل إلى الكرك وحصره .

وسارَ نور الدين فوصل الرَّقيم[٤] - وبينه وبين الكرك مِرْحَلَتان - فَخَاف صلاحُ الدّين، واتَّفق رأيه ورأيُ أهله على العَوْد إلى مصر لَعِلْمِهِم بأنّهما متى اجتمعا كان نُور الدّين قادراً على أخذ مصر منه .

فعاد إلى مصر ، وأرسلَ الفقيهَ عيسى إلى نُور الـدّين يعتذر عن رَحيله

١ - انظر حولها الأعلاق الخطيرة - قسم حلب - ج ٢ ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .
٢ - انظر حولها بغية الطلب ص ٣٢٦ .
٣ - انظر حولها بغية الطلب ص ٣٢٥ .
٤ - قال ياقوت في معجمه : «وبقرب البلقاء من أطراف الشام موضع يقال له الرقيم ، يزعم بعضهم أن به أهل الكهف» والمعني بهذا منطقة البتراء بالأردن .

بأنَّه كان استخلف أباه نجمَ الدّين أيّوب على مصر ، وأنَّه بلغه أنَّه مريضٌ ، ويخاف أن يحدث به حادثُ الموت فتخرج البلادُ عن أيديهم ، ولم يكن مريضاً ، وأرسل مع الفَقيه عيسى من التُّحف والهدايا ما يجلّ عن الوَصْف ، فجاء إليه فأعلمه برسالة صَلاح الدّين ، فعظم ذلك عليه ولم يظهر التأثّر بذلك ، وقال : «حفظ مصر أَهَمُّ عندنا» .

واتّفق أنَّ صلاحَ الدّين وصل إلى مصر فوجد أباه قد سَقَطَ عن الفَرس ، وبقي أيّـاماً ومات ، وهو غائبٌ عنه ، في السَّابع والعشرين من ذي الحجّة من سنة ثمان وستّين وخمسمائة .

وخاف صلاحُ الدّين من نور الدّين أن يدخلَ مصر فيأخذها منهم ، فشرع في تحصيل مملكةٍ أُخرى لتكون عدَّة له بحيث أنّ نُور الدّين إنْ غَلَبه إلى الديار المصريَّة سارَ هُو وأهلهُ إليها وأقامُوا بها .

فَسَيَّر أخاهُ الأكبر تُورَانْشَاه بِإذْنِ نُور الدّين له في ذلك ، وسَيَّرهُ قاصداً عَبْدَ النبي بن مهديّ ، وكان دَعا إلى نفسه ، وقَطَع خُطُبَة بني العبَّاس ، فمضى إليها ، وفتح زَبيد وعَدن ومُعْظَمَ بلاد اليَمن .

وَصَلاحُ الدّين على ما كان عليه من الطَّاعة في الظَّاهر لِنُور الدّين إلى أن اتَّفق أَنْ مَرِضَ نُور الدّين بِعِلَّة الخوانيق بدمشق ،وتُوفيّ بِهَا يَومَ الأربعاء حادي عَشر شَوَّال من سنة تسع وستّين وخمسمائة ، وكانَ قَدْ شَرَع في التَأَهُّب

١ ـ خير مصدر حول موضوع التوسع الأيوبي في اليمن هو كتاب «السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن» لمحمد بن حاتم اليامي ـ ط ، بيروت ١٩٧٤ .

للدخول إلى الديار المصريّة وختن ولده الملك الصَّالح اسماعيل بدمشق ، في خامس شوّال ، وأخرج صَدَقات كثيرة وكسوات للأيتام الّذين خَتَنهم معه .

واتَّسع مُلْكهُ بحيثُ خُطِبَ له بالحَرَمَين الشَّريفَين وبِلاد اليَمن الّتي افتَتَحها شمسُ المُلوك ، وانعمر بلد حلب في زمانِهِ لِعَدْله وحُسْن سيرته حتّى لم تبقَ مزرعةٌ في جبل ولا وَادٍ إلاَّ فيها سكَّان ولها مغَلٌّ .

وَصَار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن أكثر من المدينة ، مثل الحَاضِر السُّلَيْماني ، وخارجَ باب الأربعين ، وغير ذلك من الأبواب جميعها .

وارتفعت الأَسعار مَعَ كَثْرَة المغلاَّت لكثرة العالم ، حتّى كانت الأَسْعَار في السَّنة الّتي ماتَ فيها بَعْدَ ذلك الرّخص في السّنة التي مات فيها والده : الحنطة مكّوك ونصف بدينار ، والشَّعير مكّوكان ونصف بدينار ، والعَدَس مكّوك ومصع بدينار ، والجلبَان كذلك ، والقُطن ستَّةُ أرطالِ جَوز بدينار .

والله تعالى يرحمه

وقَام الملكُ الصَّالحُ بالمُلْكِ بعده[1] ، وكانَ عمرهُ إحْدى عشرة سنة ، وحلف له الأُمراءُ بدمشق . وخَطَب له الملك النَّاصرُ صَلاحُ الدّين بمصر ، وأرسل إليه رسولاً يُعزّيه ، ومعه دنانيرُ مصريةٌ عليها اسمُه ، ويُعلمه أنَّه في طَاعتِه ، وأنَّ الخطبَةَ أُقيمتْ له بمصر .

وأمَّا حلبُ فكان الوالي بقلعتها جمالُ الدّين شاذبخت ـ الخادم

١ ـ للصالح اسماعيل ترجمة مفيدة في بغية الطلب ص١٨٢٢ ـ ١٨٢٦ .

الهنديُّ عتيقُ نورِ الدّين ـ وهُوَ الّذي بَنَى المدرسة[1] لأصْحَاب أبي حنيفة بحلب ، وقُبر بها ، فوصله كتابُ الطَّيْر بوفاة نُورِ الدّين ؛ فأمر في الحال بِضَرْب الدَّبادب[2] ، والكوسات ، والبُوقات ، وأحضَر المُقَدَّمين والأعيانَ بحلبَ ، والفقهاء والأُمراء ، وقال :

«قَدْ وَصَل كِتَابُ الطَّائر ، يُخبر أنَّ مَوْلانا المِلِكَ العَادلَ قد ختَنَ وَلَدَه ؛ وولاَّه العَهْدَ بعدَه ، ومشى بَيْنَ يَدَيهِ» .

فأظهروا السُّرورَ بذلك ، وحمدوا الله تعالَى ، فقال لهم : «تحلفون لولده الملك الصَّالح ، كما أمَرَ المَلِكُ العادل بأنَّ حلب له ، وأنَّ طاعتَكم له وخدمتَكم ، كما كانت لأبيه» . فَحَلَفَ النَّاسُ على اختلاف طَبقَاتهم ومَنازلهم ، في ذلك اليوم ، ولم يترك أحداً منهم يزولُ من مكانه ، ثم قام إلى مجلس آخر ، ولبسَ ثيابَ الحِداد ، وخرج إليهم وقال : «يحسن الله عزاءَكم في المَلِك العادِل ، فإنَّ الله قد نقله إلى جنَّات النَّعيم» .

وتوجَّه المؤيّدُ بنُ العَميد ، وعثمانُ زردك ، وهمامُ الدّين إلى حلب ، لإثبات ما في الخزائن بحلب ، وختمها بخاتم المَلِك الصَّالح .

وكان وزير الملك العادل نور الدّين : موفَّق الدّين خالد بن محمد بن نصر بن القيسراني ، رسولاً عنه بمصر . فاتَّفق رأيُ الجماعة على أن ولُّوا وزارةَ المَلك الصَّالح : شهابَ الدّين أبا صالح عبد الرَّحيم بن أبي طالب بن

١ ـ يعرف موقعها الآن باسم جامع الشيخ معروف . الآثار الإسلامية ص٧٢ ـ ٧٣ .
٢ ـ أي الطبول . القاموس .

العجمي ، وكان عدلاً على خزائن نور الدّين .

وكان شمسُ الدّين عليّ ، ابنُ داية نور الدّين ، أخو مجد الدّين لأمّه ، من أكبر الأمراء النّورية ، وأمرُ حلب راجعٌ إليه وإلى إخوته في أيام نور الدّين ، وكان بحلب عند موت نور الدّين ، وسابق الدّين عثمان وبدر الدّين حسن أخواه ؛ فتولّى شمس الدّين عليّ تدبيرَ حلب ، وصعد إلى القلعة ، وحَصل بها مع شاذبخت ، والأمير بدر الدين حسن متولي الشِّحنكية بالمدينة .

وكان نُور الدّين قد سَيّر إلى الموصل وغيرها من البلاد يَستدعي العساكر ، بحجة الغَزاة ، ومقصودُه الطُّلوع إلى مصر ، فسار سيفُ الدّين غازي بعسكر الموصل ، وعلى مقدّمته سعد الدّين كمشتكين الخادم ، وكان قد جعله نورُ الدّين والياً من قِبَله بالموصل ، فلما كانوا ببعض الطريق ، وصلتهم الأخبار بموت نور الدّين هرب سعد الدين كمشتكين إلى حلب جَريدة .

وأمّا سيفُ الدّين فإنّه أخذ بلاد الجزيرة جميعها ، سوى قلعة جعبر ؛ فأرسل شمسَ الدّين عليّ بن الدّاية يطلب الملك الصالح إلى حلب ، ليمنع سيف الدّين ابنَ عمه من البلاد الجزرية ، فلم يمكنه الأمراء الّذين معه

١ ـ في بغية الطلب ص ١٨٢٣ : «وكان شمس الدين علي بن محمد ابن داية نور الدين بقلعة حلب مع شاذبخت ، وكان قد حدث نفسه بأمور ، واختلفت كلمة الأمراء ، وتجهز الملك الناصر صلاح الدين من مصر للخروج إلى الشام ، وطلب أن يكون هو الذي يتولى أمر الملك الصالح وتدبير ملكه» .

بدمشق من الانتقال إلى حلب خوفاً أن يغلبهم عليه شمسُ الدّين عليّ .

وكان شمسُ الدّين محمّد بن عبد الملك بن المقدّم قد صار متوِّليَ تدبيره بدمشق ، وكمال الدين بن الشهرزوري وجماعة من الأمراء معه ، وكان قد أشار كمال الدين على الامراء بمشاورة الملك النّاصر فيما يفعلونه ، لئلا يجعل ذلك حجّة عليهم ؛ فخافوا منه ولم يفعلوا .

وخرج الفرنج ، وحصروا قلعة بانياس فراسلهم ابن المقدم ، وبذل لهم مالاً ، وخوَّفهم بالإستنجاد بصلاح الدّين وسيف الدّين ، فعادوا . وبلغ ذلك كلُّه الملكَ النّاصرَ صلاحَ الدّين ؛ فأرسل صلاحُ الدّين إلى الملك الصّالح ، وعتب عليه حيث لم يعلمه بما تجدَّد من سيف الدّين في أخذ الجزيرة ليحضر ويكفّه ، وأنكر صلحَ الفرنج ، وبذل المال لهم ، وبذلَ من نفسه قصدَ الفرنج ، وكفَّهم عن التّطاول إلى شيء من بلاد الملِك الصالح .

وكتب إلى كمال الدّين وابن المقدّم ، والأمراء ، وقال : «لو أنَّ نورَ الدّين يعلم أنَّ فيكم من يقوم مقامي ، أو يثق به مثلي لسلَّم إليه مصر ، ولو لم يعجّل عليه الموت لعهد اليَّ بتربية ولده ، وأراكم قد تفردَّتم بمولاي وابن مولاي دوني ، وسوف أصلُ إلى خدمته ، وأكافي إنعام أبيه ، وأجازي كلاً منكم على فعله» .

وكثر خوفُ شمسُ الدّين عليّ بن الدّاية من سيف الدّين غازي ، وأن يعبرَ الفراتَ إلى حلب فيملكها ، فأرسل سعدَ الدّين كُمُشْتَكين إلى دمشق ، ليحضر الملك الصَّالح ، فلما قارب دمشقَ سيَّر إليه شمسُ الدين بن المقدّم

عسكراً ، فنهبوه ؛ وعاد منهزماً إلى حلب ، فأخلف عليه شمسُ الدين عليّ بن الدّاية ، عوضاً عما أُخذ منه .

ثم إنَّ الأمراء بدمشق ، اتفقوا على إرسال الملك الصَّالح إلى ابن الدَّاية بحلب ، لأنَّها أمُّ البلاد ، فأنفذوا إليه يطلبون إرسال سعد الدّين ليأخذ الملك الصالح ، فوصل إليهم سعدُ الدّين كُمُشْتكين ، واتفقوا على أن يكون شمس الدّين عليّ أتابكاً للملك الصالح ، وحلف شمسُ الدين وجمال الدِّين شاذبخت للأمراء على أقطاعهم ، ونفذت النسخة مع سابق الدّين عثمان إلى دمشق .

وسار الملكُ الصّالح وأمُّه مع سَعد الدّين كمشتكين والأمراء الَّذين أقطاعهم بحلب ، ولما وصلوا ما بين حماة وحلب وَصَل مِنْ جمال الدين شاذبخت مَنْ خَوَّف الأمراء مِن بني الدَّاية ، فقبضوا «سابقَ الدين عثمان» ، بقنَّسرين ؛ وكتموا الحال ؛ ووصلوا إلى باب حلب ، فخرج بدرُ الدّين حسن ، فقبضوه ، ودخلوا من «باب الميدان» وقد عمل به الخوان ، فلم يلتفتوا اليه ، وبادروا بالملك الصَّالح ، وصعدوا به إلى القلعة .

وكان «بشمس الدّين عليّ» نقرس ، فحُمِل في محفَّة ، وحضر بين يَدَيْ المَلك الصَّالح ، فزندوا يديه ، وقيَّدوا أخَوَيْه ، وجعلوا الجميع في المطمورة[1] ، بالمركز .

---

١ ـ كشف حديثاً عن سجن كان تحت الأرض في قلعة حلب وعثر به على ما يزيد عن عشرين من الهياكل العظمية .

وكان شاذبخت قد احتاط ، واستخدمَ جماعةً من الأجناد ، فصار في مقدار خمسمائة راجل ، و«شمس الدّين» في مقدار مائة ، وأمر اسباسلار[1] باب القلعة أبا بكر بن مقبل : أن يمنع مَنْ يصعدُ إلى القلعة مِنْ أصحابه وأصحاب إخوته ، ما خلا سابق الدّين وبدر الدّين ، فكانا يصعدان ، ومع كلّ واحد منهما غلام واحد ؛ ووكّلَ بباب شمس الدّين ثلاثين رجلاً كلّ ليلة ، فعتب على شاذبخت فقال له : «أنا أبعثُ الرجالَ إليك ، ليقوموا في الخدمة» ، وكان يوكِّل بالأجناد الَّذين خالفوه حَفَظة يمنعون مَنْ يدخل منهم أو يخرج ، وكان هذا حال القلعة ، في غيبة الملك الصَّالح .

وأما حالُ المدينة فانَّ السُّنّةَ من أهل البلد مالوا إلى «المجدية» ، لتعصبّهم للسُّنَّة على الشِّيعة ، وجمعهم بدر الدّين حسن شِحنة حلب ، واستحلفهم في اللَّيل ، وكان فيهم بنو العجمي ، والشيخ أبو يَعلى بن أمين الدَّولة ، وبنو قاضي بالس ـ على ما ذكر ـ وطلب القاضي أبا الفضل بن الخشَّاب وبني الطَّرسوسي ، فأبوا أن يحضروا .

وكان أهل حلب من الشِّيعة ، يتوالون أبا الفضل بن الخشَّاب ، ويقدّمونه عليهم ، فوافقوه على حفظ البلد للمَلِك الصَّالح ، وعلى مخالفة بني الدَّاية ، فسيَّر بدرَ الدين حسن إلى ابن الخشَّاب ، وقال له : «إنَّ جماعة عندي قذفوك ، وتحدّثوا بأنك تطعنُ في الدّولة ، وأنك تريد أن تملك حلب» .

---

١ ـ الضابط المسؤول عن حراسة باب القلعة .

وكان بدر الدّين وأخواه أرادوا أن تقع الفتنة بحلب بين السّنة والشِّيعة ، ليستقيم أمرهم ، فثار الغوغاءُ من الشِّيعة ونهبوا دار قطب الدين بن العجمي بالقرب من الزَّجاجين ، ودار أبي يعلى بن أمين الدَّولة ، بالجرن الأصفر[١] . وكان فيها أموال الأيتام ، وانتقل ابنُ العجمي بعد ذلك إلى البلاط ، وابن أمين الدولة إلى تحت القلعة بالقرب من «مسجد السّيدة»[٢] .

وقُتل في ذلك اليوم في «مدرسة الزجّاجين» الشيخ أبو العباس المغربيّ ، وكان مقرئاً محدّثاً .

وثارت الفتنةُ بين الطائفتينْ ؛ وطلبَ الفقراءُ دورَ الأغنياء فنُهبتْ دارُ أبي جعفر بن المنذر بالعقبة[٣] ، فجمع بدرُ الدين حسن جماعةً من الأجناد ومن أهل البلد والسُنَّةَ ومن العسكر ، وألبسهم السلاحَ ، وصعد إلى شاذبخت ، وقال له : «إنَّ أبا الفضل بن الخشّاب يريد أن يملك البلد وقد مال إليه الشيعة وبعضُ السُّنَّة ، فتعينني بنقّابين وزرّاقين حتى أقبضَ عليه ، وأعتقله ، إلى أن يحضر الملكُ الصالحُ» .

١ ـ انظر الأعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ١ ص ١٨٨ حيث يستخلص أن الجرن الأصفر كان من أحياء حلب .

٢ ـ مسجد السيدة علوية بنت وثاب زوجة ثمال بن صالح وأم محمود بن نصر مدفونه فيه . الأعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ١ ص ١٨١ .

٣ ـ انظر الآثار الإسلامية ص ٥٤ ـ ٥٥ .

فأمر الأجنادَ بلبس السّلاح والخروج معه ، وصار بهم إلى «تلّ فيروز»[١] - وهو موضع سوق الصّاغة الآن - وكان إذ ذاك تلاً .

وأخذوا الفلايج والأبواب ، وسدّوا بها الدُّروب ، وزحفوا من الطُّرق والأسطحة ، إلى دار ابن الخشَّاب ، ووقع قتالٌ شديدٌ ، وقُتل بين الفريقين جماعة كثيرة ، وانتهى إلى الدَّار ، فأحرقها ونهبها ، ونهب أدر جماعة من المجاورين له .

وانهزم القاضي أبا الفضل ، واختفى في دار فخرا وابن كياعميد بالقرب من حمَّام شراحيل[٢] ، فأقام بها إلى أن وَصَل الملِك الصَّالحُ في المحرَّم ، من سنة سبعين وخمسمائة ، وصعد إلى القلعة ، وقبض على بني الدَّاية - كما ذكرنا - وصار الأمرُ والتَّدبيرُ إلى سعدِ الدِّين كمشتكين الخادم ، وهو الَّذي بني الخانكاه[٣] المنسوبة إليه بحلب ، في جِوَارنا ، وهي كانت دارَ «أبي الطَّيِّب المتنبي» ، بحلب .

وكان شمسُ الدّين عليّ قد عَزم على أنَّ المَلِك الصَّالح إذا قَدِمَ أخذ بمفرده ، وصعدَ به إلى القلعة ، ولا يمكِّن أحداً من الأمراء من الصُّعود ، ويطردهم ،ويستقلّ بالأمور .

فسيّر «شاذبخت» من أسرّ ذلك إلى الأمراء الذين كانوا في صحبة

١ - انظر الأعلاق الخطيرة - قسم حلب - ج ١ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .
٢ - لم يرد اسم هذه الدار أو الحمام في الأعلاق الخطيرة .
٣ - انظرها في الأعلاق الخطيرة - قسم حلب - ج ١ ص ٢٣٤ .

«الملِك الصَّالح» ، فاتَّفق رأيُهم في قنَّسرين على قبض أولاد الدّاية ، وتحالفوا على أن قدّموا كمشتكين ، فلمَّا رحلوا من قنَّسرَين ، بدأوا بسابق الدّين ، وكان قد وجّهه إلى دمشق في تقرير الأمور ، فقبضوه ، وحفظوا الطُّرق لئَّلا يصل إلى حلب مَنْ يُخبر أخويْه ، إلى أن صعدوا إلى القلعة ـ كما ذكرنا ـ

وأما أبو الفضل بن الخشَّاب ، فإنَّ «الملك الصالح» أمنّه ، وسيَّر له خاتماً ، وركب إلى القلعة ، ومعه خلق كثير من أهل حلب ، وعوامّها ، يمشون في خدمته ، وأكَّد أمرَه ، وقُرّر على أن يُقتل ، فلما دخلَ إلى القلعة ، ووصل قدّام الفرن بالقلعة ، ضربه عليٌّ أخو عز الدين جورديك فرماه . وجاء بعضُ أجناد القلعة فاحتزَّ رأسه ، وجعلوه على باب القلعة . ثم رُفع على رمح إلى برجٍ بالقلعة ، يقال له «برج الزيت» ؛ وتفرّق أصحابُه من تحت القلعة ، عند ذلك .

واستولى على دولة «الملِك الصالح» أمير لالا المجاهدُ ياقوت ، وهو الحاكم عليه ، وهو الَّذي ربَّاه ، وجمال الدين شاذبخت الهندي وهو والي القلعة والحاكم بها ، وسعد الدين كمشتكين مقدّم العساكر ومتوِّلي إقطاعهم ، وشهاب الدين أبو صالح بن العجمي ، وزير الملك الصالح ؛ فخاف ، وولُّوا رئاسة حلب الرئيس صفيّ الدين طارق بن الطريرة ، وعزلوا أبا محمد الحكم ، وكان يتولَّى الرئاسة في أيام نور الدّين .

فخاف ابن المقدّم والأمراء ، الذين بدمشق ، أن يستقرَّ أمرُ كمشتكين بحلب ، فيأخذ الملك الصالح ، ويسير إلى دمشق ، ويفعل كما فعل بأولاد

الدّاية ، فكاتبوا سيفَ الدّين غازي صاحب الموصل ، ليصل إليهم ، ويسلّموا إليه دمشق ، فخاف أن تكون مكيدة منهم ، فامتنع من ذلك ، وراسل سعدَ الدّين كمشتكين والملك الصالح ، وصالحهما على الجزيرة ، وابقائها في يده .

فخاف الأمراء ، بدمشق من اتفاق «سيف الدين» و«الملك الصّالح» عليهم ، فكاتبوا «الملكَ الناصرَ صلاح الدّين يوسفَ بنَ أيوب» ، واستدعَوه من مصر ليملكوه عليهم ؛ فسار من مصر في سبعمائة فارس ، والفرنج في طريقه ، فلم يبال بهم ، فخرج إليه صاحب بُصرى ـ وكان ممَّن كاتبه ـ .

ولما وصل إلى دمشق خرج كلّ من كان بها من العسكر ، والتقوه ، ودخل البلد ، ونزل في دار أبيه المعروفة بدار «العقيقي»[1] ، وعصى عليه في القلعة خادم اسمه «ريحان» فأعلمه أنه إنما جآء في خدمة «الملك الصالح» فسلَّم إليه القلعة ، وصعد «الملك الناصر» إليها ، وأخذ ما فيها من الأموال ، فاستعان به ، وتزوَّج «خاتون بنت معين الدّين» ، وكانت زوجة «نور الدّين» ، واستخلف أخاه طغتكين سيف الإسلام .

وسار إلى حمص وحماة ، وهما في اقطاع «فخر الدّين مسعود بن الزعفراني» . وكان ظالماً ، فسار منها بعد موت «نور الدّين» ، فملك «الملك الناصر» في حادي عشر جمادى الأولى ، من سنة سبعين ، مدينة حمص .

١ ـ المكان الذي يقوم فيه الآن بناء المكتبة الظاهرية بدمشق .

وبقيت القلعة ، وكان الولاة في القلاع من جهة نور الدّين ، فترك في البلد مَنْ يحفظه ، ويمنع مَنْ في القلعة من النّزول .

وسار إلى حماة ، فَمَلَك مدينتَها مستهلّ جُمادى الآخرة ، وكان بالقلعة عزّ الدّين جورديك ، فأرسل إليه ، وقال له : «إنّي في طاعة الملكِ الصَّالح ، والخطبة له في البلاد التي في يدي على حالها ، والمقصود اتّفاق الكلمة على طاعة المَلِك الصَّالح ، وأن نستعيد البلاد الجزرية ونحفظ بلاده» . فاستحلفه جورديك على ذلك ، وسيّره إلى حلب في اجتماع الكلمة ، وفي اطلاق شمس الدّين عليّ وأخويه من السّجن ، وكان إقطاعهم قد قبض من نوّابهم ، ولم يبق في أيديهم غير شيزر ، «وقلعة جعبر» .

واستخلفَ جورديك بقعلة «حماة» أخاه ليحفظها ، فلمّا وصل جورديك قَبضَ عليه كمشتكين ، وسَجَنه ، فعلمَ أخوه بذلك ، فسلَّم قلعةَ حماة إلى الملك النَّاصر .

وسار الملكُ النّاصر إلى حلب ، فوصلها في ثالث جُمادى الآخرة من سنة سبعين ، وحصرها . فركب الملك الصَّالحُ ، وهو صبيٌّ عمره اثنتا عشرة سنة ، وجمع أهلَ حلب ، وقال لهم : «أنا يتيمكم ، وقد عرفتم إحسانَ أبي إليكم ، وقد جاء هذا الظَّالمُ ينتزع ملكي» ، وقال أقوالاً كثيرة ، وبكى فأبكى الناسَ ، وبذلوا أنفسهم وأموالَهم له ، واتّفقوا على القتال دونه ، والذبّ عنه .

فجعل الحلبيّون يخرجون ، ويقاتلون الملك النَّاصر عند «جبل

جوشن» ، فلا يقدر أن يتقرّب إلى البلد ؛ وأرسل سعد الدّين كمشتكين إلى «سِنَان» مقدّم الاسماعيليّة ، وبذل له أموالاً كثيرة ليقتل الملك الناصر ، فقفزوا عليه ، فحماه الله منهم ، وقتلوا[1] .

وبقي محاصراً حلب إلى سلخ جمادى الآخرة ، وكان كمشتكين قد أرسل إلى سيف الدّين غازي يستنجده ، وكان «ريمند» ـ صاحب طرابلس الَّذي أسره نُورُ الدّين ـ قد أطلقه كمشتكين بمائة ألف وخمسين ألفاً صوريّة ، في هذه السَّنة ، وصار موضع «مري» ملكَ الفرنج[2] ، فأرسلَ مَنْ بحلب إليه يطلبون منه أن يقصد بعض البلاد الَّتي بيد الملك النَّاصر ، ليرحل عنهم ، فسار إلى حمصَ ونازلها ، فرحلَ الملكُ النَّاصرُ عن حلب ، مستهلّ شهر رجب . فلما نَزَلَ «الرَّستن» . رحلَ الفرنجُ عن حمص ، ووصل الملكُ النَّاصر إليها ، وحصرَ قلعَتَها إلى أن تسلَّمها .

وسار إلى بعلبك ، فتسلَّمها وقلعتها ، في رابع شهر رمضان ، من سنة سبعين وخمسمائة .

وأما سيفُ الدّين غازي فإنَّه جمعَ عساكرَه ، وكاتب أخاه عمادَ الدّين زنكي صاحب سنجار ، لينزل إليه بعساكره ليجتمعا على نُصرة المِلِك الصَّالح ، فامتنع ، وكان الملكُ النَّاصرُ قد كاتبه ، وأطمعه في مُلْكِ المَوصل ، لأنَّه الكبير من أولاد أبيه ، فمضى سيفُ الدّين إلى «سنجار»

١ ـ منذ ذلك الحين أقيم لصلاح برج خشبي كان لا يفارقه خوفاً من الاغتيال .
٢ ـ وصل إلى مرتبة الوصاية على بلدوين بن عموري . وليم الصوري ص ٩٧٦ ـ ٩٧٧ .

محاصراً لها ، وسيّر عسكراً كثيراً إلى حلب مع أخيه عزّ الدّين مسعود ، مع أكبر أمرائه «زلفندار» ، فوصل عزّ الدّين إلى حلب ، واجتمعت عساكر حلب معه ، وساروا إلى حماة ، فقاتلوها .

فأرسل المَلِكُ النَّاصرُ ، وبذل لهم تسليمَ حمص وحماة ، وأن يقرّ بيده دمشق ، وأن يكون فيها نائباً عن المَلِك الصَّالح ، فلم يجيبوه إلى ذلك ، وقالوا : «لابدَّ من تسليم جميع ما أخذه من الشّام ، وعوده إلى مصر» .

فسار الملكُ النَّاصرُ إلى عزّ الدّين وزلفندار ، فالتقوا تاسع عشر شهر رمضان ، على قرون[1] حماة . فانهزم عسكرُ الموصل ، وثَبَتَ عزُّ الدّين بعدَ الهزيمة ، فقال الملكُ الناصرُ : «إما أن يكون هذا أشجعَ النَّاس ، أو أنه لا يعرفُ الحرب» . وأمر أصحابه فحملوا عليه حتى أزالوه عن موقفه ، وتمَّت الهزيمة ، وتبعهم المَلِكُ النَّاصرُ ، وغنموا غنائم كثيرة ، وأسر جماعة كثيرة ، فأطلقهم .

ونزل الملكُ النَّاصرُ على حلب ، محاصراً لها ، وقطعَ حينئذٍ خطبةَ الملكِ الصَّالح ، وأزال اسمَه عن السّكّة في بلاده ، فلما طالَ الأمرُ عليهم راسلوه في الصُّلح ، على أن يكون له ما بيده من بلاد الشَّام ، ولهم ما بأيديهم ، وأخذ المعرَّة ، وكفرطاب ، وانتظم الحال بينهم على ذلك .

ورحل عن حلب ، في العشر الأول من شوَّال ، إلى حماة ، فوصلتْه

١ ـ جبلا زين العابدين وكفراع شمالي حماة .

خلعُ الخليفة بها مع رسوله ، ووصل خبرُ الكَسْرة إلى سيف الدّين ، وهو محاصر سنجار ، فصالحَ «عماد الدّين» على ما بيده ، ورحل إلى الموصل ، وشرع في جمع العساكر .

وسار الملكُ النَّاصرُ من حماة إلى «بارين» ، وفيها نائبُ عزّ الدّين بن الزّعفراني ، ولم يبق بيده غيرها ، فحصرها إلى أن سلَّمها وَاليها إليه بالأمان ، فعاد إلى حماة ، وأقطعها خاله شهاب الدّين محمود بن تكش الحارميّ ، وأقطع حمص ناصرَ الدّين محمد ابنَ عمه أسد الدّين ، وعاد إلى دمشق .

وخرج سيفُ الدّين غازي صاحب الموصل ، في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة. وسار إلى «نصيبين»، واستنجدَ صاحب «حصن كيفا» وصاحب «ماردين» ، فاجتمع معه عسكرٌ كثيرٌ بلغت عُدَّتُهم ستة آلاف فارس ، وأقام بنصيبين حتى خرجَ الشِّتاءُ ، فضجرتِ العَساكرُ وفنيت نفقاتُهم[1] .

ثم سار إلى حلب ، فعبر بـ «البيرة» وخيّم على جانب الفرات الشامي ، وراسل كمشتكين والملكَ الصالحَ ، لتستقرّ قاعدة يصل عليها إليهم ، ووصل كمشتكين إليه ، وجرت مراجعاتٌ كثيرة ، عَزَم فيها على العَود مراراً ، حتى استقرَّ اجتماعه بالملك الصالح ، وسمحوا به ، فسار ووصل إلى حلب .

---

١ ـ انظر ما كتبه ابن الأزرق الفارقي . ٥٣٣٥ ـ ٥٣٣٧ من الموسوعة الشامية .

وخرج الملكُ الصَّالح للقائه بنفسه ، فالتقاه قريب «القلعة» ، واعتنقَه ، وضمَّه إليه ، وبكى ، ثم أمَرَه بالعود إلى القلعة فعاد ، وسار هو ، فنزل «بعين المباركة»[١] ، وأقام بها مدّة وعسكرُ حلب تخرجُ إلى خدمته في كلّ يوم ، وصعد إلى قلعة حلب جريدة ، وأكل فيها شيئاً ، ونزل ، وسار منها إلى «تلّ السُّلطان»[٢] ، ومعه عسكر حلب ، مضافاً إلى العساكر الواصلة معه .

وخرج رجلٌ ادَّعى أنَّه المنتظر، وادَّعى النبوَّة «بجبل لَيْلون»[٣]، واستغوى أهلَ تلك النَّاحية ، وأظهر لهم زخارفَ ، ومُحالاً ، وقال لهم : «إذا جاء العسكرُ إليكم ، فسوف أرميهم بكفّ من تُراب فأهلكهم» . وأغاروا على «تركمان» «بجبل سَمْعان» وكان مُقيماً بأتباعه «بكفرند» ، فخرج «طُمان» من العسكر ، وسعدُ الدّين كمشتكين بجماعةٍ من العسكر ، ووصلوا إليهم ، فجعلَ أتباعهُ يَصيحُون ؛ «وعدك يا مولانا» ! والسَّيْفُ يعملُ فيهم ، فألقى الترابَ ، فزحف إليه العسكرُ ، وقتلَ الرجالَ وسبَى النساء ، والتجأ جماعةٌ إلى المغاير ، فاستخرجوهم ولم يُبقوا إلاَّ على من أسلمَ منهم ، ودخَّنوا على جماعة في المغاير ، فماتوا ، ثم عاد العسكرُ إلى «تلّ السّلطان» ، بعد أن قَتَلَ وصَلَب[٤] .

١ - من منتزهات حلب المشهورة . انظر تاريخ حلب لابن الشحنة ـ ط . طوكيو ١٩٩٠ ص ١٣٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ .

٢ ـ انظر تاريخ ابن الشحنة ص ١٣٢ .

٣ - جبل ليلون جبل مطل على حلب بينها وبين أنطاكية . معجم البلدان .

٤ ـ ذكر أبو شامة في الروضتين ج ١ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ نقلاً عن ابن أبي طيء أن هذا الرجل=

وكان الملكُ النَّاصرُ بدمشق في قلّ من العسكر ، لأنَّه كان قد سيّرها إلى مصر ، وأنفذ إليها يستدعيها ، فلو عاجله سيفُ الدّين لبلغ منه غرضاً ؛ لكنَّه تأخّر ، فوصل عسكرُ مصر إلى الملك النَّاصر .

فسار من دمشق إلى ناحية حلب ، ليلقى سيفَ الدِّين ، فالتقاه «بتلّ السّلطان» ، وكان «سيفُ الدّين» قد سبقه إلى تلّ السْلطان ، فوصل الملكُ النَّاصر العصرَ ، وقد تعب هوَ وأصحابه وعطشوا ، فألقَوْا نفوسَهم إلى الأرض ليس فيهم حركة .

فأُشير على سيف الدّين بلقائهم في تلك الحالة، فقال زلفندار: «ما بنا حاجة إلى القتال في هذه السَّاعة ، وغداً بكرة نأخذهم كلَّهم» ، فترك القتال إلى الغدّ ، فلما أصبحوا اصطفُّوا للقتال ، فجعل «زلفندار» الأعلامَ في وهدة من الأرض ، لا يراها إلَّا مَنْ هو قريبٌ منها فلمَّا التقى الفريقان ، ظَنَّ أكثرُ النَّاس أنَّ سيفَ الدّين قد انهزم ، لأنَّهم لم يروا الأعلامَ ، فانهزموا بعد أن كان مظفَّرُ الدّين بن زين الدّين ـ وهو في الميمنة ـ قد كسر ميسرةَ الملك النَّاصر ، وولُّوا الأدبار ، وأسر منهم جماعةً فأطلقَهم الملكُ النَّاصر ، منهم : فخر الدّين عبد المسيح ، وأمسك عن تتبّع العسكر، فلم يقتل غير رجل

= أصله من المغرب ظهر أولاً في قرية مشغرة في غوطة دمشق ثم هرب إلى بلد حلب ، وكان ذلك سنة ٥٧٠ هـ ، وأعتقد أن كفرند تصحيف لكفر نجد ، وكانت ـ كما قال ياقوت ـ قرية كبيرة من أعمال حلب في جبل السماق ، وكما ذكرها ابن العديم في بغية الطلب ص ٤٧٧ ، وكفر نجد الآن من قرى منطقة أريحا في محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ١٧ كم .

واحد ، وذلك في يوم الخميس العاشر من شوّال ، سنة إحدى وسبعين وخمسمائة .

ونزلَ الملكُ النَّاصرُ وعسكرُه ، في بقيَّة ذلك اليوم في خيَم القوم ، واستولوا على جميع ما فيها، وفرّق الاصطبلات والخزائن، ووَهَبَ خيمة سيف الدّين عزّ الدّين فرّوخشاه ، ووصل سيفُ الدّين إلى حلب ، وتركَ أخاه عزّ الدّين في جماعة من الْعسكر ، وعَبَر الفراتَ ، وسار إلى الموصل .

ووصلَ الملكُ النَّاصرُ إلى حلب ، يوم الأحد ثالث عشر شوَّال ، فأقام عليها أربعةَ أيام ، ورحل عنها ، يوم الجمعة ثامن عشر شوّال ، فنزل بُزاعا[1] فحصرها ، وتسلَّمها يوم الاثنين العشرين من شوَّال ورحلَ فنزلَ منبج ، فحصرها ، في التَّاسع والعشرين من شوّال ، وبها قطبُ الدّين ينال بنُ حسَّان ، وكان شديدَ العَداوة للملك النَّاصر ، وكان قد حَنَق عليه لذلك ، فملكَ المدينةَ ، ونقبت القلعة ، فحصروه بها ، ونقبها النقَّابون ، وملكها عنوةً ، وأخذ كلَّ ما كان فيها ، وأخذ صاحبها أسيراً ، ثم أطلقه ، فسار إلى الموصل ، فأقطعه سيفُ الدّين «الرّقَّة» .

ورحلَ الملكُ النَّاصرُ إلى «عَزار» فنازلها ثالث ذي القعدة ، وحصَرها ونصبَ عليها المنجنيقات .

وجلس يوماً في خيمة بعض أمرائه ، ويقال له «جاولي» مقدّم الأسديّة ، فوثبَ عليه باطنيّ ، فجرحه بسكّين في رأسه ، فردَّ المِغفَرُ عنه ،

١ ـ بزاعا بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب .

وأمسكَ الملكُ النَّاصرُ يَدَيْ الباطني بيديه ، إلاَّ أنه لا يقدر على منعه من الضَّرب بالكليّة ، بل يضربُ ضرباً ضعيفاً ، فبقيَ الباطنيُّ يضربه بالسكِّين في رقبته ، وكان عليه كَزَاغُنْد[١] ، فكانت الضَّربات تقع في زيقه ، والزَّرَدُ يمنعُها من الوصول . وجاء «سيفُ الدّين يازكج» فأمسك السكّين ، فجرحه الباطني ، ولم يُطْلقها من يده إلى أن قُتل ، وجان باطنيّان آخران فقُتلا .

وركب الملكُ الناصر إلى خيمته ، ولازم حصارَ عَزاز ، حتى تسلَّمها بعد قِتال شديد ، في بكرة الأربعاء ، ثاني عشر ذي الحجّة . ورحلَ عنها إلى «مَرْجِ دَابق» .

ثم سارَ فنَزل حلبَ ، يوم الجمعة ، منتصف ذي الحجّة ، وحصرها ، وبها جماعةٌ من العسكر ، ومنَع أهلُ البلد الملك النَّاصرَ من التقرّب إلى البلد ، وكانوا يخرجون إلى خيم المعَسْكر فيقاتلوه ، وإذا مسك واحد منهم شرحت قدماه ، فيمتنع من المشي ، ولا يكفُّون عن القتال ، وقام في نُصرته السّنة والشِّيعةُ من الحلبيّين ، وأعطي الشيعة «الشرقيَّة» في المسجد الجامع ، فكانوا يجتمعون بها للصَّلاة .

واتَّفق أن الحلبيّين اجتمعوا تحتَ القلعة ، شاكِّين في السِّلاح ، يستأذنون الملكَ الصالحَ في الخروج إلى قتال العسكر ، فدخلَ رسولٌ من المَلِكِ النَّاصر ، يقال له «سعد الدّين أبو حامد العجمي الكاتب» ، فصاحَ عوامُّ الحلبيين : «ما نصالحُ يا رسول ، رُحْ ، ودعْ عنكَ الفضول» . ورجموه

١ - من أنواع الدروع السابغة .

بالحجارة ، فخرج ، واتبعوه إلى قريب من الخيام .

ثم تردّدت الرسلُ بينهم في الصُّلح بين الملكَ الصَّالح ، وسيفِ الدِّين صاحبِ الموصل ، وصاحبِ الحصن ، وصاحب ماردين ، وبين الملكِ النَّاصر ، وتحالفوا ، واستقرَّت على أن يكونوا كلُّهم عوناً على النَّاكث الغادر ، واستقرَّ الصلح ، ورحلَ الملكُ النَّاصر ، في السَّادس عشر من محرَّم ، سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ولما تقرَّر الصلحُ ، أخرج الملكُ الصَّالحُ إلى الملك الناصر أختَه بنتَ نور الدِّين ، وكانت طفلة صغيرة ، فأكرمها ، وحملَ لها شيئاً كثيراً ، وقال لها : «ما تريدين ؟» قالت : «أريدُ قلعةَ عزاز» ـ وكانوا قد علَّموها ذلك ـ فسلَّمها إليهم .

ورحل إلى بلد «الإسماعيليّة»[1] ، وحصرهم ، ثم صالحهم بوساطة خالِه محمود بن تكش ، وسار بعساكره إلى مصر ، وكان في شروط الصُّلح أن يُطْلَق عزُّ الدِّين جورديك ، وشمسُ الدِّين عليّ بن الدَّاية ، وأخواه سابقُ الدِّين ، وبدرُ الدِّين ، فسار أولادُ الدّاية إلى الملكِ النّاصر ، فأكرمهم ، وأنعم عليهم ، وأما جورديك ، فأقام في خدمة المِلك الصَّالِح ، وعلم الجماعةُ براءته مما ظنُّوا به .

وعصى غرسُ الدِّين قلج في «تلّ خالد»[2] لأنه نُسِبَ إليه أمرٌ أوجبَ

١ ـ مصياف غربي مدينة حماه .

٢ ـ تل خالد من الحصون التي كان نور الدين قد انتزعها من جوسلين . انظر تاريخ ابن الشحنة ص ١٧٧ ، ٢١٤ .

وحشته ، فحصل فيها بماله ، وحصّنها ، فخرج إليه سعدُ الدّين كمشتكين بالعسكر ، ومعه «طمان» ، فحصره مدّةً ، فسيّر ، واستشفع بالملك النّاصر ، فقبل الشفاعة وأمنّه ، فخرج بماله وأهلِه ، وحاشيته ، ومضى إلى منبج ، فنزل بها عند «الدويل» ، وكان الملكُ النّاصرُ قد أقطعه إيّاها ، وكان ذلك في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

وفي هذه السّنة ، أظهر أهلُ «جبل السمّاق» الفُسْقَ والفجورَ ، وتسمّوا بالصفاة ؛ واختلطَ النّساءُ والرّجالُ في مجالس الشُّرب ، ولا يمتنعُ أحدُهم من أختِه ولا بنتِه ، ولبسَ النساءُ ثيابَ الرّجال ، وأعلن بعضُهم بأن «سِنَاناً» ربّه . فسيَّر الملكُ الصالح اليهم عسكرَ حلب ، فهربوا من «الجبلَ» وتحصَّنوا في رؤوس الجبال ، فأرسل «سنان» ، وسأل فيهم ، وأنكر حالتهم ، وكانوا قد نسبوا ذلك إليه ، وأنّهم فعلوا ذلك بأمره ، فأشار سعدُ الدّين بقبول شفاعته فيهم ، وعاد العسكرُ عنهم[1] .

وشرع «سِنان» في تتبّع المقدّمين منهم ، فأهلكهم ، وكان في «الباب» منهم جماعةٌ فثار بهم «النبوية»[2] من أهل ذلك البلد ، وقاتلوهم من التّركمان ، فانهزموا واختبئوا في المغاير ، فنهبوا دورَهم ، وعرّوا نساءهم ، ودخّنوا عليهم في المغاير ، وقتلوا من أمكنهم قتله .

ثم إنَّ الاسماعيليّة قفزوا على الوزير شهاب الدّين أبي صالح بن

١ ـ لعل لهذا علاقة بالقيامة التي أعلنت من قبل في قُهستان بوساطة امام ألموت . انظر كتاب الدعوة الاسماعيلية الجديدة ـ ط . بيروت ١٩٧٠ ص ٨٧ ـ ٩٠ .

٢ ـ أفضل المعلومات حول هذا الحدث لدى ابن الأزرق ص ٥٣٣٤ ـ ٥٣٣٥ من الموسوعة الشامية .

العجمي ، يوم الجمعة رابع شهر ربيع الأول ، من سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وكان السَّبب في ذلك أنَّ أبا صالح كان يواطىء المجاهد «الَّلالا» وجمال الدّين شاذبخت ، على سعد الدّين كمشتكين ، ويحاولون حطَّه عن مرتبته . فعلم كمشتكين ذلك ، فكتب كتاباً إلى «سنان» مقدّم الاسماعيلية «بالحصون» ، على لسان الملكِ الصالحِ ، يلتمس منه قتلَ أبي صالح ، والَّلالا ، وشاذبخت ، وكان قد أحضر الكِتَاب إلى الملكِ الصَّالِحِ . وهو خَارجٌ إلى الصيَّد ، وطلبَ خطَّه ، وهو أبيض ، لم يكتب فيه شيء أصلاً ، وقال له : «المولى خارجٌ ، ويحتاج أن يكتب كتاباً في أمر كذا وكذا ، فيكتب المولى علامتَه» . فكتبَ ثقةً بأنَّ الأمر كما ذَكَر .

فكتب كمشتكين إلى «سنان» بالأمر الذي أراده ، وسيّره إليهِ ، فلم يشكّ «سنان» في أنَّ الأمر وقع من الملك الصَّالح ، ليستقلّ بأموره وملكه ، فندبَ جماعةً لقتل المذكورين ، فوثبوا على شِهاب الدّين أبي صالح ، عندما خَرج من باب الجامع الشَّرقي[١] ، بالقرب من داره ، وقتل الاسماعيليّان الَّلذان وثبا عليه .

ثمّ وَثَبَ بعد ذلك بمدّة ثلاث منهم على «الَّلالا» ، بالقرب من «خانكاه القصر»[٢] ، وتعلَّق بذَيْل «بغلتاقه»[٣] ليضربه بالسكِّين ، فرفسَ الَّلالا

١ ـ أي الجامع الأموي بحلب .

٢ ـ على مقربة من باب القلعة الصغير من جانب خندقها . الأعلاق ـ قسم حلب ـ ج ١ ص ٧١ .

٣ ـ البغلطاق رداء بلا أكمام يلبس فوق الثياب . انظر معجم مفصل في أسماء الألبسه عند العرب لرينهارت دوزي ط . أمستردام ١٨٤٥ ص ٨١ ـ ٨٤ .

الفرس، وخرج من البغلتاق»، فنجا، وأحاط النَّاس بالجماعة الَّذين قفزوا عليه ، وفيهم اثنان كانا يتردّدان إلى «ركابدار»[1] الَّلالاَّ ، فقُتل ، أحدُهما وصُلب ، وصُلب الركابدار أيضاً ، وكُتب على صدره : «هذا جزاءُ من يُؤوي الملحدةَ» .

وأما الآخر ، فصعدوا به إلى القلعة ، فَضُرب ضرباً عنيفاً ، وثُقِبَ كَعْبُه ، ليقرّر على السَّبب الَّذي أوجب وثوبَهم ، فقال للمَلِك الصَّالح : «أنتَ تبعثُ كتبك إلى مولانا سنان بقَتْلِ مَنْ أُمِرْنا بقتله ، ثم تُنْكِرُ فعلَ ذلك ؟» فقال : «ما أمرْتُ بشيء» . وكتب إلى «سنان» يعتبُ عليه فيما فعل بأبي صالح والَّلالا ، فقال : «أنا ما فعلتُ شيئاً إلاَّ بأمِرك وخطِّك» . وسيّر إليه كتاباً فيه علامتُه بقتل الثَّلاثة المذكورين ، فعلم أن ذلك كان مكيدةً من كمشتكين .

وكان الاسماعيليّة قد اجتهدوا في قتل شاذبخت ، فلم يقدروا على الوُثوب عليه ، لشدَّة احترازه في القلعة ، فعند ذلك وجد أعداءُ كمشتكين طريقاً للطَّعن عليه ، وقالوا : «إنَّما أراد قتل هؤلاء ليستقلّ بملكك ، ويفعل فيه ما لا يقدر أن يفعله معهم ، وأنَّه قد استصغرك ، واحتقَر أمرَك» .

وكانت حارم لسعد الدّين كمشتكين ، أقطعه إياها الملكُ الصَّالحُ ، حين أخذها من بدر الدّين حسن ، فأنهي إلى الملك الصَّالح أنَّ سعد الدّين يريد أن يسلِّمها إلى الفرنج ، لأنَّ أصله فرنجي ، وأنَّه قد قرَّر معهم أن

١ ـ المسؤول عن حفظ مراكب اللالا .

يبيعها عليهم بمال وافر ، والدَّليل على صدق ذلك أنَّه أطلق مَنْ كان بالقلعة ، مِنْ أسرى الفرنج ، من أيَّام نور الدّين ، وأطلق البرنسَ «أرناط» ، فقطع الطَّريق بالكَرَك ، وسيّر أمواله من حلب وغيّبها ، وكتب إليه رجل من الفرنج يقال له ؛ الفارس «بدران» بشيء من ذلك ، وبعث بعدّة كتب من سعد الدّين إلى الفرنج ، تشهد بما أنهاه ، ولعلَّه وضع ذلك كله عليه ، حتى نالوا غرضهم منه .

فقبَضَ المِلِكُ الصَّالحُ علَى سعد الدّين ، في التاسع من شهر ربيع الأول ، من سنة ثلاث وسبعين ، وكان قد جاء يطلب دستوراً إلى حارم ، وطلب تسليمَها منه ، فامتنع . فحُمِل إليها تحت «الحوطة» وجيء به إلى تحت قلعتها ، وعذِّب ، فاستدعى بعض من يثق إليه من المستحفظين بالقلعة ، وأسرّ إليهما[1] أنَّهم لا يسلِّمونها ، ولو قُطع ، ثم قال لهما جهراً : «بعلامة كذا وكذا ، سلّموا» ، فصعدا إلى القلعة ، وأظهر مَن فيها العصيانَ والمقاتلة ، فعذِّب عذاباً شديداً ، وعلّق برجليه ، وسقط بالخلّ ، والكلس . والدُّخان ، وعُصِر ، وأصحابُه يشاهدونه ، ولا يجيبون إلى التسليم .

وخرج الفرنجُ من «أنطاكية» ؛ يطلبون «حاوم» ، فتقدَّم الملك الصَّالحُ بخنق كمشتكين ، فخُنق بوترٍ ، وأصحابُه يشاهدونه ولا يسلمون ، وكسروا يَدَيْه وعنقَه ، ورموه إلى خندق «حارم» ، فحين علم الفرنج ذلك ساروا إلى شيزر .

---

١ ـ لعل عدد من استدعاه ممن كان يثق به كان اثنين .

ودخل المِلِك الصَالح إلى حلب ، وخلف العسكرَ بأرضِ «عِمّ»[١] و«جاشر» ، حول حارم ؛ يمنعونَها من الفرنج ، ويباكرونها كلَّ يوم لطلب التَّسليم ، ومقدَّم العسكر «طمان بن غازي» ـ وكان من أكبر الأُمراء ـ .

وعاد الفرنج إلى حماة فحصروها ، ولم يظفروا بطائل ، وطمعوا في حارم، لعصيان أصحاب كمشتكين بها ، وظَنُّوا أنَّ الملكَ الصَّالحَ صبي ، وعسكره قليل ، والملكُ النَّاصر بمصر ، فلا ينجدهم إلَّا بعد أن يأخذوا «حارم» ، فنزلوا عليها ، ومعهم كند كبير من الفرنج ، كان قد خرج من البحر إلى السَّاحل ، يقال له كندر «فلنط لماني»[٢] ، ومعهم البرنس ، وابن لاون ، والقومص صاحب طرابلس ، فندم من «بحارم» ، حيث لم يسلموها إلى الملك الصَّالح .

وحصرها الفرنج ، وضايقوها بالمجانيق والسَّلالم ، فصاحَ مَنْ فيها : «صلاح الدّين يا منصور» ! فأحضروا خيمة ، كانوا أخذوها من خيم الملك الناصر في كسرة «الرَّملة» في هذه السنة[٣] وأخبروهم بالكسرة ليضعفوا عزيمتهم ، وعسكر حلب بإزائهم من «عِمّ» إلى تيزين[٤] .

---

١ ـ عم قرية غناء بين حلب وأنطاكية . معجم البلدان .
٢ ـ فلنط لماني هو كونت فلاندرز . انظر وليم الصوري ص ١٠٠٥ ـ ١٠٠٧ .
٣ ـ انظر وليم الصوري ص ١٠٠٢ ـ ١٠٠٥ .
٤ ـ تيزين قرية كبيرة من نواحي حلب كانت تعد من أعمال قنسرين . معجم البلدان .

ودخلت سنة أربع وسبعين :

والفرنج مجدّون على قِتال «حارم» ، ونقبوا في تلّ القلعة ، من جهة القبلة نقباً ، ومن جهة الشّمال آخر . فانهدَّ السّور على مَنْ تحته ، وهو موضع البغلة[1]، **التي جدّدها السُّلطانُ الملكُ الظَّاهرُ ـ قدّس الله روحَه ـ.**

وامتنعَ القتالُ مِنْ تلك الناحية ، خوفاً من وقوع شيء آخر . فأخرج المسلمون رجلاً من عندهم إلى «طمان» ، يطلب الأمانَ مِن الملك الصَّالح والنجدة ، فسيّر إلى الملكِ الصَّالح ، وأعلمه .

فانتخبَ الملكُ الصالحُ رجالاً أجلاداً من الحلبّيين ، وأعطاهم مالاً جزيلاً ، وقال لهم : «أريدُ منكم أن تدخلوا قلعةَ حارم» ؛ فجاءوا ، والفرنج مُحْدِقون بها ، في اللَّيل ، فسلكوا خيامهم مفرّقين ، حتى جاوزوها ، وصاحوا بالتكبير والتَّهليل ، وصعدوا القلعة ، وصار فيها شوكة من المقاتلة ، بعد أن كان قُتل من المسلمين بها رجالٌ عدّة . والمسلمون ـ أعني عسكر حلب ـ إذ ذاك حول الفرنج جرايد ، وأثقالهم «بدير سمعان» ، وهم يتخطَّفون مَن يمكنهم أخذه من الفرنج ويحفظون أطراف البلد .

وسار العسكرُ عند ذاك إلى «دير أطمة»[2] وصادفوا الفرنجَ في وطأة «أطمة» ، فحملوا عليهم ، فانهزموا وقُتل من الفرنج ، وأُسر جماعةٌ ؛ فدام حصارُ الفرنج أربعة أشهر . وأرسل الملكُ الصَّالحُ إليهم ، وقال : «إنَّ

١ ـ جدار استنادي لدعم جدار قديم حتى لا ينهار .
٢ ـ اطمة الآن من قرى منطقة حارم في محافظة أدلب وتبعد عن ادلب مسافة ٨٩ كم .

الملِكَ النَّاصرَ واصلٌ إلى الشَّام ، وربَّما يسلِّم مَن بحارم إليه قلعتها ، ويُضْحي في جواركم ، وبذل لهم مالاً بمقدار ما أنفقوا مدَّة حصارهم لها ، وانتظم الصُّلْحُ ، ورحلوا .

وخرج المَلِكُ الصَّالحُ ، فنزل على «حارم» ، فسلَّمها إليه أصحاب كمشتكين ، وصفح عن جرمهم ، وولَّى فيها «سَرخك» جمدار[1] أبيه نور الدّين ، ودخل حلب وطالب نوابَ كمشتكين بماله ، واعتقلَ ابنَ التِّنَبي وزيرَه ، فأحضرَ بعضَ المال ، وعُذِّب حتّى أحضره ، ثم هربَ من الاعتقال .

وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة :

سعى جماعة بالقاضي محيي الدّين أبي حامد بن الشَّهرزوري ، قاضي حلب ، وقدحوا فيه عند جمال ِ الدّين شاذبخت ، وأوهموه أنه يميل إلى الملكِ الصَّالح ، ووضعوا على لسانه أشعاراً نسبوها إليه ، فأوجب ذلك استيحاشَه ، وتوجَّه إلى الموصل . وعُرض القضاء على عمّي «أبي غانم محمّد بن هبة الله بن أبي جَرادة» فامتنع ، فقلِّد والدي القضاء بحلب وأعمالها ، وبقي على قضائها إلى أن مات الملكُ الصَّالح ، وفي دولة عزّ الدّين ، وعماد الدّين ، ومدّة من دولة السّلطان الملك النّاصر .

وقَبض الملكُ الصَّالحُ قريةً للاسماعيليّة تعرف بحجيرا من ضِياع نقرة

---

١ ـ الجمدار المسؤول عن ثياب الحاكم .

بني أسد ، فكتب «سنان» إلى الملك الصَّالح كتباً عدّة في إطلاقها ، فلم يُطلقها ، فأرسل جماعةً من الرّجال معهم النفطُ والنار ، فعمدوا إلى الدّكان التي في رأس «الزجَّاجين» من الشَّرق في القرنة ، فألقوا فيها النار .

فنهض نائبُ رئيس البلد بمن معه في المربّعة ، والجماعة المرتَّبون لحراسة الأسواق ، وأخذوا السَّقَّائين ليطفئوا الحريق ، فأتى الإسماعيليّةُ من أسطحة الأسواق ، وألقوا النار والنفطَ في الأسواق ، فاحترق سوقُ البزّ الكبير ، وسوق العطَّارين ، وسوق مجد الدّين ، المعدّ للبز ، وسوق الخليع ، وسوق الشراشين ـ وهو الآن يعرف بالكتّانيّين ـ وسوق السرَّاجين ، والسّوق الذي غربيّ الجامع ، جميعه ، إلى أن انتهى الحريق إلى المدرسة الحلاويّة[1] .

واحترقَ للتجَّار والسّوقيّة ، من القماش شيء كثير ، وافتقر كثيرٌ منهم بسبب ذلك ، ولم يظفروا من الاسماعيليّة بأحد ، وذلك في سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

وماتَ سيفُ الدّين غازي ، صاحبُ الموصل ، ووليها أخوه عزُّ الدّين مسعود ، وذلك في سنة ستّ وسبعين وخمسمائة .

وكان الملكُ الصَّالحُ في هاتين السنتينْ رخيَّ البال ، مستقرّاً في مملكته ، سالكاً في الإحسان إلى أهل حلب طريق أبيه ، عفيفَ اليد والفَرج

١ ـ ذكر ابن شداد بعض أسواق حلب في كتابه الأعلاق ، كما ذكر بعضها ابن الشحنة ، واهتم بها طلس في كتابه الآثار الإسلامية ، راجع الفهارس .

واللِّسَان ، فقدَّر الله تعالى أن حَضَرَ أجلُه ، وله نحو من تسع عشرة سنة[1] ، فمرض بالقولنج واشتدَّ مرضُه .

فدخل إليه طبيبهُ «ابنُ سكَّرة اليهوديّ» ، وقال له سرّاً : «يا مولانا شفاؤك في الخمر ، فانْ رأيتَ أن تأذَن لي في حمله في كمّي ، بحيث لا يطَّلع الَّلالا ، ولا شاذبخت ، ولا أحدٌ من خَلْق الله على ذلك» ، فقال : «يا حكيم ، كنتُ والله أظنُك عاقلاً ، ونبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم ـ يقول : ﴿إنَّ الله لم يَجْعَلْ شِفَاءَ أُمَّتِي فيما حُرِّمَ عليها﴾[2] وما يؤمّنني أن أمُوتَ عقيب شُربِها ـ فألقى الله ، والخمرُ في بطني ، والله لو قال لي مَلَكٌ من المَلائكة : إنَّ شفاءك في الخمر لما استعملته» .

حكي لي ذلك والدي عن ابن سكَّرة الطبيب .

ولما أيسَ مِن نفسِه أحضرَ الأمراء والمستحفظين ، وأوصاهم بتَسليم البلدِ إلى ابن عمّه عزِّ الدّين مسعود بن مودود بن زنكي ، واستحلفهم على ذلك ، فقال له بعضُهم : «إنَّ عماد الدّين ابن عمّك أيضاً ، وهو زوج أختك ، وكان والدُك يحبّه ويُؤْثره ، وهو تولَّى تربيتَه ، وليس له غير سنجار ، فلو أعطيتَه البلدَ لكانَ أصلح ، وعزُّ الدّين له من البلاد من الفُرات إلى هَمَذان ، ولا حاجةَ له إلى بلدك» ، فقال له » «إنَّ هَذا لم يَغِبْ عنّي ، ولكنْ قد علمتم أنَّ صلاحَ الدّين ، قد تغلَّب على البلاد الشَّامية ، سوى

١ ـ في بغية الطلب ص ١٨٢٦ : «له نحو من ثمانية عشر سنة» .

٢ ـ انظره في موسوعة أطراف الحديث النبوي ـ اعداد محمد السعيد بسيوني ـ ط . بيروت ١٩٨٩ ج ٣ ص ١٨٢ .

ما بيدي ، ومتى سلمَتْ حلب إلى عماد الدّين يعجز عن حفظها ، وإنْ ملَكَها صلاحُ الدّين لم يبقَ لأهلنا معه مُقَام ، وان سلَّمتُها إلى عزّ الدّين أمكنهُ حفظُها بكثرة عساكره وبلاده» . فاستحسنوا هذا القولَ منه ، وعجبوا مِنْ حُسْنِ رأيه مع شدَّة مَرَضِه ، وصغر سنِّه .

ثم مات يوم الجمعة خامس وعشرين شهر رجب ، من سنة سبع وسبعين وخمسمائة، ودُفِن بقلعة حلب، إلى أن ابتَنَت والدتُه «الخانكاه»[1] تجاهَ القلعة ، ونُقل إليها في أيام ، فسيَّر الأمراءُ . جورديكُ ، والبصيريُّ ، وبزغشُ ، وجمالُ الدّين شاذبخت ، النُّوريّون ، مع جماعةِ المماليك النُّورية ، إلى «عزّ الدّين» ، يَسْتَدعُونَه ، وجدَّدوا الأيمان فيما بينهم له .

وأما عَلَم الدّين سليمان بن جَندر ، وحُسَام الدّين طُمان بن غازي ، وأهلُ الحاضر ، فإنَّهم راسلوا «عمادَ الدّين» صاحب سنجار ، وكتموا أمرَهم ، و«شاذَبخت» هو الوالي بالقلعة ، والحافظ لخزانتها ، والمدبّر للأمور مع «النُّورية» ، فَسَيَّر إلى عَلَم الدّين سليمان ، وحُسام الدّين طمان ، وطلب منهما الموافقةَ في اليمين لعزّ الدّين ، فماطلا ، ودافعا ، فلما تأخَّر وصولُ «عمادِ الدّين» عليهما ، وافقا على اليمين لعزّ الدّين .

ولما وَصَل رسولُ الأمير إلى عزّ الدّين ، سار هو ومجدُ الدّين قايماز إلى الفرات ، فنزل على «البيرة» ، ووصل شهابُ الدّين ـ أخو عماد الدّين ـ مختفياً ـ واجتمع بُطمان وابن جندر ، وأعلمهما أن «عماد الدّين» في بعضِ

١ ـ في محلة الفرافرة تحت القلعة . انظر الآثار الإسلامية ص ٣٢١ .

الطَّريق ، فأخبروه بأخذ اليَمينِ عليهم ، وأنَّ تربّصه بالحركة أحوجَهم إلى ذلك ، فعادَ إليه أخوه وعرَّفه ، فعاد إلى بلاده .

وأمَّا «عزُّ الدّين» ، فحين وصل إلى «البيرة» أرسل إلى الأُمراء الَّذين بحلب ، واستدعاهم إليه . فخرجوا والتقوه «بالبيرة» ، وساروا معه إلى حلب ، ودخَلها في العشرين من شعبان ، واستقبله مقدّموها ورؤساؤها ، وصعد إلى القلعة .

وكان «تقيُّ الدّين عُمَرُ» ـ ابنُ أخي المَلك النَّاصر ـ بمنبج ، فعزم على أن يحولَ بين «عزّ الدّين» وحلب ، حين وصل إلى «البيرة» لأنَّه وَصَل جريدةً ، وتخلَّف عنهم الغلمانُ والحشدُ ، ثم إنه تثاقَل هو وأصحابه عن ذلك .

ولما وَصَل «عزُّ الدّين» إلى حلب ، سار تقيُّ الدّين من منبج إلى حماة ، وثار أهل حماة ، ونادَوا بشعار «عزِّ الدّين» ، فأشار عسكرُ حلب على عزِّ الدّين بِقَصْدِها ، وقَصْدِ دمشق ، وأطمعوه فيها وفي غَيرها من الشَّام ، وأعلموه مَحبّةَ أهل الشَّام لأهل بيته .

وكان «الملكُ النَّاصرُ» بالدّيار المصرية ، فلم يفعل ، وقال : «بيننا يَمين ، ولا نَغْدر به» ، ولما بلغ «الملك الناصرَ» أخذُ عزِّ الدّين حلبَ قال : «خَرَجَتْ حلبُ عَنْ أيدينا ، ولم يبقَ لنا فيها طمع» .

وأقام عزّ الدّين بحلب ، فسيّر إليه أخوه «عمادُ الدّين زنكي بن

مودود» ، وقال : «كيف تختصُّ أنتَ ببلاد عمي وابنه وبأمواله ، دوني ، وهذا أمرٌ لا صَبْر لي عنه» . وطلبَ منه تسليمَ حلب إليه ، وأن يأخُذَ منه «سنجار» عوضاً عنها .

فامتنع «عزُّ الدّين» ، ولم يجبه إلى ما أراد ، فأرسل إليه وهدَّده بأن يسلّم «سنجار» إلى «الملك النَّاصر» فيضايق الموصلَ بها ، فأشار عليه طائفة من الأمراء بأخذ «سنجار» منه واعطائه حلب ، وكان أشدّ الناس في ذلك «مجاهدُ الدّين» ، وهو الذي كان يتولَّى تدبيرَه ، وكان أمراء حلب لا يلتفتون إلى «مجاهد الدّين» ، ولا يسلكون معه ما يسلكهُ عسكرُ الموَصل ، فلذلك مَيَّل «عزّ الدّين» إلى ذلك .

وشرعَ «عزُّ الدّين» في المَيْل إلى الأمراء ، الَّذين حلفوا له أولاً ، والإعراض عن الَّذين مالوا إلى أخيه «عماد الدّين» ، وأحسنَ إلى أهل حلب ، وخَلَع عليهم ، وأجراهم عَلى عَادَتهم في أيَّام عمّه «نورِ الدّين» ، وابنه «الملك الصَّالح» ، وأبْقَى قاضيها والدي ، وخطيبَها عمّي ، ورئيسَها «صفيَّ الدّين طارقَ بن الطريرة» على ولاياتهم ، وولَّى بقلعة حلب «شهابَ الدّين اسحقَ بْنَ أميرك» الجاندار[1] ، صاحب الرَّقَّة ، وأبقي «شاذبخت» في القلعة ناظراً معه ؛ وولَّى مدينةَ حلب والديوانَ مظفرَ الدّين بن زين الدّين .

وكان الصُّلحْ قد انفسخَ ، بموت الملكِ الصّالح ، بين الفرنج والمسلمين ، وكانت «شيحُ الحَديد»[2] مناصفةً بين المسلمين والفرنج ،

١ ـ الجاندار : حافظ السلاح .
٢ ـ شيح الحديد قرية كبيرة في طرف العمق . بغية الطلب ص ٤٧٤ .

فأضافها عسكرُ حلب ، قبل وصولِ عزِّ الدّين إلى «الدّربساك»[1] ، واختصُّوا بها دونَ الفرنج ، وحَضَر أهلُها إلى طمان ، فأعطاهُم الأمان .

فلمّا وَصَلَ «عزُّ الدّين» ، سيّر العساكرَ إلى ناحية «حارم» ، وحاولوا نهبَ «العَمق» ، فانحازَ أهلُه كلُّهم إلى «شيح» لعلمهم بأنَّ «طماناً» أمَّنهم ، فأراد عسكرُ الموصل أن ينهبوها ، فقالَ لهم : «إنَّ شيح لحلب ، وإنَّهم في أماني» . فلم يلتفتوا إلى قوله ، وسار وَاليها لَيْلاً ، فسبقهم إلى «المخاض» ، ووقفَ في وجوههم يردّهم ، فقتلَ منهم جماعةً ، ثم تكاثروا وعَبَروا ، فسبقهم طمانُ إلى «شيح» ، وأمرهم أن يَجعلوا النساء في المغاير ودَرْبها .

فوصلَ عسكرُ الموصل ، فرأوا ذلك ، فعزموا على القتال ، فصاح طُمان : «إذا كنتم تخفرون ذمّتي ، فأنا أرحلُ إلى الفرنج» . وسار في أصحابه إلى أن قَرب من «يغرا» ، فوصله مَنْ أخبَرَهُ بأنَّهم عادُوا عنها ، ولم ينالوا منها طائلاً ، وخافوا من مَلامة عزِّ الدّين ، فعاد «طمان» ، ونزلَ كلّ منهم في خيامه «بحارم» .

وكاتَبَ المَوَاصلةُ «عزَّ الدّين» ، يَطْعَنُون على «طمان» ، وأنَّه وافق أهلَ «شيح» في العِصيان ، وأراد اللِّحاقَ بالفرنج ، فأحضر «طمانَ» والمواصلةَ ، وتقابلوا بين يَدَيْه ، فقال عزُّ الدّين : «الحق مع حسام الدّين ، ولا يجوز نقضُ العَهد لواحدٍ من المسلمين» . وكان ذلك في شهر رمضان من السَّنة .

---

١ ـ حصن الدربساك قريب من بغراس . بغية الطلب ص ١٥١ .

وبقيت المواحشةُ بين أمراء حلب والمَوَاصِلةِ ؛ والحلبيّون لا يَرَوْنَ التغاضيَ لمجاهد الدّين ، ومجاهدُ الدّين يحاولُ أن يكونوا معه كأمراء المَوْصل ، والأمراءُ الحلبيّون يمنّون عليه . بأنَّهم اختاروه لهذا الأمر ، ويطلبون منه الزِّيادة ، ويختلقُ المَوَاصلةُ عليهم الأكاذيبَ .

فهربَ الأميرُ علمُ الدّين سليمانُ بنُ جندر ، قاصداً «الملك النَّاصر» إلى مصر ، فقالوا لعزِّ الدّين : «إنَّ طماناً سيهرب بعده ، فأمَرَ عزَّ الدّين ، مظفَر بن زين الدين ، وبَني الغراف ، والجراحي وغيرهم أن يمدوا من «السَّعدي» إلى «المباركة» في طريقه ، وأن يقف جماعةٌ حول دار «طمان» ـ وكان يسكن خارجَ المدينة ـ .

فلما لم يجر من «طمان» شيَء من ذلك ، جاءوا إليه نصفَ اللَّيل ، وطلبوه ، فخرج إليهم ، فوجد ابنَ زين الدّين وبني الغراف ، فسألهم عمَّا يريدون ، فقالوا : «إنَّه أُنْهِيَ إلى عزِّ الدّين بأنَّك تريدُ الهربَ ، وقد أمَرنا بأن نعوقَك» فقال : «والله ما لهذا صحّة ، ولو أردتُ المسيرَ عَنْ حلب لَمَضَيْتُ ، لا على وَجْه الخِفْيَة ، ولا أخافُ من أحد» .

فجعلوا لهم طريقاً آخر إلى نَيْل غرضهم ، وأصبحوا ، وَعزّ الدّين منتظرٌ ما يكون ، فقالوا له : «كان قد عزم على الهرب ، فلما علم أنَّ الطريق قد أُخذ عليه ، وأن الدَّار قد أُحيط بها أخَّرَ ذلك إلى وقت ينتهزُ فيه الفرصةَ ، والمصلحةُ قبضةُ قبل هَرَبه» . فَأمَرَهُم بأن يقبضوه مُحْترَماً ، ويُحضروه إليه .

فجاؤوه ليلاً ، مِنْ أعلى الدَّار وأسفلِها ، وأزعجوه ، وكانَ نائماً ،

فخرج إلى الباب ، فوجد مظفَّر الدّين بن زين الدّين مع بني الغراف ، فقالوا له : «إنَّ المَوْلى عزَّ الدّين قد أمَرنا بالقبْض عليكَ» . فقال لهم : «السمع والطاعة ، فشأنكم وما أُمِرْتُم به» ؛ فَأرْكَبوه ، وحَمَلُوه ، والرجالُ محيطةٌ به ، وفتحوا باللَّيل بابَ القلعة ، واعتقلوهُ بها غيرَ مضيّق عليه .

وأحضره «عزُّ الدّين» ، ووانَسَه وقال : «لم أفعلْ ما فعلتُ إلاَّ لشدَّة رغبتي فيك ، وافتقاري إلى مثلك» ؛ فعرَّفه ما ينطوي عليه ، وأنَّ ما نُقل عنه لم يَخْطُر بباله . فقال : «إنَّ وقيعةَ أعدائِك فيك ، لم تَزِدْك عِندي إلاَّ حظوة» .

وبقي مُعْتَقلاً في القلعة أسبوعاً ، ثُمَّ خَلَع عليه ، وأطلقه وزاد في أقطاعه «الأخْتَرين»[1] .

وأقام «عزُّ الدّين» حتَّى انقضَت مُدَّةُ الشِّتاء ، ثم تزوَّج أُمَّ الملك الصالح ، في خامس شوّال من السنة ، ثم سيَّرها إلى المَوْصل ، واستولى على جميع الخَزَائن التي كانت لنور الدّين وولدِه بقلعة حلب ، وما كان فيها من السّلاح ، والزرد ، والقسيِّ ، والخُوَذِ ، والبركسطوناتِ[2] ، والنشَّاب ، والآلات ، ولم يترك فيها إلاَّ شيئاً يسيراً من السّلاح العتيق ، وسيَّر ذلك كلَّه إلى «الرَّقَّة» .

وتَرَك في قلعة حلب ولدَه نورَ الدّين محموداً طفلاً صغيراً ، وردّ أمرَه

١ ـ الأخترين مركز ناحية تابعة لقضاء عزاز في محافظة حلب ، وتبعد عن حلب مسافة ٤٥ كم .
٢ ـ البركسطونات : دروع الفرسان أو الحيوانات في الحرب .

إلى الوالي بالقلعة : شهابَ الدّين اسحق ، وسلَّم البلدَ والعسكرَ إلى مظفَّر الدّين بن زين الدّين ، وسار إلى الرقَّة ، سادس عشر شوَّال ، فأقام بها فصلَ الرَّبيع .

وراسلَ أخاه «عمادَ الدّين» ، في المُقَايضة «بسنجار» ، ليتوفَّر على حِفْظ بلاده ، ويضمّ بعضها إلى بعض ، ولعلمه أنَّه يحتاجُ إلى الإقامة بالشَّام ، لتعلَّق أطماع «الملك النَّاصر» بحلب ، وقَدِمَ عليه أخوه . واستقرَّت المُقَايَضةُ على ذلك ، وتحالفا على أن تكون حلبُ وأعمالُها لِعماد الدّين و «سنجار» وأعمالُها لعزِّ الدين ، وأنَّ كل واحدٍ منهما يُنْجد صاحبَه ، وَأنْ يكون «طمانُ» مع عماد الدّين ، فسيّر «طمانَ» ، وصعدَ إلى قلعة حلب ، وكان معهم علامةٌ من عزِّ الدّين ، فتسلَّمها ، وسَيَّر عزُّ الدّين مَنْ تسلَّم سنجار .

وفي حالِ طلوع «طمان» ، ونَقْلِ الوالي متاعَه ، طَمِعَ «مُظَفَّرُ الدّين بن زين الدين» بأن يملك القلعة ، ووافَقه جماعةٌ من الحلبيين كانوا بقربه ، في الدّار المعروفة بشمسِ الدّين عليّ بن الدّاية وجماعةٌ من الأجناد ، ولَبِسَ هو زَرَدِيَّةً ، تحتَ قِبائه ، وألبسَ جماعةً مِنْ أصحابه الزَّردَ تحتَ الثِّياب ، ومع كلّ واحد منهم سيفٌ ، وأرسل إلى شهاب الدّين ، وقال له : «إنَّه وَصَلني كتابٌ من أتابك عز الدّين ، وأمرني أن أطلع في جماعة إليك» ، فأمرَه بالصُّعود .

وكانَ «جمالُ الدّين شاذبخت» ، في حوش القلعة الشرقي ، الَّذي

هَدَمه الملكُ العادلُ ـ وكان بَيْنَ الجِسْرَيْن اللَّذين جدَّدهما السلطانُ الملكُ الظاهر ـ رحمه الله ـ وعَمل مكان ذلك الحوش بغلة[1] ـ فرأى الجندَ مجتمعين تحتَ القلعة ، فَسَيَّر «شاذبخت» ، وأحضرَ بوَّاباً كانَ للقلعة ، يُقال له «عليّ بن منيعة» وكان جلداً يقظاً ، وأمرَه بالاحتراز .

فلما أراد أن يدخُلَ من بابِ القلعة ، تقدَّم إليه ، وقال له : «لا تدخلْ إلَّا أنتَ وحدَك» . وكان في ركابه جماعةٌ فمنعوهم ، فلم يتمّ له ما أراد .

وعادَ ابنُ زين الدّين إلى داره ، وقيل أنَّ ابنَ مقبل الإسباسلار ، قال له : «أنتَ تَصْعَدُ إلى القلعة ، فما هَذا الزَّردُ عليك ؟» فعاد ، وجَعل يعتذرُ عمَّا شاع في النَّاس مِنْ فعله .

وكتبَ شهابُ الدّين الوالي وجمالُ الدّين شاذبخت إلى عزِّ الدّين كتاباً بخطِّ «حسين بن يلدَك» ، إمام «المقام» . وأخذ تحته خطوطَ الأجناد ، والنقيب ، والاسباسلار . فلم يمكن «عزّ الدّين» مكاشفته في ذلك ، لقرب «الملك النَّاصر» من البلاد .

وبعثَ «مظفَّرُ الدّين» إلى «عزِّالدين» يعتذرُ ، ويقول : «إنَّ الاسماعيليّة أوعدوني القتل ، وما أمكنني إلَّا الاحتزاز بالسّلاح ، أنا ، ومَنْ معي ، وأنكَرَ الحَفَظَةُ بالقلعة ذلك عليَّ ، ولم يكن ذلك لأمرٍ غيرِ ما ذَكَرْتُه» . فلم يقابلْهُ على ذلك .

---

١ ـ البغلة دعامة تبنى للجدار الواهي وتحشي الأساس لتقيه من السقوط . موسوعة حلب المقارنة للأسدي ط . حلب ـ مطبعة جامعة حلب .

وأما «طمان» ، فإنه قبَضَ عَلَى الجَمَاعةِ الَّذين كانوا معه ، وحبَسَهم في القلعة ، واطَّلع على ما كانوا أضمروه ، وأطلقهم في اليوم الثاني ، وسَتَر هذا الأمرَ .

ثم وَصَل قطبُ الدّين ابنُ عماد الدّين إلى حلب ، ثم ورَدَ أبوه «عماد الدّين» ، فوصل بأهله ، وماله ، وأجناده ، وزوجته بنت نور الدّين . ووصل على البريّة من جهة «الأحصّ»[1] ، والتقاه الأكابرُ مِنَ الحَلبيينّ ، وصعد إلى قلعة حلب ، في ثالث عشر المحرَّم ، من سنة ثمان وسَبعين وخمسمائة ، وقيل في مستهلّه .

وولّى القلعةَ «عبدَ الصَّمد بن الحكَّاك المَوْصليِّ» ؛ والعسكرُ ، والخزائنُ ، والنظرُ في أحوال القلعة إلى مجاهد الدّين بزْغش ، وأنزلَ «شاذبخت» مِن القلعة ، والقضاءُ ، والخطابةُ ، والرئاسةُ ، على ما كان عليه ، في أيَّام أخيه وابنِ عمّه .

وولَّى الوزارةَ «بهاءَ الدّين أبا الفتح نصرَ بن محمَّد بن القَيْسرانيّ» ، أخا «موفَّق الدّين خالد» ـ وزيرَ نور الدّين ـ واستمرَّ الشِّيعَةُ في أيّامه ، وأيّام أخيه ، على قَاعدتهم ، الَّتي أقَرَّهم عليها «الملكُ الصَّالح» ، مِنْ إقامة شِعَارهم بالشرقيّة ، بالمسجد الجامع .

---

١ ـ كانت الأحص كورة كبيرة من كور حلب قصبتها خناصره . معجم البلدان ، هذا ونقل ابن العديم في ترجمته لزنكي الثاني ـ بغية الطلب ص ٣٨٥٧ ـ ٣٨٦٤ وصف دخوله إلى حلب عن عمه ووالده .

وأبقى «سرخك» في حارم على ما كان عليه . وحكم «شاذبخت» في عَزَاز وقلعتها ـ وهو وكيلٌ عن ابنةِ نور الدّين التي أطلقها الملكُ النَّاصرُ لها ـ وصالحَ الفرنجَ .

وجرى في الاحسان إلى أهل حلب ، على قاعدة عمّه وابن عمه وأخيه ، ولما بلغَ الملكَ النَّاصرَ حديثُ حلب وأخذُ عمادالدّين إياها ، قال : «أخَذْنا والله حلبَ» ، فقيل له : «كيفَ قلتَ في عزِّالدّين لما أخذها : خَرجَت حلب عَنْ أيدينا ، وقلتَ : حينَ أخَذَها عمادالدّين : أخَذْنا حلبَ ؟» فقال : «لأنَّ عزَّ الدّين ملكٌ صاحبُ رجالٍ ومالٍ ، وعماد الدّين ، لا مال ولا رجال» !

وخرج «الملك النَّاصر» ، مِنْ مصر في خامس المحَّرم من هذه السَّنة ، وخرج الناسُ يودّعونه ، ويسيرون معه ويتأسّفون على فِرَاقه ، وكان معه معلِّمٌ لبعض أولاده فالتفتَ إلى بعض الحاضرين ، وأنشد :

تَمَتَّعْ مِنْ شَميم عَرارِ «نَجْدٍ» فَمَا بَعْد العَشِيَّةِ مِنْ عَرارِ

فانقبضَ السُّلطانُ ، وتَطيّر ، فقُدِّر أنَّه لم يَعُد إلى مصر ، إلى أن مات ، مع طول مدّته ، واتّساع مُلكه في غيرها .

وسار على «أيلة» وأغار على بلاد الفرنج في طريقه ، ووصل دمشق في صفر ، ثم خرج منها إلى ناحية «الغَوْر» ، فأغار على ناحية «طبريّة» و «بَيْسان» ، وعاد إلى دمشق ، ثم خرج إلى «بيروت» ، ونازَلها ، واجتمع الفرنجُ فرحّلوه عنها . فدخل إلى دمشق ، وبلغه أنَّ المَواصلة كاتبوا الفرنجَ

على قتاله ، فجعلَ ذلكَ حُجَّةً عليهم .

وسارَ حتّى نزلَ على حلب ، في ثامن عشر من جُمادى الأولى ، سنة ثمان وسبعين وخمسمائة . ونَزل على «عين أشمونيث»[١] ، وامتد عسكرُه حولَها شرقاً ، وأقام ثلاثة أيّام ، فقال له عمادُ الدّين : «امضِ إلى سنجار ، وخُذْها وادفعْها إليَّ ، وأنا أُعطيكَ حلب» .

وكان «عمادُ الدين» قد ندِم على مقايَضة أخيه بحلب وسنجار ، حيث وَصَل ووَجَد خَزائنَها صِفْراً من المال ، وقلعتَها خاليةً من العُدَد والسِّلاح والآلات ، وأنَّه يجاور مثل «الملك الناصر» فيها .

فعند ذلك سار «الملك الناصر» إلى جسر «البيرة» ، وكان صاحبها «شهابُ الدّين بْنُ أُرتق» قد صار في طاعته ، فعَبَر إليه مظفَّرُ الدّين بن زين الدّين إلى الناحية الشَّاميّة ، وحرَّان ، إذ ذاك في يده ، كان أقطعه إياها عزُّ الدّين صاحبُ الموصل ، وحَصَلتْ بينه وبينه وحشةٌ من الوَقت الَّذي عَزَم فيه على أخذ قلعة حلب ، فكانتْ رسلُه تتردَّدُ إلى «الملك الناصر» ، تطمعه في البلاد ، وتحثُّه على الوصول .

وعادَ ابنُ زين الدّين معه حتى عبَر الفُرات في جسر «البيرة» ، وكان «عزُّ الدّين» قد وصلَ بعساكر المَوصل إلى «دارا»[٢] ، ليمنع «الملك النَّاصرَ» من

١ ـ تعرف أيضاً باسم عين اشمول ، ذكرها ابن الشحنه ص ٢٤٥ بين منتزهات حلب .
٢ ـ دارا مدينة في لحف جبل بين ماردين ونصيبين ذات بساتين ومياه جارية . الأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ص ٧٩٢ .

حلب ، فلما عبر الفراتَ عاد إلى الموصل ، وعبرَ «الملكُ النَّاصرُ» ، فأخذ «الرّها» من ابن الزعفراني ، وسلَّمها إلى ابنِ زين الدّين ، وأخذَ الرَّقَّة من ابن حسّان ، ودفعها إلى ابن الزَّعفراني ، وكاتبَ ملوكَ الشّرق ، فأطاعوه ، وقَصَد «نصيبين» ، فأخذها .

وسار إلى المَوصل ، وفيها عسكرٌ قويٌّ ، فقُوتل قتالاً شديداً ، ولم يظفر منها بطائل ، فرَحَل عنها إلى «سنجار» ، فأنفذَ «مجاهدُ الدّين» إليها عسكراً ، فمنعه «الملكُ النَّاصرُ» من الوصول ، وحاصرَ «سنجار» ، فسلّمها إليه أميرٌ من الأكراد الزرزارية ، وكان في برجٍ من أبراجها ، فسلَّم إليه تلك النَّاحية ، وصارت «الباشورة»[1] معه ، فضعفت نفسُ واليها «أمير أميران» أخي عزِّ الدّين ، فسلَّمها بالأمان ، في ثاني شهر رمضان من السَّنة وقرّر «الملكُ النَّاصرُ» أمورَها ، وعادَ إلى حَرَّان .

ولما قصدَ «الملكُ النَّاصرُ» البلادَ الشرقيَّةَ ، رأى عمادُ الدّين أن يخرّب المعاقلَ المطيفةَ ببلد حلب ، فشنَّ الغارات على شاطىء الفرات ، وهدم حصن بالس ، وحصر قليعة نادر[2] ففتحها ، ثم هدمها بعد ذلك ، وأغار على قرى الشطِّ ، فأخربها واستاق مواشيها ، وأحرق جسر «قلعة جعبر»[3] .

ثم وصل إلى «منبج» وقاتلها ، وأغار على بلدها ، ووصلت الغارة إلى

١ ـ باشورة كل قلعة مدخلها .
٢ ـ على مقربة من بالس انظر الأعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ٢ ص ٢٥ .
٣ ـ في بغية الطلب ص ٣٨٥٨ : «فخرب عزاز وحصن بزاعا وحصن بالس وحصن كفرلاثا» .

«قلعة نجم»[١] ، وعبر الفرات ، فأغار على «سروج»[٢] .

ثم عاد إلى حلب ؛ ثم خرج وهَدَم «حصن الكرزين»[٣] وخرب حصن «بزاعَا» وقلعة «عزاز» ، في جمادى الآخرة ، وخرب حصن «كفرلاثا»[٤] بعد أخذه من صاحبه بكمش ، وكان قد استأمن إلى «الملك الناصر» ، وضاق الحال عليه ، فشرع في قطع جامكية أجناد من القلعة ، وقتّر على نفسه في النفقات .

وأما «الملك النّاصرُ» ، فرحل من «حرّان» فنزل «بحرزم»[٥] تحت قلعة ماردين . فلم يرَ له فيها طمعاً ، فسار إلى «آمد» ، في ذي الحجّة ، وكان قد وعد «نور الدين محمد بن قرا أرسلان» بأخذها من ابن نيسان ، وتسليمها إليه ، وحلف له على ذلك ، فتسلّمها في العشر الأول ، من المحّرم من سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، وكان فيها من المال شيء عظيم ، فسلّم ذلك كلّه مع البلد إلى نور الدّين ، وقيل له في أخذ الأموال وتسليم البلد ، فقال : «ما كنتُ لأُعطيه الأصلَ وأبخل بالفرع» .

ثم إنَّ الملك الناصر عبر إلى الشَّام ، فمرَّ «بتلّ خَالد» فحصرها ،

١ ـ قلعة مطلة على الفرات قرب جسر منبج . الأعلاق ـ قسم الجزيرة ـ ص ٨٢٦ .
٢ ـ سروج بلدة قريبة من حران من ديار مضر . معجم البلدان .
٣ ـ في منطقة منبج قرية اسمها «كرسان» فلعلها الموقع المقصود .
٤ ـ كفرلاثة من قرى منطقة أريحا في محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ٢٠ كم .
٥ ـ بليدة بين ماردين ودنيسر من أعمال الجزيرة . معجم البلدان .

فسلَّمها أهلُها بالأمان في المحّرم . ثم سار منها إلى عين تاب ، وبها «ناصر الدّين محمد» أخو «الشَّيخ اسماعيل الخزندار» ، فدخل في طاعته ، فأبقاها عليه .

ولَمَّا علم «عمادُ الدّين» ذلك ، وتحقَّق قصدَه لحلب ، أخذَ رهائن الحلبيينّ ، وأصعدَ جماعةً من أولادهم وأقاربهم ، خوفاً من تسليم البلد ، وقَسَم الأبراجَ والأبوابَ على جماعةٍ من الأمراء ، وكان الأمراء «الياروقية» بها في شوكتهم .

وجاء الملكُ النّاصرُ ، ونَزَل على حلب في السَّادس والعشرين من محرّم سنة تسع وسبعين وخمسمائة . وامتدّ عسكره من «بابلَّى» إلى النَّهر ممّتداً إلى «باسلين»[1] ، ونزل هو على «الخناقيّة»[2] ، وقاتل عسكر حلب قتالاً عظيماً ، في ذلك اليوم ، وأسر «حسامَ الدّين محمود بن الختلو» ، بالقرب من «بانقوسا»[3] ، وهو الذي تولى شِحْنَكِية حلب ، فيما بعد .

وهجمَ تاجُ الملوك بُوري بْنُ أيّوب ، أخو «الملك النَّاصر» ، على عسكر حلب ، فَضُرِب بنشَّاب زنبورك[4] فأصابَ ركبتَه ، فوقع في الأكحل ، فبقي

---

١ ـ بابلى وباسلين من منتزهات حلب . انظر الأعلاق ـ قسم حلب ـ ج ١ ص ٣٦٧ ، ٣٧١ .
٢ ـ من منتزهات حلب . ابن الشحنه ص ٢٤٦ .
٣ ـ عد ابن الشحنة ص ٢٣٧ بانقوسا بين حارات حلب خارج الأسوار .
٤ ـ من أنواع النشاب المرمي بواسطة النوابض ، ومعروف أن الأسلحة تطورت كثيراً في هذه الحقبة .

أيَّاماً ، وماتَ بعد فتح حلب ، ودُفن بتربة «شِهاب الدّين الحارميّ» ، «بالمقام»[١] ثم نقل إلى دمشق .

وجدّ الملكُ الناصرُ ، بسبب أخيه على محاصرة حلب أياماً ، فاجتمع[٢] إليه الأجنادُ من العسكر والرّجال ، وطلبوا منه قرارَهم فَمطَلهم ، فقالوا : «قد ذهبتْ أخبازنا[٣] ، ونحتاجُ لغلاء الأسعار إلى ما لابدّ منه» ، وشَحّ بماله ، فقال لهم : «أنتم تعلمون حالي ، وقلَّة مالي ، وأنني تسلَّمتُ حلب صِفْراً من الأموال ، وضياعُها في أقطاعِكم» . فقال له بعضهم : «مَنْ يريد حلبَ يحتاجُ إلى أن يُخْرِجَ الأموالَ ولو بَاع حليَ نسائه» ؛ فأحضر أوانيَ من الذَّهب والفضَّة ، وغيرها ؛ وباع ذلك ، وأنفقه فيهم .

وكان الحلبيّون يخرجون على جاري عادتهم ، ويقاتلون أشدَّ قتال بغَيْر جَامِكيّة[٤] ، ولا قَرَار ، نخوةً على البلد ، ومحبّة لملكهم ، فأفكر عمادُ الدّين ، ورأى أنه لا قِبَل له بالملك النَّاصر ، وأنَّ ماله ينفد ، ولا يُفيده شيئاً ، فخلا ليلةً بطهان ، وقال له :

«ما عندك في أمرنا ؟ هذا الملكُ النَّاصرُ ، قد نَزَل محاصراً لنا ، وهو ملكٌ قويّ ، ذو مال ، والظَّاهر أنَّه يطيلُ الحصارَ ، وتعلمُ أنَّني أخَذْتُ حلبَ

١ - مقام إبراهيم الخليل داخل القلعة .
٢ - الضمير يعود هنا إلى زنكي الثاني ، فقد طالبه الجند بالرواتب المقررة لهم مع التعويضات .
٣ - الخبز الراتب .
٤ - أي بدون نفقات ومرتبات .

خاليةً من الخزائن ، والجند فيطالبونني وليس لي من المال ما يكفيني لمصابرته ، ولا أدري عاقبةَ هَذا الأمر إلى ما ينتهي» .

فأحسَّ طمان عند ذلك بما قد حصل في نفسه ، فقال له : «أنا أذكر لك ما عندي ، على شريطة الكتمان والاحتياط بالمواثيق والأيْمَان ، على أن لا يطَّلع أحدٌ عَلى ما يدورُ بيننا ، فإنَّ هؤلاء الأمراء إنْ اطَّلعوا على شيء ممَّا نحن فيه أفسدوه ، وانعكسَ الغَرض» ، فتحالفا على كِتمان ذلك ، فقال له طمان : «أرى من الرأي في حلب أن تسلِّمها إلى المَلك النَّاصر ، بجاهها ، وحرمتها ، قبل أن تنتهكَ حرمتُها ، ويضعفَ أمرُها ، وتَفنى الأموالُ ، وتضجرُ الرجالُ ، ويستغلّ بلدَها فيتقوّى هو وعسكرُه به ، ونحنُ لا نزدادُ إلاَّ ضعفاً ، والآن فنحن عندنا قوةٌ ، ونأخذُ منه ما نريدُ من الأموال والبلاد ، ونستريحُ من الأجناد وإلحاحهم في الطَّلب ، ثمَّ قد أصبح مَلِكاً عظيماً ، وهو صاحب مصر ، وأكثرُ الشَّام ، وملوكُ الشَّرق قد أطاعوه ومعظمُ الجَزيرة في يده» .

فقال له : «والله هَذا الَّذي قلتَه كلُّه رأيي ، وهو الذي وقع لي ، فاخرجْ إليه ، وتحدَّثْ معه على أن يعطيَني : الخابورَ ، وسنجارَ ؛ وأيَّ شيء قدرتَ على أن تزدادَه فافعلْ ، واطلب الرَّقَّة لنفسك» .

ثم إنَّ طُمان كتمَ ذلك الأمرَ ، وباكرَ القتالَ ، وأظهرَ أنَّ بداره واصطبله «بالحاضر» خشباً عظيماً ، وأنه يريد نقضَها ، كيلا يحرقَها العسكر، فكان يبيتُ كلَّ ليلة في داره، خارجَ المدينة. ويجتمع بالسُّلطان

الملكِ النَّاصرِ ، خالياً ، ويرتِّبُ الأمورَ معه ، ويجيءُ إلى عمادِ الدّين ويقرّرُ الحالَ معه ، وينزلُ ، ويصعدُ إلى القلعة من «بُرْجِ المِنْشار» ـ وكان عند باب الجبل الآن متّصلاً بالمنشار ـ إلى أن قَرَّر مع المَلكِ النَّاصر : أنْ يأخذَ حلبَ وعملَها ، ولا يأخذَ معها شيئاً من أموالها ، وذَخائرِها ، وجميعَ ما فيها من الآلات والسّلاح ، وأن يُعطيَ عمادَ الدّين عوضاً عنها : سنجارَ ، والخابورَ ، ونَصيبين ، وسروج ، وأن يكون لِطُهان الرَّقَّة[1] ؛ ويكون مع عماد الدّين .

وشَرَطَ عليه أن تكونَ الخَطابة والقَضاءُ للحنفيّة[2] بحلب ، في بني العَديم ، على ما هي عليه ، كما كان في دولة المَلك الصَّالح ، وأن لا ينقل إلى الشافعيّة .

هذا كلُّه يتقرّرُ ، والقتالُ في كلّ يوم بَيْنَ العسكريْن على حاله . ولَيْسَ عِنْد الطائفتيْن علمٌ بما يجري ، ويخرجُ من الحلبيّن في كلّ يوم عشرة آلاف مقاتل أو أكثر ، يقاتلون أشدّ قتال .

ولم يَعلْم أحدٌ من الأُمراء ولا مِنْ أهلِ البلد ، حتَّى صَعدتْ أعلامُ «الملك النَّاصر» على القلعة ، بعد أن تَوَثَّق كلٌّ واحدٍ من المَلِكَيْن مِنْ صاحبه بالأيْمان . فَأُسْقِطَ في أيدي أهلِ حلب والأمراء من «الياروقيّة» ، وغيرهم ،

١ ـ في بغية الطلب ص ٣٨٥٨ «وأن يعوضه عنها بسنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وأن تكون بصرى لطهان ، ويكون في خدمة زنكي» .

٢ ـ كان صلاح الدين شافعياً .

وخاف «الياروقيّة» على أخبازهم ، والحلبيّون على أنفسِهم ، لِمَا تكرَّر مِنْهم من قِتالِ «الملكِ النَّاصر» على القلعة ، بعد أن تَوَثَّق كلٌّ واحدٍ ، في أيّام الملك الصَّالح .

وصرّحَ العوامُّ بسبّه ، وحَمَلَ رجلٌ من الحلبّين يقال له «سيف بن المؤذن» إجانة الغسّال ، وصارَ بها إلى تحت الطيَّارة[1] بالقلعة ، وعمادُ الدّين جالسٌ بها يشير إليه أن يغسلَ فيها كالمخانيث ، ونادى إليه : «يا عماد الدّين ، نحنُ كنَّا نقاتلُ بلا جَامِكِيّة ولا جرايَة ، فما حَمَلك على أنْ فَعَلْتَ ما فعلتَ ؟» .

وقيل : إنَّ بعضهم رماه بالنشَّاب فوقَع في وسط الطيَّارة ، وعمل عوامّ حلب أشعاراً عاميّة ، كانوا يغنّون بها ، ويدقُّون على طبيلاتهم بها ، منها :

أحباب قلبي لا تلُوموني هٰذا «عمادُ الدّين» مجنون

ودقَّ آخر على طبله ، وقال مُشيراً إلى «عِمَادَ الدّين» :

وبعت «بسنجار» قلعة حلب عدمتك من بايع مُشتري
خريتَ على حَلَبٍ خِرْيَةً نَسَخْتَ بها خرية «الأشْعَري»[2]

وصَعد إليه «صفيُّ الدِّين» ـ رئيسُ البلد ـ ووبّخه على ما فعل ، وهو

---

١ ـ امتداد مسقوف لقاعة مشرفة على الشارع يطل منه الحاكم فيرى ما يجري بالخارج دون أن يرى وهو بالوقت نفسه متمتع بالحماية .
٢ ـ لعله أراد أبا موسى الأشعرى وما راج بين الناس عن موقفه في التحكيم .

في قلعة حلب لم يخرج منها بعد ، فقال له عمادُ الدّين : فما فات ، فاستهزأ به[١] .

وأنفذ عسكرُ حلب وأهلُها ، إلى السُلطان الملك النَّاصر :

عزَّ الدّين جورديك ، وزينَ الدّين بلك ، فاستحلفوه للعسكر ولأهْل البَلد ، في سابع عشر صفر ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وخرجَت العساكرُ ومقدّمو حلب إليه الى «الميدان الأخضر»[٢] وخلَعَ عليهم ، وطيَّب قلوبَهم .

ولما استقرَّ أمرُ الصُّلح ، حضرَ الملكُ النَّاصرُ صلاحُ الدّين عند أخيه تاج الملوك ، «بالخناقية» يَعُودُه وقال له : «هٰذه حلب ، قد أخذناها ، وهي لك» فقال : «لو كانَ وأنا حيٌّ ، ووالله ، لقد أخذتَها غاليةً حيثُ تفقدُ مثلي» . فبكى الملكُ النَّاصرُ والحاضرون .

وأقام «عمادُ الدّين» بالقلعة ، يقضي أشغاله ، وينقلُ أقمشتَه ، وخزائنَه ، والسلطانُ الملكُ النَّاصرُ مقيمٌ «بالميدان الأخضر» ، إلى يوم

---

١ ـ عبارة بغية الطلب ص ٣٨٦٠ أقوم وأوضح قوله : «ووبخه على ذلك ، فقال وهو بالقلعة : لم نخرج منها بعد ، فما فات شيء ، فاستهزأ به» .

٢ ـ خارج أسوار المدينة . الأعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ١ ص ٦٦ ، ٣٩٦ .

الخميس ثالث وعشرين من صفر ، فَنزل «عمادُ الدّين» من القلعة ورتَّب فيها «طُمان» مقيماً بها ، إلى أن يتسلَّم نوابُ «عِماد الدّين» ما اعتاضَ به عن حلب ، واستنابه في بيع جميع ما كان في قلعة حلب ، حتى باع الأغلاقَ والخوابيَ ، واشترى الملكُ النَّاصرُ منها شيئاً كثيراً .

[عصر الدولة الأيوبية][1]

ونزلَ عمادُ الدّين ، في ذلك اليوم إلى السُّلطان الملك النَّاصر وعمل له السُّلطان وليمةً واحتفل وقدَّم «لعماد الدّين» أشياء فاخرة من الخَيل والعُدَد ، والمَتاع الفاخر ، وهم في ذلك إذ جاءه بعضُ أصحابه وأسَرَّ إليه بموت أخيه «تاج الملوك» ، فلم يُظْهر جَزَعاً ولا هَلعاً ، وكتم ذلك عن عماد الدّين ، إلى أن انقضى المجلسُ ، وأمرهم بتجهيزه .

فلما انقضى أمرُ الدَّعوة وعلم عمادُ الدّين بعد ذلك عزَّاه عن أخيه ، وسار السُّلطانُ الملكُ النَّاصرُ معه مشيّعاً في ذلك اليوم ، فسار حتى نزل «مرج قراحصار»[2] فنزل به ، والسُّلطان في خيمته إلى أن وَصَل «عمادَ الدّين» رسلُ أصحابه يُخبرونه بأنَّهم تسلموا «سنجار» ، والمواضعَ التي تقرَّرت له معها ،

---

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح .
٢ ـ على نحو فرسخين من حلب في جهة المشرق . بغية الطلب ص ٣٨٦٢ .

فرُفِعَت أعلامُ الملك النَّاصر ، عند ذلك على القلعة ، وصعد إليها في يوم الاثنين السَّابع والعشرين ، من صفر ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وامتنع سرخك ، والي «حارم» ، مِنْ تسليمها إلى السُّلطان الملك النَّاصر ، فبذلَ له ما يحب من الإقطاع ، فاشتطَّ في الطَّلب ، وراسلَ الفرنجَ ، ليستنجدَ بهم ، فسمع بعضُ الأجناد ، بقلعة حارم ، ذلكَ ، فخافوا أن يسلّمها إلى الفرنج ، فوثبوا عليه ، وحَبسوه ، وأرسلوا إلى السُّلطان ، يُعْلِمُونَه بذلك ، ويطلبون منه الأمانَ والإنعام ، فأجابهم إلى ذلك وتسلَّمها .

وأقرَّ عين تاب بيد صاحبها ، وسلَّم «تلَّ خالد» إلى «بدر الدّين دلدرم» صاحبِ «تل باشر» ، وكان من كبار الياروقية ، وأقطع «عَزازَ» الأمير علَم الدين سليمان بن جندر . وولَّى الملكُ النَّاصرُ قلعةَ حلب سيف الدّين يازكج الأسدي ، وَوَلَّى شَحْنَكية حَلب حسامَ الدّين تميرك بن يونس ، وولَّى ديوانَ حلب ناصحَ الدّين بن العَميد الدمشقي ، وأبقى الرئيسَ «صفيَّ الدين طارق بن أبي غانم بن الطّريرة» ، في مَنْصِبه على حَاله ، وزاد إقطاعَه .

وكان الفقيه «عيسى» كثير التعصُّب ، فمازالَ به ، وعُزِل عنها عمّي «أبو المعالي» . ووليها «أبو البركات سعيد بن هاشم» ، وفعل في القضاء كذلك ، فسيَّر إلى القاضي محيي الدّين محمد بن زكيّ الدّين عليّ إلى دمشق ،

بسفارة «القاضي الفاضل» ، فأُحْضِر إلى حلب ووليّ قضاءها ، وعُزل «والدي» عن القضاء ، وامتدحه مُحيي الدّين بن الزَّكيّ ، بقصيدة بائيّة ، قال فيها :

وفتحكم «حَلَباً» بالسَّيْفِ في صَفَرٍ مُبَشِّرٌ بِفُتُوح «القُدْس» في رَجَب

فاتّفق مِنْ أحسن الإتفاقات ، وأعجبها ، فتحُ القدس في شهر رجب من سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة .

وأقام محيي الدّين في القَضاء بحلب مدّة ، ثم استناب القاضيَ زينَ الدّين أبا البيان نبأ بن البانياسي في قضاء حلب ، وسار إلى بلَدِه دمشق .

ثم إنَّ السُّلطانَ «الملك الناصرَ» أقام بحلب ، ورحل منها في الثاني والعشرين من ربيع الآخر ، من سنة تسع وخمسمائة . وجعل فيها ولدَه الملك «الظّاهرَ غازي» - وكان صبياً - وجعل تدبيرَ أمره إلى سيف الدّين يازكج .

وسار إلى دمشق ، ثمَّ خرج إلى الغَزاة في جُمادى الآخرة ، وسار إلى «بَيسان» ، وقد هَرَبَ أهلُها ، فخرَّبها ، ونهَبَها ؛ وخرَّب حِصْنَها . ثم سار إلى «عفربلا» ، فخرَّبها ، وجرَّد قطعةً من العسكر ، فخربوا «النَّاصرة» و«الفولة»[1] ، وما حولها من الضِّياع .

---

١ - الفولة قرية في قضاء الناصرة . معجم بلدان فلسطين لمحمد شراب ط . دمشق ١٩٨٧ . وانظر أيضاً وليم الصوري ص ١٠٦١ - ١٠٦٢ .

وجاء الفرنجُ فنزلوا «عَيْنَ الجالوت» ، ودار المُسلمون بهم ، وبثُّوا السَّرايا في ديارهم ، للغارة والنَّهب ، ووقع جورديك ، وجاولي الأسدي ، وجماعة من النُّورية على عسكر «الكرك» و«الشُّوبك» ، سائرين في نجدة الفرنج ، فقتلوا منهم مقتلةً عظيمة ، وأسَرُوا مائة نَفَرٍ ، وعادوا .

وجَرَى للمسلمين مع الفرنج وقعاتٌ ، ولم يَتَجاسَروا على الخُروج للمصاف ، وعاد السلطان «إلى الطُّور»[1] في سابع عشر جُمادى الآخرة . فنزَلَ تحت «الجبل» ، مترقباً رحيلَهم ، ليجد فرصة ، فأصبحوا ، ورحلوا راجعين على أعقابهم . ورحل نحوهم ، وناوشَهم العسكرُ الإسلاميُّ ، فلم يخرجوا إليهم ، والمسلمون حولهم ، حتى نزلوا «الفولة» راجعين ؛ وفرغت أزْوَادُ المُسلمين ، فعادوا إلى دمشق ، ودخل السُّلطان دمشق ، في رابع وعشرين جُمادى الآخرة .

ثم عزم على غزو «الكرك» ، فخرج إليها في رجب ، وكتب إلى أخيه «الملكِ العادل» ، وأمره أن يلتقيه إلى الكرَك ، وسار السُّلطان إلى الكرك ، وحاصرها ، ونَهبَ أعمالها ، وهجم رَبضها ، في رابع شعبان . وهدم سورَها بالمنجنيقات ، وأعجزَه طَمُّ خندقها ، ووصلت الفرنج لنجدتها فلما اجتمعوا «بالجليل» ، رحلَ عنها ، ونزل بازائها[2] .

---

١ ـ ويسمى أيضاً جبل طابور ، يقع شرقي الناصرة . معجم بلدان فلسطين .
٢ ـ انظر وليم الصوري ص ١٠٦٥ ـ ١٠٦٧ ، ١٠٦٩ ـ ١٠٧١ .

ووصل أخوه «الملك العادل» ، من مصر ، وعقد لابن أخيه «تقيّ الدّين عمر» ، على ولايتها ، فسار إليها في نصف شعبان .

وعاد السُّلْطَان الملكُ الناصرُ إلى دمشق ، والملكُ العادل أخوه معه ، فَعَقد له علَى ولاية حلب ، وسارَ إليها في ثاني شَهر رمضان ، فوصَلها ، وصعد قلعتها في يوم الجمعة ، ثاني وعشرين من شهر رمضان ، وخَرَج السُّلْطان الملكُ الظَّاهر منها ومعه «يازكج» ، فوصل إلى والده في شوّال .

ويقال إنَّ «الملك العادلَ» دفع إلى السُّلطان ، لأجل حلب ، ثلاثمائةَ ألف دينار مصريّة ، وقيل دُونَ ذلك ، وكان السُّلطان مُحتاجاً إليها لأجل الغَزاة ، فلذلك سلَّم إليه حلب ، وأخذَها مَنْ ولده .

ولما دخلها «الملكُ العالُ» ، ولَّى بقلعتها صارمَ الدّين بزغش ، وولَّى الدّيوان والأقطاع والجند ، واستهداء الأموال ، وشِحْنَكِيَّة البلد : «شجاعَ الدّين محمَّد بن بزغش البُصراوي» ، واستكتب الصَّنيعة ابن النحّال ـ وكان نصرانياً ـ فأسلم على يَدَيْه ، وولَّى وقوف الجامع فخر الدّين أحمد بن عبدالله بن القصري ، وأمره بتجديد المساجد الدَّاثرة بحلب ، والقيام بمصالحها ، وتوفير أوقافها عليها ، وان لا يتعرَّض لوقف المسجد الجامع ، بل

يوفِّر وقفه على مصالحه ، ولا يرفع إلى «الزَّردخاناه[١]» إلا ما فضل عن ذلك كلَّه ، وجدّد في أيامه مساجد متعدّدة كانت قد تهدَّمت .

ووقع في أيامه وقعة بين الحنفيّة والشافعيّة ، وصار بينهم جراح ، فصنع لهم الملك العادل دعوة في الميدان الأخضر ؛ وأصلح بين الفريقيْن ، وخلَع على الأكابر من الفقهاء والمدرّسين ، وهدم الحوشَ القبليّ الشَّرقيَّ الذي كان للقلعة ، وهو ما بين الجسرين تحت المركز ، ورأى أن يُسَفِّحَه ، فسفَّحه السُّلطان الملك الظَّاهر بعده ، وكتب عليه اسمَه بالسَّواد إلى أن غاب في أيام ابنه الملك العزيز فجُدّد ، وزالت الكتابة ، وبقي بعضُها .

ووصل رسولُ الخليفة شيخُ الشُّيوخ «صدرُ الدّين عبد الرّحيم بن اسماعيل» ، إلى السّلطان «الملك النّاصر» ، في الاصلاح بينه وبين عزّ الدّين ـ صاحب الموصل ـ وورد معه من الموصل القاضي مُحيي الدّين أبو حامد بن الشَّهرزوري ، الَّذي كان قاضي حلب ثم تولّى قضاء الموصل ، والقاضي بهاء الدين أبو المحاسن بن شدّاد ، الذي صار قاضي عسكر السلطان «الملك الناصر» ، وولي قضاء حلب في أيام ابنه الملك الظَّاهر ، ولم يتفق الصلح . بينهما[٢] .

١ ـ الزردخاناه : مستودع حفظ الأسلحة ، ويبدو من النص أنه كان يحفظ به ما فضل من دخل الأوقاف .

٢ ـ مكث ابن شداد لدى صلاح الدين وهو الذي ألف حوله كتاب المحاسن اليوسفية .

وحضرني حكايةٌ جرت لشيخ الشيوخ مع «مُحيي الدّين» ، في هذه السَّفرة ، وذلك أن شيخ الشيوخ كان قد وصل إلى السُّلطان «الملك النَّاصر» ، وهو محاصر للموصل ، ليصلح بينه وبين عزِّ الدّين ، في المحاصرة الأولى ، فلم يتَّفق الصلح ، واتَّهم أهلُ الموصل شيخَ الشُّيوخ بالميل مع «الملك النَّاصر» ، فعمل محيي الدّين فيه أبياتاً منها :

بُعِثْتَ رَسُولاً أمْ بُعِثْتَ مُحَرِّضاً عَلَى القَتْل تَسْتَجْلِي القتالَ وتَسْتَحْلي ؟

وقال فيها مخاطباً للإمام النَّاصر :

فلا تَغْتَررْ منه بِفَضْلِ تَنَمُّسٍ فما هٰكذا كَان «الجُنَيْدُ» ولا «الشّبلي»[1]

فبلغت الأبيات شيخَ الشيوخ .

فلما اجتمعا في هذه السفرة وتباسطا ، قال له شيخُ الشيوخ : «كيف تلك الأبيات التي عملتَها فيّ ؟» فغالطَه عنها ، فأقسم عليه بالله أن يُنْشِدَه إيَّاها، فذكرها له، حتى أنشدَه البيتَ الذي ذكرناه أوَّلاً، فقال: «والله لقد ظلمتَني ، وانني والله ، اجتهدتُ في الاصلاح فما اتَّفق» فأنشده تمامَها ، حتى بلغ إلى قَوله : «فما هكذا كان الجنيد ولا الشِّبلي» فقال : «والله لقد صدقتَ ، فما هكذا كان الجنيد ولا الشّبلي ، أدورُ على أبواب الملوكِ من باب هٰذا إلى باب هٰذا» .

ثمَّ إنَّ الرّسل ساروا عن غير زُبدة ، وتوجَّه الملكُ العادلُ من حلب في ذي الحجَّة ، وعَيَّد عند أخيه بدمشق ، ثم عاد إلى حلب .

١ ـ من أشهر أئمة الصوفية .

واهتمّ السُّلطان الملكُ النَّاصرُ ، في سنة ثمانين وخمسمائة ، لغزاة «الكرَك» ، فوصل إليه «نُور الدّين بن قرا أرسلان» ، واجتاز بحلب ، فأكرمه «الملك العادل» ، وأطلعه إلى قلعتها في صفر ، ثم رحل معه إلى دمشق ، فخرج السُّلطان ، والتقاه على عين الجر[1] ، «بالبقاع» ، ثم تقدَّم إلى دمشق وتجرد وتأهب للغزاة ، وخرج إلى «الكرك» ، واستحضر العساكر المصرية ، فوصل تقيّ الدّين ابن أخيه ، ومعه بيت الملك العادل ، وخزائنه ، فسيرهم إلى حلب .

ونازل الكرك ، وأحدقت العساكر بها ، وهجموا الربض ، وبينه وبين القلعة خندق وهما جميعاً على سطح جبل ، وسدّوا أكثر الخندق ، وقاربوا فتح الحصن ، وكانت للبرنس «أرناط» ، فكاتب مَن فيها الفرنجَ ، فوصلوا في جموعهم إلى موضع يعرف «بالواله»[2] ، فسيّر «الملك النَّاصر» الأثقال ، ورحل بعد أن هدم الحصن بالمنجنيقات .

ورحل عنها في جمادى الآخرة ، وأمر بعضَ العسكر فدخلوا إلى بلاد الفرنج ، فهجموا نابلس ، ونهبوها ، وخربوها ، واستنقذوا منها أسرى من المسلمين ، وفعلوا في «سَبَسْطِية»[3] و«جينين»[4] مثل ذلك ، وعادوا ودخلوا

١ ـ هي عنجر الحالية في لبنان على مقربة من الحدود السورية اللبنانية الحالية قبل بلدة شتورا .
٢ ـ لم يرد ذكر هذا الموقع في المعاجم العامة أو المتخصصة بفلسطين ، ويستفاد من وليم الصوري ص ١٠٧٠ ، أنه كان على أطراف البحر الميت .
٣ ـ سبسطية قرية في الشمال الغربي من مدينة نابلس على بعد مسافة ١٥ كم منها . معجم بلدان فلسطين .
٤ ـ تمثل مدينة جينين (جنين) الرأس الجنوبي للمثلث المتكون من مرج بني عامر . معجم بلدان فلسطين .

دمشق مع السلطان .

ووصل إليه «شيخ الشُّيوخ» بالخلع ، من الخليفة النَّاصر ، له ولأخيه «الملك العادل» ، ولابن عمّه ناصر الدّين[1] ، فلبسوها ، ثم خلع السّلطان ، بعد أيّام خلعته الواردة من الخليفة على نورالدّين بن قرا أرسلان .

وورد إليه رسول مظفّر الدّين بن زين الدّين ، يخبره أن عسكر «الموصل» ، وعسكر «قزل» نزلوا على «إربل» ، وأنهم نهبوا وأخربوا ، وأنَّه انتصر عليهم ، ويُشير عليه بقصد الموصل ، ويقوّي طمعَه ، وبذل له إذا سار إليها خمسين ألف دينار ، فعند ذلك هَادن الفرنجَ مدَّة .

ورحل من دمشق في ذي القعدة من سنة ثمانين ، فوصل حلب وأقام بها إلى أن خرجت السنة ، وسار منها إلى «حرّان» ، والتقاه مظفر الدين بالبيرة ، في المحرم سنة إحدى وثمانين ، وعاد معه إلى «حرّان» ، وطالبه بما بذل له من المال ، فأنكر ذلك فأحضر رسوله العلم بن ماهان ، فقابله على ذلك ، فأنكر ، فقبض عليه ، ووكّل به .

ثم أخذ منه مدينتي حَرَّان والرُّها، وأقام في الاعتقال إلى مستهل شهر ربيع الأول ، ثم أطلقه خوفاً من انحراف الناس عنه ، لأنهم علموا أنه الذي ملَّكه البلاد الجزرية ، وأعاد عليه «حرَّان» ، ووعده باعادة الرُها ، إذا عاد من سفرته ، فأعادهما عليه .

---

١ ـ ابن أسد الدين شيركوه ، وكان إقطاعه حمص .

وسار الملكُ النَّاصر إلى الموصل ، فوصل «بلد»[١] ، فنزلت إليه والدةُ عزِّ الدّين ، ومعها ابنة نور الدّين ، وغيرها من نساء بني أتابك ، يطلبن منه المصالحة ، والموافقة ، فردّهن خائبات ، ظنّاً منه أن «عزَّ الدّين» أرسلهنَّ عجزاً عن حفظ الموصل ؛ واعتذر بأعذار ندم عليها بعد ذلك .

ورحل ، حتّى صار بينه وبين الموصل مقدار فرسخ فكان يجري القتال بين العسكرين ، وبذل أهلُ الموصل نفوسهم في القتال لردّه النّساء ، وندم السّلطان على ردّهن ، وافتتح «تل عفر» ، فأعطاها عمادَ الدّين صاحب سنجار .

وأقام على حصار الموصل شهْرين ، ثمَّ رحل عنها ، وجاءه الخبر بموت شاه أرمن ، وكاتبه جماعةٌ من أهل خلاط ، فترك الموصل طمعاً في خلاط فاصطلح أهلُ خلاط مع البهلوان صاحب «أذربيجان» ، فنزل السُّلطان على «ميّافارقين» ، وكان صاحبها «قطب الدّين ايلغازي بن ألبي بن تمرتاش» ، وملك بعده حسام الدّين بولق أرسلان ، وهو طفل ، فطمع في أخذها ، ونازلها ، فتسلَّمها من واليها ، وزَوَّج بعضَ بنيه ببنت الخاتون بنت قرا أرسلان ، ثم عاد إلى الموصل عند إياسه من خلاط ، فوصل إلى «كفرزَمّار»[٢] ، في شعبان ، من سنة إحدى وثمانين ، فأقام بها مدَّة ، والرسل تتردَّد بينه وبين عزِّ الدّين .

١ ـ مدينة قديمة فوق الموصل على دجلة بينهما سبعة فراسخ . الأعلاق ـ قسم الجزيرة ـ ص ٧٦٨ .

٢ ـ كفر زمار : قرية من قرى الموصل : معجم البلدان .

فمرض السُّلطان بكفر زمار ، فسار عائداً إلى حرَّان ، وأتبعه عـزُّ الدين بالقاضي بهاء الدين بن شداد ، وبهاءُ الدّين الرّبيب ، رسولينْ إليه في موافقته على الخطبة والسكَّة ، وأن يكون معه عسكر من جهته ، وأن يسلم إليه «شهرزورّ»[1] ، وأعمالها ، وما وراء «الزّاب» .

واشتد مرضُ السُّلطان بحرَّان في شوّال ، وأيسَ منه ، وأرجف بموته ، ووصل إليه الملكُ العادل من حلب ، ومعه أطبَّاؤها ، واستدعى المقدَّمين من الأمراء من البلاد ، فوصلوا إليه . وعزم «الملكُ العادل» على استحلاف الناس لنفسه .

وسار ناصر الدين صاحب حمص طمعاً في ملك الشَّام ، وقيل انه اجتاز بحلب ، ففرَّق على أحداثها مالاً ، وسار إلى حمص ، وجرى من تقيّ الدّين بمصر حركات مَنْ يريد أن يستبدّ بالملك .

وتماثل السُّلطان ، وبلغه ذلك كلُّه ، وأُرْكِب ، فرآه الناس ، وفرحوا ، وابتنى داراً ظاهر «حرَّان» فجلس فيها حين عوفي ، فسمّيت «دار العافية» . ولما عوفي ردّ على مظفَّر الدّين «الرُّها» ، وأعطاه سنجقاً ، وأحضر رسولي الموصل ، وحلف لهما على ما تقرَّر في يوم عرفة .

وبلغه موتُ ابنِ عمّه ناصر الدّين ، صاحبِ حمص ، ورَحَل عن حرّان إلى حلب ، وصعد قلعتها يوم الأحد ، رابع عشر محرم سنة اثنتين

---

١ ـ شهرزور : كورة واسعة في الجبال بين اربل وهمذان . معجم البلدان .

وخمسمائة . وأقام بها أربعة أيام ، ثم رحل إلى دمشق ، فلقيه «أسد الدّين شيركوه» ، ابن صاحب حمص ، فأعطاه حمص ، وسار إلى دمشق .

وسيّر إلى «الملك العادل» ، وطلبه إليه إلى دمشق ، فخرج من حلب جريدةً ، ليلة السّبت الرّابع والعشرين ، من شهر ربيع الأوّل من سنة اثنتين . فوصل إليه إلى دمشق ، وجرت بينهما أحاديث ومراجعات استقرّت على أن الملك العادل يطلع إلى مصر ، ومعه الملك العزيز ، ويكون أتابكة ؛ ويسلّم حلب إلى الملك «الظّاهر غازي» ، وينزل الأفضل إلى دمشق من مصر ، وينزل تقيّ الدين أيضاً منها .

وكان الّذي حمله على إخراج الملك العادل من حلب أنَّ علم الدين سليمان بن جندر كان بينه وبين الملك النّاصر صحبة قديمة ، قبل الملك ، ومعاشرة ، وانبساط ، وكان الملك العادل وهو بحلب لا يوفيه ما يجب له ، ويُقدّم عليه غيرَه .

فلما عُوفي الملك النّاصر سايره يوماً «سليمان» ، وجرى حديثُ مرضه ، وكان قد أوصى لكلّ واحد من أولاده بشيء من البلاد ، فقال له «سليمان بن جندر» : «بأيّ رأي كنت تظنّ أن وصيتّك تمضي كأنّك كنت خارجاً إلى الصيد ، وتعود فلا يخالفونك ، أما تستحي أن يكون الطّائر أهدى منك إلى المصلحة ؟» . قال : «وكيف ذلك ؟» ـ وهو يضحك ـ . قال : «إذا أراد الطائر أن يعمل عشّاً لفراخه ، قصد أعاليَ الشّجرة ، ليحمي فراخَه ، وأنتَ سلّمت الحصونَ إلى أهلك ، وجعلتَ أولادَك على الأرض ، هذه حلب ،

وهي أمّ البلاد بيد أخيك ؛ وحماة بيد تقيّ الدّين ، وحمص بيد ابن أسد الدّين ، وابنُك الأفضل مع تقيّ الدّين بمصر يخرجه متى شاء ، وابنك الآخر مع أخيك في خيمته يفعلُ به ما أراد» . فقال له : «صدقتَ ، واكتمْ هَذا الأمر» .

ثم أخذ حلب من أخيه ، وأعطاها ابنه «الملك الظاهر» ، وأعطى الملك العادل بعد ذلك حرَّان ، والرَّها ، وميافارقين ، ليخرجه من الشام ، ويتوفَّر الشام على أولاده . فكان ما كان ، وأخرج «تقيّ الدّين» من مصر ، فشقّ عليه ذلك وامتنع من القدوم ، ثم خاف ، فقدم عليه .

وسيّر الملك العادُل «الصّنيعةَ» لاحضار أهله من حلب ، وسار «الملكُ الظَّاهرُ» ـ قدَّس الله روحَه ـ إلى حلب ، وسيّر في خدمته «شجاع الدين عيسى بن بلاشوا»[1] ، وولَّاه قلعةَ حلب ، وأوصاه بتربية الملك الظَّاهر ، وأخيه الملك الزَّاهر ، وحسام الدين بشارة ـ صاحب بانياس ـ وولَّاه المدينة ، وجعل الديوان بينهما .

وجعل قرارَ «الملك الظاهر» في السنة ثمانية وأربعين ألف دينار بيضاء في كلِّ شهر أربعة آلاف دينار ، وكلّ يوم قباء وكمه[2] ، وعليق دوابّه من

---

١ ـ في مفرج الكروب ج ٢ ص ١٧٩ «عيسى بن بلاشق» .
٢ ـ كذا بالأصل ولعلها تصحيف «كمر» أي قباء ونطاق .

الأَهراء ، وخبزه من الأَهراء ، واستمرّت هذه الوظيفة ، إلى سنة ستّ وثمانين إلى رجب .

فورد كتابُ الملك النَّاصر إلى ولده الملكِ الظَّاهر ، يأمره بأن يأمر وينهى ، وأن يقطع الإقطاعات ، وأنَّ البلد بلَدُه . وكان القاضي الزبداني يكتب له ، فلم يعجبه ، فانصرف على حالٍ غير محمودة .

وعلى ذكر «علم الدين سليمان بن جندر» ، تذكرتُ حكايةً مستملحةً عنه ، فأثبتها :

أخبرني الزكي أحمد بن مسعود الموصلي المقرىء ، قال : كنت أؤم بعلم الدّين سليمان بن جندر ، فاتّفق أنْ خَرَجْتُ معه إلى حارم ، في سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، وجلستُ معه تحت شجرة هناك ، فقال : كنتُ ومجد الدّين أبو بكر بن الدَّاية والملك النَّاصر صلاح الدّين ، تحت هذه الشجرة ، ونور الدّين إذْ ذاك يحاصر حارم ، وهي في أيدي الفرنج ، فقال مجدُ الدّين : كنتُ أتمنّى أن نور الدّين يفتح حارم ، ويعطيني إيّاها ، فقال صلاحُ الدّين : أتمنّى على الله مصر ، ثم قالا لي : تَمَنَّ أنتَ شيئاً ، فقلتُ : إذا كان مجدُ الدّين صاحبَ حارمٍ وصلاحُ الدّين صاحبَ مصر ، ما أضيع بينهما ، فقالا : لا بدَّ من أن تتمنى شيئاً ، فقلتُ : إذا كان ولابدّ من ذلك فأريد «عِمَّ» .

فقدَّر الله أنَّ نورَ الدّين كسر الفرنجَ ، وفتح حارمَ ، وأعطاها مجدَ الدّين ، وأعطاني «عِمّ» . فقال صلاحُ الدّين : أخذتُ أنا مصرَ والله ، فانّنا

كنّا ثلاثةً ، وتمنّى «مجدُ الدّين» حارمَ ، وأخذها ، وتمنّى علمُ الدّين «عِمَّ» وأخذَها . وقد بقيتْ أمنيتي . فقدَّرَ الله تعالى : أنْ فَتَحَ أسدُ الدّين مصرَ ، ثمَّ آل الأمرُ إلى أن ملكها صلاحُ الدين . وهذا من أغرب الاتفاقات .

وزوَّجَ السُّلطانُ الملكُ النَّاصرُ ولدَه «الملكَ الظَّاهرَ» ، في هذه السَّنة ، بابنة أخيه «غازية خاتون» بنت «الملك العادل» . ودخل بها يوم الأربعاء سادس وعشرين من شهر رمضان .

ثم إنَّ السُّلطانَ عزَم على قَصد «الكرك» مرَّةً أخرى فبرز من دمشق ، في النّصف من محرَّم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وسيّر إلى حلب يستدعي عسكرها ، فاعتاق عليه ، لاشتغاله بالفرنج بأرض «أنطاكية» ، وبلاد «ابن لاون» ، وذلك أنه كان قد مات ، وأوصى لابن أخيه بالمُلك .

وكان الملكُ المظفَّر تقيُّ الدّين بحماة ، فسيّر إليه السّلطان ، وأمره بالدّخول إلى بلاد العدوّ ، فوصل إلى حلب في سابع عشري محرّم ، ونزل في دار «عفيف الدّين بن زريق»[1] ، وأقام بها إلى ثالث صفر ، وانتقل إلى داري الآن ، وكانت إذ ذاك في مُلْك الأمير طمان ، ثم خرج إلى «حارم» ، وأقام بها إلى أن صالحهم ، في العشر الأواخر من شهر ربيع الأوّل ، ثم سار حتى لحق السّلطان ، وأما السّلطان فانه سار إلى رأس الماء[2] ، واجتمعت اليه العساكر

١ ـ تحولت إلى مدرسة عرفت بالمدرسة الصلاحية في محلة سويقة علي . الآثار الاسلامية ص ٢٢٨ .

٢ ـ سلف أن ذكرت أن رأس الماء يعرف الآن باسم نبع السريا ومنه تشرب بلدة الشيخ مسكين في حوران .

الاسلامية من الموصل ، والشَّرق ، ومصر ، والشَّام ، «بعشترا» ، بعد أن أتته الأخبار أن البرنس «أرناط» يريد الخروج على الحاجّ ، فأقام قريباً من «الكرك» مشغلاً خاطره ، ليلزم مكانه إلى أن وصل الحاج ، وتقدَّم إلى الكرك ، وبثَّ سراياه ، فنهبوا بلدها وبلد «الشوبك» ، وخربوه .

وأرسل إلى ولده الملكِ الأفضل ، فأخذ قطعةً من العسكر ، فدخل إلى بلد عكا ، فأخربوا ونهبوا ، وخرج إليهم جمع من الداوية والاسبتاريّة ، فظفروا بهم ، وقُتل منهم جماعةٌ ، وأسر الباقون ، وقُتل مقدَّم الاسبتار .

وعاد السُّلطان إلى العسكر ، وعَرَضَ العسكر قلباً وجناحيْن ، وميمنةً وميسرةً ، وجاليشيّةً وساقةً ، وعرّف كلاًّ منهم موضعة ، وسار على تعبئة ، فنزل «بالأقحوانة»[1] بالقرب من طبرية ، وكان القمص صاحبها[2] قد انتمى إلى السُّلطان ، لخلفٍ جرى بينه وبين الفرنج . فأرسل الفرنج إليه البطرك والقسوس والرّهبان ، وتهدّدوه بفسخ نكاح زوجته ، وتحريمه ، فاعتذر ، وتنصَّل ، ورجع عن السُّلطان إليهم ، ثم ساروا كلّهم بجموعهم إلى «صفُّورية»[3] .

فرحل السُّلطان ، يومَ الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر ، وخلَّف طبريةَ ورآء ظهره ، وصعد جبلَها ، وتقدَّم إلى الفرنج ، فلم يخرجوا من

---

١ ـ بوادي الأردن قرب عقبة أفيق . معجم البلدان .
٢ ـ كانت طبرية لزوجة القمص ـ الكونت ـ ريموند الثالث صاحب طرابلس .
٣ ـ على بعد ٧ كم غرب مدينة الناصرة . معجم بلدان فلسطين .

خيمهم ، فنزل ، وأمر العسكر بالنُّزول ، فلما جَنَّة اللَّيل ، جعل في مقابلة الفرنج مَنْ يمنعهم من القتال ، ونزل إلى طبريّة جريدةً ، وقاتلها ، وأخذها في ساعة من نهار ، ونهبوا المدينة وأحرقوها .

فلما سمع الفرنج بذلك ، تقدّموا إلى عساكر المسلمين ، فعاد السُّلطان إلى عسكره ، والتقى الفريقان ، وجرى بينهما قتال ، وفرّق بينهما اللَّيل ، وطمع المسلمون فيهم ، وباتوا يحرّض بعضُهم بعضاً .

فلما كان صباح السّبت لخمس بقين من الشهر ، طَلَبَ كلُّ من الفريقين موضعَه ، وعلم المسلمون أنَّ «الأردنَّ» من ورآئهم ، وبلاد القوم بين أيديهم ، فحملت العساكرُ الاسلاميَّةُ من الجوانب ؛ وحمل القلبُ ، وصاحوا صيحةً واحدةً ، فهرب القمصُ في أوائل الأمر نحو «صُور» ، وتبعه جماعة من المسلمين ، فنجا وحده ، فلم يزل سقيماً حتى مات في رجب .

وأحاط بالباقين من كلّ جانب ، فانهزمت منهم طائفة ، فتبعها المسلمون فلم ينجُ منهم أحد . واعتصمت الطائفةُ الأُخرى بتلّ حِطِّين ـ وحِطِّين : قرية عندها قبرُ شُعَيب عليه السَّلام ـ فضائقهم المسلمون على التلّ ، وأوقدوا النيرانَ حولهم ، فقتلهم العطش ، وضاق الأمر بهم حتّى استسلموا للأسر ، فأسر مقدّموهم وهم : الملك كي[1] ، والبرنس أرناط صاحب الكرك وأخو الملك ، وابن الهنفري ، وأولاد الست[2] ، وصاحب

---

١ ـ صحف بالأصل إلى «جفري» .

٢ ـ صاحبة طبريا .

جبيل ، ومقدّم الداويّة ، ومقدّم الاسبتار ، وأمم لا يقع عليها الإحصاء ، حتى كان الرّجل المسلم يقتاد منهم عشرين فرنجياً ، في حلقهم حبل . وأسروا من المصافّ ، ومن بلاد الفرنج أكثر من ثلاثين ألفاً من الفرنج ، ما بين رجل ، وامرأة ، وصبيّ ، وقُتل من المقدّمين وغيرهم خلقٌ لا يُحصى ؛ ولم يجر على الفرنج منذ خرجوا إلى السَّاحل مثل هذه الوقعة .

وكان من جملة الغنيمة في يوم المصاف صليب الصَّلبوت ، وهو قطعة خشب مغلَّفة بالذَّهب ، مرصّعة بالجوهر ، يزعمون أنَّ ربَّهم صُلِب عليها ، وضُربت في يديْه المسامير ، أحضروه معهم المصاف تبرّكاً به ، ورفعوه على رمحٍ عالٍ .

فأمّا مقدّم الداويّة والاسبتار ، فاختار السُّلطانُ قتلهم فقتلوا ، وأما الملك «كي» ، فإنَّه أكرمه ، وجلس له في دهليز الخمية ، واستحضره ، وأحضر معه «البرنس أرناط» ، وناول الملك «كي» شربة من جُلّاب بثلج ، فشرب منها وكان على أشدّ حال من العطش ، ثم ناول الملك بعضَها «ابرنس أرناط» ، فقال السّلطان للتّرجمان : «قل للملك : أنتَ الَّذي سقيتَه ، وإلاَّ ما سقيتُه أنا» . وأراد بذلك عادة العرب أنَّ الأسير إذا أكل أو شرب مِمَّن أسره أمِنَ .

وكان السّلطان قد نذر مرَّتيْن إنْ أظفره الله به أن يقتله : إحداهُما لما أراد المسيرَ إلى مكَّة والمدينة ، وبعثرَةَ قبر النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - والمرَّة الأُخرى أنَّ السُّلطان كان قد هادنه ، وتحالفا على أمْنِ القوافل

المتردّدة من الشَّام إلى مصر ، فاجتاز به قافلةٌ عظيمة ، غزيرة الأموال ، كثيرة الرّجال ، ومعها جماعة من الأجناد ، فغدر بهم الملعونُ ، واخذهَم وأموالَهم وقال لهم : «قولوا لمحمد يجيء ينصركم» ، فبلغ ذلك السّلطان وسَيَّر إليه ، وهدّده ، ولامه ، وطلب منه ردّها فلم يجب ، فنذر أن يقتله متى ظفر به .

فالتفت السُّلطانُ إلى «ارناط» ، وواقفه على ما قال ، وقال له : «ها أنا أنتصر لمحمد» . ثم عرض عليه الاسلام ، فلم يفعل . فسلّ السيفَ ، وضربه به ، فحلّ كتفَه ، وتَمَّم عليه مَنْ حَضَرَ ، وأُخذ ورُمي على باب الخيمة .

فلما رآه الملك على تلك الصُّورة لم يشكَّ في أنَّه يُثنيّ به ، فاستحضره ، وطَيَّبَ قلبه ، وقال : «لم تَجْرِ عادةُ الملوك أنَّهم يقتلون الملوك ، ولكنَّ هذا طغى ، وتجاوز حدَّة فجرى ما جرى» .

ثم إنَّ السّلطان أصبح يوم الأحد ، الخامس والعشرين ، فنزل على «طبرية» ، وتسلَّم قلعتها بالأمان من صاحبتها ثم رحل منها يوم الثلاثاء إلى «عكَّا» ، فنزل عليها يوم الأربعاء سلخ الشَّهر ، وقاتلها يوم الخميس مستهلّ جُمادى الأولى ، فأخذها ، واستنقذ منها أربعة آلاف أسير من المسلمين ، وأخذ جميع ما فيها ، وتفرَّق العسكر .

وفتح بعدها : قيسارية ، ونابلس ، وحيفا ، وصفُّورية ، والناصرة ، والشقيف ، والفولة ، فأخذوها ، واستولوا على سكَّانها ، وأموالها .

ورحل السّلطان من عكَّا إلى «تبنين» ، وقاتلها ، وفتحها يوم الأحد

ثامن عشر جُمادى الأولى ، ثم رحل منها إلى «صيْدا» فتسلَّمها يوم الأربعاء العشرين منه ، ثم سار إلى «بيروت» ، ففتَحها في التاسع والعشرين منه ، ثم سلّمت «جبيل» إلى أصحابه وهو على بيروت .

ثم سار إلى «عسقلان» ، ونازلها يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة ، وتسلَّمها يوم السبت سلخ جمادى الآخرة ، بعد أن تسلَّم في طريقه مواضع «كالرَّملة» «ويبنا»[1] و«الدَّاروم» . وأقام على عسقلان ، وتسلَّم أصحابه غزة ، وبيت جبرين ، والنَّطرون ، وبيت لحم ، ومسجد الخليل عليه السَّلام .

وسار إلى «بيت المقدس» ، فنزل عليه الأحد الخامس عشر من شهر رجب من سنة ثلاث وثمانين ، فنزل بالجانب الغربي ، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيّالة والرجّالة ، وكان عليه من المقاتلة ما يزيد على ستّين ألفاً غير النسآء والصّبيان ، ثم انتقل إلى الجانب الشمالي ، يوم الجمعة العشرين من شهر رجب ونصب عليه المنجنيقات ، وضايقه بالزَّحف ، والقتال ، وكثرة الرّماة ، حتى أخذ النّقب في السّور ، مما يلي «وادي جهنّم» ، في قرنة شمالية .

ولمَّا رأوا ذلك وعلموا أن لا ناصر لهم ، وأنَّ جميع البلاد التي افتتحها السّلطان صار مَنْ بقي من أهلها إلى «القدس» ، خرج عند ذلك إليه ابن

---

١ ـ كانت يبنا من اقطاعيات الفرنجة الهامة ، وهي تبعد ٧ كم عن البحر وكانت قبل عام ١٩٤٨ محطة قطار بين فلسطين ومصر ، معجم بلدان فلسطين .

بارزان[1] ، ملقياً بيده ، ومتوسطاً لأمر قومه ، حتّى استقرّ مع السّلطان خروجُ الفرنج عنها بأموالهم وعيالهم ، وأن يؤدّوا الأمانة ، يؤدّوا عن كلّ رجل منهم عشرة دنانير ، وعن كلّ امرأة خمسة دنانير ، وعن كلّ طفلٍ لم يبلغ الحلم دينارْين . ومَنْ عجز عن ذلك استرق ، فبلغ الحاصلُ منْ ذلك عَنْ مَنْ خَرَج منهم مائتين وستّين ألف دينار صوريّة ، واسترقّ بعد ذلك منهم نحو ستّة عشر ألفاً .

وكان السّلطانُ قد رتَّب في كلّ باب أميراً أميناً لأخذ ما استقرّ عليهم ، فخانوا ، ولم يؤدّوا الأمانة ، فانه كان فيه ، على التَّحقيق ، العدّة التي ذكرناها ، وأطلق «ابن بارزان» ثمانية عشر ألف رجل من الفقراء ، وَزَنَ عنهم ثلاثين ألف دينار .

وتسلَّم القدس في يوم الجمعة السابع والعشرين ، من شهر رجب ، وأقيمتْ صلاةُ الجمعة فيه ، في الجمعة التي تلي هذه ، وهي رابع شعبان .

وخطب بالناس محيي الدّين بن زكيّ الدين ـ وهو يومئذ قاضي حلب ـ وأزيلت الصلّبان من قبّة الصخرة ، ومحراب داود ، وأزيل ما كان بالمسجد الأقصى من حوانيت الخمَّارين ، وهدمت كنائسهم والمعابد ، وبنيت المحاريبُ والمساجد .

وأقام السُّلطان على «القدس» ، ثم رحل عنه ، في الخامس والعشرين

---

١ ـ أنظر كتابي حطين ـ ط . دمشق ١٩٨٤ ص ١٦٧ .

من شعبان ، فنزل على صور بعد أن قدم عليه ولده «الملك الظَّاهر» ، من حلب في ثامن عشر شهر رمضان ، قبل وصوله إليها .

وكان نزوله على «صور» في ثاني عشرين من شهر رمضان ، وضايقها ، وقاتلها ، واستدعى أسطول مصر ، فكانت منه غرّة في بعض اللّيالي ، وظنّوا أنه ليس في البحر مَن يخافونه ، فما راعهم إلاَّ ومراكبُ الفرنج منْ «صُور» قد كَبَسَتْهُم ، واخذوا منهم جماعةً ، وقتلوا جماعةً ، فانكسر نشاط السُّلطان ، ورحل عنها في ثاني ذي القعدة ، وأعطى العساكر دستوراً ، وساروا إلى بلادهم[1] .

وأقام هو بعكا ، إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، وكان مَنْ «بهُونين»[2] قد أرسلوا إلى السُّلطان ، وهو «بصور» ، فأمّنهم ، وسيّر من تسلَّمها ، وسار السُّلطان ، فنزل على حصن «كوكب»[3] في أوائل المحرم من هذه السنة ، وكان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من دخول قوة ، فأخذ الفرنج غرَّتهم ليلاً ، وكبسوهم بعَفْربلا[4] وقتلوا مقدَّمهم «سيف الدّين» أخا «الجاولي» ، فسار السلطان ، ونزل عليها بمَن كان قد بقي من خواصّه بعكا ، وكان ولده «الملك الظَّاهر» قد عاد عنه إلى حلب ، وعاد أخوه «الملكُ

١ ـ انظر كتابي حطين ص ١٧٠ ـ ١٧١ .
٢ ـ هونين الآن في جنوب لبنان .
٣ ـ كوكب قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية حصينة رصينة . معجم البلدان .
٤ ـ سلف أن نقلنا عن ياقوت أن عفربلا : بلد بغور الأردن قرب بيسان وطبرية .

العادلُ» إلى مصر ، فحصره ، ثم رأى أنه حصنٌ منيعٌ ، فرحل عنه وجعل عليه قايماز النجمي محاصراً .

وسار إلى دمشق ، ثم سار من دمشق في النّصف من ربيع الأول إلى حمص ، فنزل على بحيرة «قدس»[1] ، ووصل إليه «عماد الدّين زنكي» صاحب سنجار ، وتلاحقت به العساكر ، واجتمعت عنده ، فنزل على تلّ قبالة «حصن الأكراد» ، في مستهل ربيع الآخر ، وسيّر إلى الملك الظاهر إلى حلب وإلى «الملك المظفر» ، بأن يجتمعا وينزلا «بتيزين» قبالة «انطاكية» لحفظ ذلك الجانب ، فسارا حتى نزلا «تيزين» في شهر ربيع الآخر وتواصلت إليه العساكر في هذه المنزلة .

ثم رحل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى ، على تعبئة لقاء العدو ، ودخل إلى بلاد العدو ، وأغار على «صافيتا» و «العريمة» وغير ذلك من ولاياتهم ، ووصل إلى «انطرطوس»[2] في سادس جمادى الأولى فوقف قبالتَها ، ونظر إليها ، وسيَّر مَنْ ردَّ الميمنة ، وأمرها بالنزول على جانب البحر ، وأمر الميسرة بالنزول على البحر ، من الجانب الآخر ، ونزل في موضعه ، وأحدقت العساكر بها من البحر إلى البحر ، وزحف عليها ، فلما استتمَّ نصب الخيم حتى صعد الناس السور ، وأخذها بالسيف ، وغنم العسكر جميع ما بها ، وخرب سور البلد .

---

١ ـ هي بحيرة قطينة الحالية .

٢ ـ هي مدينة طرطوس الحالية .

وسار إلى حلب ، فوصل إليه ولده «الملك الظَّاهر» في أثناء الطريق ، بالعساكر التي كانت «بتيزين» . ووصل إلى «جَبلة» في ثامن عشر يوم الجمعة ، فما استتَّم نزول العسكر حتى تسلَّم البلد ، سلَّمها إليه قاضيها وأهلها ، وكانوا مسلمين تحت يد الفرنج ، فعملوا عليها وسلَّموها وبقيت القلعة ممتنعة ، وقاتل القلعة ، فسلَّمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر .

وسار عنها إلى «الَّلاذقية» ، فنزل عليها يوم الخميس رابع عشري جمادى الأولى ، ولها قلعتان ، فقاتلها ، وأخذ البلد ، وغنموا منه غنيمة ، وفرَّق اللَّيل بين الناس ، وأصبح المسلمون يوم السبت ، واجتهدوا في قتال القلعتين ، ونقبوا في السور مقدار ستّين ذراعاً ، فأيقن الفرنج بالعطب ، فطلبوا الأمان ، يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأولى ، وسلموها يوم السبت .

ورحل عن الَّلاذقيّة ، يوم الأحد ، فنزل على صهيون[1] ، ونزل عليها يوم الثلاثاء تاسع عشري جمادى الأولى ، واستدار العسكر حولها ، واشتدَّ القتال عليها من جميع الجوانب ، فضربها منجنيقُ ولده «الملك الظاهر» ، حتى هدم قطعةً من سورها تمكِّن الصاعد الصعود منها ، وزحف عليها السُّلطان بكرة الجمعة ، ثاني جمادى الآخرة ، فما كان إلاَّ ساعةً حتى ارتقى

١ ـ غير اسمها ، برغم صحته بالعربية إلى قلعة صلاح الدين ، فصهيون اسم مشتق من الصهوة ، وصهوة الجبل أعلاه .

المسلمون على أسوار الربض ، فهجموه ، فانضم أهله إلى القلعة ، فقاتلهم المسلمون فصاحوا : الأمان ، وسلَّموها على صلح القدس .

وأقام السلطان بها حتى تسلم عدّة قلاع ، «كالعيد» و «قلعة الجماهريين» و «حصن بلاطنس» . ثم رحل ونزل على بكاس[1] ؛ وهي قلعة حصينة ، من أعمال حلب على جانب العاصي ، ولها نهر يخرج من تحتها - يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة على شاطىء «العاصي» ، وصعد السلطان جريدة إلى القلعة ، وهي على جبل مطل على العاصي ، فأحدق بها من كل جانب ، وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات والزحف ، وفتحها يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة عنوة ، وأسر من كان بقي فيها ، وغنم جميع ما كان فيها . وكان لها قلعة تسمى «الشّغْر» قريباً منها يعبر من إحداهما إلى الأخرى بجسرٍ ، فضربها بالمنجنيقات إلى أن طلبوا الأمان ، ثم سلمها أهلها بعد ثلاثة أيام ، يوم الجمعة سادس عشر الشهر ، ثم عاد السلطان إلى الثقل ، وسيّر ولده الملك الظّاهر إلى قلعة تسمى «سرمانية» يوم السبت ، فقاتلها قتالاً شديداً ، وتسلَّمها يوم الجمعة ثالث عشري الشَّهر المذكور .

واتفق له هذه الفتوحات المتتابعة كلها في أيام الجمع ، وكذلك القدس يوم الجمعة .

ثم سار السلطان جريدة إلى «حصن برزية» وهو الذي يضرب به المثل في الحصانة ، ويحيط به أودية من سائر جوانبه ، وعلوها خمسمائة ذراع ونيف

١ - انظر النوادر السلطانية لابن شداد - ط . القاهرة ١٩٠٣ ص ٦٠ - ٦١ .

وسبعون ذراعاً ، فتأمله وقوّى عزمه على حصاره ، واستدعى الثقل وبقية العسكر ، يوم السبت رابع عشري جمادى الآخرة . فنزل الثقل تحت الجبل .

وفي بكرة الأحد صعد السّلطان جريدة ، مع المقاتلة ، والمنجنيقات ، وآلات الحصار إلى الجبل ، فأحدق بالقلعة ، وركب المنجنيقات عليها فقاتلها ليلاً ونهاراً ، ثم قسم العسكر على ثلاثة أقسام ؛ يوم الثلاثاء ، ورتب كل قسم يقاتل شطراً من النهار ، بحيث لا يفتر القتال عليها .

وحضرت نوبةُ السُّلطان ، فتسلَّمها بنفسه ، وركب ، وصاح في النَّاس ، فحملوا حملة الرجل الواحد ، وطلعوا إلى الأسوار ، وهجموها عنوة ، ونهبوا جميع ما فيها ، وأسروا من كان فيها ، وعاد السلطان إلى الثقل ، وأحضر صاحبها ومعه من أهله سبعة عشر نفراً ، فرّق له السّلطان ، وأطلقه مع جماعته ، وأنفذهم إلى صاحب «انطاكية» ، استمالةً له ، فإنهم كانوا من أهله[1] .

ثم سار السُّلطان حتى نزل على «درب ساك» ، يوم الجمعة ثامن شهر رجب من السنة ، فقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات ، وأُخِذ النقب تحت برج منها ، فَوَقَعَ ، وحماه الفرنج بالرّجال ، ووقفوا فيه يحمونه عن كلّ من يروم الصعود فيه ، وجعلوا كلَّما قتل منهم واحدا أقاموا غيره مقامَه ، عوضاً عن السُّور .

---

١ ـ من الواضح أن مصدر ابن العديم هو ابن شداد ، لأنه كان من شيوخه ـ انظر النوادر السلطانية ص ٦١ ـ ٦٢ .

ثم طلبوا الأمان على أن ينزلوا بأنفسهم وثيابهم لا غير ، بعد مراجعتهم أنطاكية ، وتسلَّمها السُّلطان ، يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رجب ، وأعطاها علم الدين سليمان بن جندر .

وسار عنها بكرة السبت ، ثالث عشري الشَّهر ، ونزل في مرج «بغراس» ، وأحدق بعض العسكر «ببغراس» ، وأقام[1] يزكا على باب أنطاكية بحيث لا يشذ عنه مَنْ يخرج منها ، وقاتل البلد مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان ، وشرطوا استئذان أنطاكية ، وتسلَّمها في ثاني شعبان من السنة[2] .

وفي ذلك اليوم عاد إلى الخيم ، وراسله أهل «أنطاكية» في طلب الصلح فصالحهم ، لشدّة ضجر العسكر ، وقلق عماد الدّين ـ صاحب سنجار ـ لطلب العود إلى بلاده ، واستقرَّ الصُّلح بينه وبين صاحب أنطاكية على أنطاكية لا غير ، دون غيرها من بلاد الفرنج ، على أن يُطلقوا جميع أسرى المسلمين الذين عندهم ، وأن يكون ذلك إلى سبعة أشهر ، فإن جاءهم مَن ينصرهم وإلَّا سلَّموا البلد إلى السُّلطان .

وطلبه ولده «الملك الظاهر» أن يتوجه معه إلى حلب ، فسار معه إليها ، ودخلها في حادي عشر شعبان ، وأقام بقلعتها ثلاثة أيام في ضيافة «الملك الظَّاهر» ، وأنعم «الملك الظاهر» على جماعةٍ كثيرة من عسكره ،

---

١ ـ اليزك : الطلائع .
٢ ـ انظر النوادر السلطانية ص ٦٢ ـ ٦٣ .

فأشفق السُّلطان عليه ، وسار من حلب في رابع عشر شعبان ، فوصل دمشق قبل دخول شهر رمضان .

فسار في أوائل شهر رمضان حتى نزل «صفد» ، ونصب عليها المناجيق ، وداومها بالقتال حتى تسلَّمها بالأمان في رابع عشر شوال ، وكان أصحابه الذين جعلهم على حصار «الكرك» لازموا الحصار هذه المدَّة العظيمة ، وصابرهم مَنْ بها من الفرنج ، حتى فنيتْ أزوادُهم وذخائرهم ، وأكلوا دوابَّهم ، فراسلوا أخا السُّلطان «الملكَ العادلَ» ـ وكان قريباً منهم ، منازلاً بعضَ القلاع ـ فطلبوا منه الأمان فأمَّنهم وتسلَّمها ، وتسلَّم أيضاً «الشوبك» ، وغيرها من القلاع التي تجاورها .

ثم سار السّلطان من «صفد» إلى «كوكب» ، فنزل على سطح الجبل ، وأحدق العسكر بالقلعة ، وضايقها بالقتال ، حتى تمكَّن النّقب من سورها ، فطلب أهلُها الأمان فتسلَّمها في النّصف من ذي القعدة[٢] .

وسار بعد ذلك بمدّة إلى «بيت المقدس» فدخله يوم الجمعة ثامن ذي الحجة ، وسار إلى «عسقلان» مودعاً أخاه «الملك العادل» وكان متوجهاً إلى مصر ، فأخذ من أخيه عسقلان ، وأعطاه «الكرك» .

وتوجّه لتفقد البلاد السَّاحلية ـ **ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة** ـ وهو بعكا . وتوجّه إلى دمشق فدخلها مستهل صفر .

---

١ ـ تعرف أيضاً باسم كوكب الهوا وهي قرية إلى الشمال من بيسان . معجم بلدان فلسطين .
٢ ـ انظر المحاسن اليوسفية ص ٦٣ ـ ٦٥ .

ثم توجه في الثالث من شهر ربيع الأول ، إلى «مرج فلوس»[١] محاصراً «لشقيف أرنون»[٢] ورحل من «مرج فلوس» فأتى «مرج عيون» ـ وهو قريب من شقيف أرنون ـ في سابع عشر ربيع الأول .

وضاق على الفرنج المجال ، وقلّت أزوادهم . فنزل «أرناط» صاحب الشقيف إليه ـ وكان عظيماً فيهم ذا رأي ودهاء ـ فأظهر الطاعة والمودة للسُّلطان ، ووعده بتسليم المكان وقال :

«أريد أن تمهلني حتى أخلِّص أولادي وأهلي من الفرنج ، وأسلم اليك الحصن، وتعطيني موضعاً أسكن فيه بدمشق، وأقطاعاً يقوم بي وبأهلي، وتمكنني الآن من الاقامة بالشقيف ، حتى أخلِّص أولادي» ، فأجابه السلطان إلى ذلك ، وجعل يتردّد إلى خدمته .

وكانت الهدنة بين أنطاكية وبينه قد قرب وقتها ، وخاطره مشغول بذلك ، وقد سيّر إلى تقي الدين أن يجمع مَنْ يُقارب تلك الناحية من العساكر ، ويكون بازاء «أنطاكية» .

وبلغه أيضاً أن الفرنج قد تجمعوا «بصور» في جموع عظيمة ، وكان الأمر قد استقرّ مع «ارناط» أن يسلِّم اليه «الشقيف» ، في جمادى الآخرة ، وهو مقيم «بمَرْج عيون» ينتظر الميعاد، و«ارناط» في هذه المدّة يشتري الأقوات من سوق المسلمين ، ويقوي الشقيف ، والسُّلطان يحسن الظن به ،

١ ـ في المحاسن اليوسفية ص ٦٥ : مرج برغوث .
٢ ـ ماتزال بقاياها في جنوب لبنان .

ولا يسمع فيه قولَ من يُعلمه بغدره ومكره .

فلما بقي من المدّة ثلاثة أيام وحضر عنده «أرناط» قال له في معنى تسليم «الشَّقيف» ، فاعتذر بأولاده وأهله ، وأنَّ «المركيس» لم يمكنهم من المجيء إليه ، وطلب التأخير مدّة أخرى ، فعلم السّلطان مكره ، فأخذه وحبسه ، فأجاب إلى التسليم ، فسيّر مع جماعةٍ مِن العسكر إلى تحت «الشقيف» ، فأمرهم بالتّسليم ، فامتنعوا ، وطلب قسّيساً حدّثه بلسانه وعاد بما قال إليهم ، فاشتدّوا في المنع .

فعلم حينئذٍ أنَّ ذلك كان تأكيداً مع القسّيس ، فأعادوه إلى السّلطان ؛ وسيّره إلى «بانياس» ، وتقدّم إلى «الشَّقيف» فحصره ، وضيّق عليه ، وجعل عليه مَن يحفظه ، إلى أن سلَّمها مَن بها، بعد أن عُذِّب صاحبها ، في يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الأول من سنة ست وثمانين[1] .

وأما بقية الفرنج ، فانَّ ملكهم كان وعده السّلطان أنَّه متى سلَّم «عسقلان» أطلقه ، فاتفق أنه أطلقه «بانطرطوس» ، حين فتح تلك الناحية ، واشترط عليه أن لا يشهر في وجهه سيفاً أبداً ، فنكث ، واتفق مع «المركيس» صاحب «صور» وعسكرا مع جموع الفرنج على باب «صور» . واتّفق بينهم وبين المسلمين حروب وغارات ، كانت النكاية فيها سجالاً بين الفريقينْ، بحيث تحاجز الفريقان في آخر تلك الأيام ، من جمادى الآخرة من هذه السّنة .

---

١ ـ انظر المحاسن اليوسفية ص ٦٥ ـ ٦٦ .

وسار الفرنج إلى حصار «عكا» ، فنزلوا عليها في يوم الأربعاء ثامن شهر رجب . وسار السُّلطان فنزل عليهم بظاهر «عكا» ، ومنعهم من الإحاطة بسورها ، فكان نازلاً على قطعة منها تلي الشِّمال ، ومعه الباب الشمالي من «عكا» مفتوحاً ، والمسلمون يدخلون اليها ويخرجون ، والفرنج على الجانب الجنوبي ، وقد أغلق في وجوههم الباب المعروف بباب «عين البقر» ، وكان الفرنج يقومون بمحاربة المسلمين ، من جانب المدينة ومن جانب العسكر .

وجرتْ بينهم وبين الفرنج وقعات متعدّدة ، من أعظمها وقعة اتفقت يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان ، خرج الفرنج واصطفوا على تعبئة القتال ، والملك في القلب وبين يديه الانجيل ، فوقف المسلمون أيضاً على تعبئة ، وتحرّكت ميسرةُ الفرنج على ميمنة المسلمين ، وفيها الملك المظفَّر ، فتراجع عنهم ، وأمدَّه السلطان بأطلاب عدّة من القلب ، فخفّ القلب ، وعادت ميسرة الفرنج فطمعت فيه ، فحملوا على القلب ، فانكسر ، وانكسر معه معظم الميمنة ، وبلغت هزيمتُهم إلى «الأقحوانة» ، ومنهم مَنْ دخل دمشق .

ووصل الفرنج إلى خيم السُّلطان ، فقتلوا ذلك اليوم «أبا عليّ الحسين بن عبد الله بن رَوَاحة» . وكان قد مدح النبيّ ﷺ ووقف بازآء قبره ، وأنشد قصيدتَه ، وقال : «يا رسول الله إنَّ لكل شاعر جائزة وقرى ، وإني أطلبُ جائزتي الشَّهادة ، فاستجاب الله دعاءه» .

وقُتل ذلك اليوم مكبّس السلطان وطُشت داره[١] ، وثبتتْ ميسرةُ المسلمين ، وصاح «السّلطان» فيمن بقي من المسلمين : «يال الاسلام» ، وعادت ميسرةُ الفرنجُ إلى عسكره ، فتكاثر الناس وراءهم ، وحملوا عليهم ، فانهزموا ، وتبعهم المسلمون ، فقتلوا منهم زهاء سبعة آلاف ، ولم يقتل من المسلمين غير مائة وخمسين نفراً .

ثم إنَّ الحرب اتَّصلت بينهم ليلاً ونهاراً ، وكثر القتل بينهم ، وأقبل الشِّتاءُ ، فلقي المسلمون منه شدّة . وحضروا إلى السّلطان ؛ وأشاروا عليه بالرّحيل عن «عكا» إلى «الخروبة»[٢] ليفسح ما بين العسكرين . وكان ذلك للضَّجر من تلك المواقفة ، وملازمة القتال ، حتى أوهم السّلطان [وقالوا له :][٣] «إنك قد ضيَّقت على الفرنج مجال الحَرب ، وحلتَ بينهم وبين صور ، وطرابلس ، ولو أفرجتَ لهم عن الطَّريق لما وَقَفوا بين يديك» . فرحل السّلطان إلى «الخروبة» .

فأصبح الفرنج وقد انبسطوا على عكا ، وأحاطوا بها من سائر جهاتها ، واتَّصل ما بينهم وبين «صور» ، وجاءتْ مراكبُهم منها ، فحصرتْ «عكّا» من جانب البحر ، وضعفت قلوب المسلمين بعكا ، وعادوا يقتاتون من الحواصل المدخورة ، بعد أن كان من المير المجلوبة .

وتوفَّرَ الفرنج على قتال أهل «عكا» بعد أن كانوا مشغولين بالعسكر ،

١ ـ الطشت دار المسؤول عن غسيل أواني السلطان وثيابه وأحياناً حمامه ووضوئه .
٢ ـ الخروبة حصن كان على مقربة من عكا . معجم بلدان فلسطين .
٣ ـ زيادة اقتضاها السياق .

وشرع الفرنج في إدارة خندق على عساكرهم ، كاستدارتهم بعكا ، وجعلوه شكلاً هلالياً : طرفاه متّصلان بالبحر ، وأقاموا عليه سوراً مما يليهم ، وشرّفوه بالجنويات والطوارق[1] ، والتراس .

واتصلت الأمداد إليهم من البحر ، بالأقوات والرجال والأسلحة ، حتى كان يُنقل إليهم البقول الرَّطبة ، والخضراوات من جزيرة «قبرس» فتصبح عندهم في اليوم الثاني .

وسيّر السّلطان إلى الخليفة ، وإلى ملوك الاسلام ، يستنفر ويستصرخ ، واتّصلت الأخبار بوصول ملك الألمان إلى «القسطنطينية» ، في ستمائة ألف رجل ، منهم ثلاثمائة ألف مقاتل ، وثلاثمائة ألف سوقة ، وأتباع وصنّاع .

وحكي أنّه كان في عسكره خمسة وعشرون ألف عجلة تنقل الأسلحة والعلوفات ، فأسقط في أيدي المسلمين ، واستولى اليأسُ عليهم ، وتعلّقت آمالهم أنه ربّما مانعه مَنْ في طريقة من «الأوج»[2] ومن قلج أرسلان[3] ، فلم يتّفق شيء من ذلك ، بل سار ، وقطَع البلاد ، حتى وصل إلى المصيصة .

وأرسل الله عليهم وبآءً عظيماً وحرّاً عظيماً ، ومجاعة أحوجتهم إلى نحر

---

١ ـ من أنواع ستائر الحماية والدفاع والترسة .
٢ ـ الأوج سكان المناطق الثغرية المتقدمة .
٣ ـ تبعاً لابن شداد . المحاسن اليوسفية ص ٨٧ كان قلج أرسلان على وفاق ضمني مع ملك الألمان .

دوابّهم ، وذبح البقر الذي يجرّ العجل ، فكان يموت في كل يوم ألوف من الرّجال ، ويسابقون الموتان إلى ما معهم من الدوابّ الحاملة للأثقال ، حتى وصلوا إلى «أنطاكية» ولم يبق منهم إلاّ دون العُشر .

وكان في جملة مَنْ مات منهم ملكهم الذي غزا الشام ، في سنة أربع وأربعين ، وحاصر دمشق ، مات غريقاً في نهرٍ «بطَرْسُوس» يقال له «الفَاتر» ، نزل ، وسبح فيه فغرق ، وقيل بأنه سبح فيه وكان المآءُ بارداً ، فمرض ومات ، وأُخذ وسُلِق في خلّ ، وجُمعت عظامُه ، ليدفن في البيت المقدّس .

وأوصى بالمُلك لابنه مكانه ، واتفقت الكلمةُ عليه ، فمرض «بالتينات»[1] ، وأقام بها ، وسير «كندأكرا» على عسكره ، ووصل إلى «أنطاكية» ، فمات ذلك «الكند» بها . وخرج البرنس إلى الملك ، واستدعاه إلى أنطاكية طمعاً في أنه يموت ويأخذ ماله ؛ وكان قد فرَّق عسكره ثلاث فرق لكثرته ، فالفرقة الأُولى : اجتازت تحت «بغراس» مع الكند المذكور ، فوقع عليه عسكر حلب فأخذ منهم مائتي رجل ، ووقع أيضاً على جمع عظيم خرجوا للعلوفة ، فقتلوا منهم جماعة كثيرة ، وأسروا زهاء خمسمائة نفر .

ولما وصل ملك الألمان إلى أنطاكية أخذها من صاحبها ، وأودع فيها خزائنه ، وسار منها يوم الأربعاء خامس وعشرين من شهر رجب ، سنة ستّ وثمانين وخمسمائة ، متوجهاً إلى عكا ، وفشا فيهم الوبآءُ حتّى لم يسلم من كلّ

١ ـ التينات : حصن على شاطىء البحر بين بياس والمصيصة . بغية الطلب ص٢٢٣ .

عشرة واحـد ، ولم يخرجوا من «أنطاكية» حتى ملؤوها قبوراً .

ووصل الملك إلى «طرابلس» ، في نحو ألفي فارس ، لو صادفهم مائة من المسلمين لأخذوهم ، ووصلوا إلى «عكّا» رجالة ضعفاء ، لا ينفعون ، ومات ابن ملك الألمان على «عكّا» في ذي الحجة ، من سنة ستٍّ[1] .

ووصل إلى المسلمين «بعكا» الأسطول المصري في خمسين شينيّاً غنم في طريقه إليها بُطَسٌ ومراكب فرنجية ، أسر رجالها وغنم أموالها ، وجرى له مصادمات مع مراكب الفرنج المحاصرة لعكا ، كانت الغلبة فيها للمسلمين ، فدخلوا إلى عكّا ، وتماسكت بما دخل فيها من الأقوات والسّلاح ، وكان دخولها في يوم الأثنين رابع عشر شعبان ، من سنة ستّ وثمانين .

وفي هذا الشهر ، جهّز الفرنج بُطَساً متعدّدة ، لمحاصرة «بُرْج الذُّبّان» ـ وهو على باب ميناء عكا ـ فجعلوا على صَوَاري البطس برجاً ، وملؤوه حطباً ونفطاً ، على أنهم يسيرون بالبطس ، فاذا قاربت «برج الذّبان» ولاصقته ، أحرقوا البرج الّذي على الصّاري ، وألصقوه ببرج الذّبان ، ليلقوه على سطحه ، ويقتل مَنْ عليه مِن المقاتلة ويأخذونه .

وجلعوا في البطسة وقوداً كثيراً ، ليلقوه في البرج إذا اشتعلت النار فيه . وعبؤوا بطساً ملؤوها حطباً ، على أنهم يدفعونها لتدخل بين بطس المسلمين ، ثم يلهبونها لتحرق بطس المسلمين .

١ ـ انظر المحاسن اليوسفية ص ٨٧ ـ ٩٤ .

وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة ، تحت قبو ، بحيث لا يصل إليهم نشّاب ، ويكونون تحت القبو ، ويقدّمون البطسة إلى البرج ، فأوقدوا النّار ، وضربوا النفط ، فانعكس الهواءُ عليهم ، فاحترقت البطسة ، وهلك مَنْ فيها ، واحترقت البطسة الثانية ، وأخذها المسلمون ، وانقلبت الثّالثة الّتي فيها القبو بمَن فيها[1] .

وفي هذه السنة ، في ربيع الأول ، أحرق المسلمون ما كان صنعه الفرنج من آلات الحرب والزحف إليهم ، وهي أبرجة عظيمة المقدار ، يزحف بها على عجل ، وفيها المقاتلة والجروخ ، والمجانيق ، فعمد لها رجل دمشقي يعرف «بعليّ بن النحاس» ، فرماها من السّور ، بقدور نفط متتابعة ، وصار فيها ريح غريبة ، كانت سبباً لاحراق تلك الآلات وما فيها ومَنْ فيها .

واشتد حصار الفرنج على عكّا ، وملّ مَنْ بها من الأجناد المقام ، ووصل اليهم من مصر مراكب فيها غلّة ، فاتلفوها بالاضاعة وبالتغريق ، تبرماً بالمقام .

وفي ربيع الأول ، وصلت من بلاد الفرنج مراكب كثيرة ، فيها ألوف من مقاتلة الفرنج من أكبرهم ملكان : يعرف أحدهما بملك «الفرنسيس» والآخر بملك «انكتير» ، فاشتدَّت وطأتها على عكا ، وعظمت نكايتها ، في سورها ، وقلّ ما بها من الميرة والسّلاح .

١ ـ انظر المحاسن اليوسفية ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

فأمر السّلطان بأن أوسق مركبٌ عظيمٌ من «بيروت» ، واستكثر فيه من السّلاح والأقوات والمقاتلة ، وأظهر عليه زيّ الفرنج وشعارهم ، وأُخذَ قومٌ من أسارى الفرنج الّذين في قبضة المسلمين ، فتُركوا على ظاهر المركب ، وأنزل معهم في المركب جماعة من المسلمين ممَّن يَعرف لغة الفرنج ، وتزيّوا بزيّ الفرنج ، وحلقوا شعورهم ، وأخذوا معهم خنازير ، ورفعوا على قلع المركب صليباً . وأوهموا الفرنج أنهم واصلون إليهم نجدةً مِن بلادهم ، وأقلعوا داخلين إلى مرسى «عكا» ، مسلِّمين على الفرنج بلغتهم ، مبشِّرين لهم بأنَّ وراءهم من المدد ، مَنْ تُشْتَد به منتهم ، وتعزُّ به نصرتُهم ، فلم يرتَبِ المحاصرون بذلك ، وأفرجوا لهم عن المرسى[1] .

فدخلوا إلى «عكا» ، وأوصلوا إلى المسلمين بها ، ما كان معهم من الميرة والسلاح والرجال ، وتمَّت هذه الحيلة ، وكانت من الفرص التي لا ينبغي أن تعاود فركن المسلمون إليها ، وطمعوا في أخرى مثلها ، فجهّزوا مركباً عظيماً من «بيروت» أيضاً ، وأودعوه مثل ما كان قبله من الآلات والسلاح والأقوات بما مبلغ قيمته خمسة آلاف دينار ، وجعل فيه سبعمائة من مقاتله المسلمين .

وكان خبرهم قد وصل إلى الفرنج ، فأخذوا عليهم الأرصاد ، فمكثوا أياماً يلججون في البحر ، ويقاربون عكّا ، فلا يجدون في الدّخول مطمعاً ، حتى صادفتهم مراكب «الانكتير» في حال قدومه من بلادِه ، في إحدى

١ ـ انظر المحاسن اليوسفية ص ٩٧ .

وعشرين مركباً فقاتلوا ذلك المركب الاسلامي يومين ، وثبت لهم مع قلّته ، فغرّق المسلمون من مراكب الفرنج ثلاثة .

ولما رأوا أنهم قد يئسوا من النجاة ، وأنَّ الفرنج إنْ ظفروا بالمركب حصل لهم به قوة عظيمة ، وحصلوا في الأسر والذلَّة ، عمد رجل حلبيّ حجّار من أهل «باب الأربعين»[1] ، يقال له «يعقوب» وكان مقدّم الجماعة إلى سفل المركب وأخذ قطّاعته ، وخسف المركب ، ودخل فيه الماء ، وغرق ، ولم يظفر الكفّار منه بشيء ، سوى رجلينْ تخطَّفهما الفرنج من رأس المال ، واحتملوهما في مراكبهم ، فأخبروا بهذه الكائنة .

ولما وصل هذا الخبر إلى «عكا» قطَع قلوبَ مَن بها ، وأُسقط في أيديهم ، وهرب جماعة مِن الأمراء منها ، فألقوا أنفسهم في شخاتير صغار ، فأضعف ذلك قلوبَ مَن بقي بها ، وعظمت النكاية في سور المدينة ، وفشلوا ، وكاتبوا السلطان ، فأذن لهم في مصالحة الفرنج عن أنفسهم بالبلد .

فصالحوا الفرنج على تسليم البلد ، وجميع ما فيه من الآلات ، والعُدَد والأسلحة ، والمراكب ، وغير ذلك ، وعلى مائتي ألف دينار وألف وخمسمائة أسير ، مجاهيل الأحوال ، ومائة أسير معيّنين من جانبهم يختارونهم ، وصليب الصلبوت ، على أن يخرجوا سالمين بأنفسهم ، وذراريهم ، وأموالهم ، وقماشهم ، وضمنوا «للمركيس» عشرة آلاف دينار ، لأنّه كان

١ ـ انظر حوله بغية الطلب ص ٥٥ ـ ٥٦ .

الواسطة ، ولأصحابه أربعة آلاف .

وحلف الفرنج لهم على ذلك ، وتسلَّموا «عكا» ، في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ، سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، ونكثوا ذلك العهد ، وأسروا كلَّ مَنْ كان بها مِن المسلمين ، وفرَّقوا بينهم ، واستصفوا أموالهم ، وسلبوهم ثيابهم وأسلحتَهم ، ثم قتلوا منهم ألفين ومائتين صبراً ، على دمٍ واحدٍ ، في يوم واحد ، حيث توهَّموا فيهم أنهم فقراء ، ليس لهم مُفادٍ ، وأسروا مَنْ رجوا منه أن يُفتدى بمال ، أو يكون من السّلطان على بالٍ[1] .

وأقامو بعكّا نحو أربعين يوماً ، و«الملك النّاصر» على حصارهم ، ثم خرجوا منها متوجهين إلى «عسقلان» ، فسار في عراضهم ، ليمنعهم أن يخرجوا من ساحل البحر ، فساروا من عكَّا إلى «يافا» ، وهي مسيرة يومٍ واحد ، في شهر كامل ، لمضايقة السلطان لهم ، وجرى بينهم وبين المسلمين مناضلة ومطاردة ، فلما أشفق السّلطان مِن أخذهم «عسقلان» سبق إليها فهدَمها ، وأخرج أهلها منها ، في شهر رمضان من سنة سبع .

فأقام الفرنج «بيافا» ، وانتقل السّلطان إلى «الرَّملة» ، وشرع الفرنج في بنآء «يافا» وتحصينها ، ثم ساروا عنها ، فنزلوا بعسقلان ، وشرعوا في عمارتها ، ثم ساروا إلى «الدَّاروم» ، فحصروها ثلاث مرات ، أخذوها في المرة الثالثة بالأمان .

وعاد السُّلطان ، في ثالث ذي الحجة ، بالعساكر إلى البيت المقدَّس ،

١ ـ انظر كتابي حطين ص ١٧٨ ـ ١٨٠ .

وعمَّره ، وحصنَّه ، ووعّر طريقه ، وعمَّق خندقه ، وجعل «الملك العادل» ، بازآء الفرنج «بالرَّملة» .

وتوفي الملك المظفَّر تقيّ الدّين ، على «منازكرد»، وهو محاصر لها ، بعد أن جرى له مصاف مع بكتمر صاحب «خلاط» ، وكسره تقيّ الدّين .

ودخلت سنة ثمان وثمانين ، والسّلطان بالبيت المقدّس ، والملك العادل في الرّملة ، وقد صار بيد الفرنج مما كان بيد المسلمين من الفتوح ، ما بين عكا و«الدَّاروم» ، ولم يمكنهم مفارقة الساحل ، خوفاً من أن يحول المسلمون بينهم وبين مراكبهم ، فتنقطع مادتهم .

وعصى فيها الملك المنصور بن تقيّ الدّين على السّلطان بميافارقين ، وحيني[1] ، وحرَّان ، والرُّها ، وسُمَيْسَاط ، والموزر ، فسيّر إليه ابنه الملك الأفضل وأقطعه تلك البلاد الشرقية ، فسار إلى حلب ومعه أخوه «الملك الظَّافر» ، ووصلا إلى حلب . فأرسل السّلطان أخاه «الملك العادل» ، جريدةً ، في عشرين فارساً من مماليكه ، وأمره أن يردّ «الملكَ الأفضلَ» ، ويطيّب قلبَ «الملك المنصور» ، ويعطيه ما يريد ، فوصل «الملك العادل» ، واجتمع بالملك المنصور ، وقرَّر أمره .

ثم أن السلطان جرت له أحوال مع الفرنج ، ووقعات ، ومراسلات ، يطول الكتاب بتعدادها ، إلى أن انتظم الصلح بينه وبين الفرنج ، في حادي وعشرين من شعبان سنة ثمانٍ وثمانين ، لمدة ثلاث سنين

١ ـ بلدة في ديار بكر يقال لها حاني أيضاً . الأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ص ٧٨٨ .

وخمسة أشهر ، على أن سلَّموا إلى المسلمين «عسقلان» ، و«غزة» ، و«الدّاروم» . واقتصروا من البلاد السّاحلية على ما بين «صور» و«يافا» بعد أن فتح السلطان «يافا» ، وبقي القلعة .

واتفق ملوك الجزائر من الفرنج على تمليك الساحل رجلاً منهم يعرف «بالكند هري» ، وزوَّجوه بنت ملكهم القديم ، التي قد استقرَّ عندهم أن يجعلوها على كلّ مَنْ ملكوه[1] .

وسار السُّلطان من القدس إلى بيروت في شوَّال ، ووصل إلى خدمته صاحب أنطاكية «الابرنس» وولده «قومص طرابلس» ؛ وخلع عليهما ، وجدّد بينه وبينهما الهدنة والعقد .

وفي سادس عشري ذي القعدة ، دخل إلى دمشق ، بعد مدّة تقارب أربع سنين . وكان «الملك الظاهر» قد ودَّعه من «القدس» ، ورحل إلى حلب في شهر رمضان ، وأخبرني القاضي بهاء الدّين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم : أنه ودّعه ، ثم سيّر إليه ، واستأذنه في مراجعته في أشياء فأدخله عليه ـ وكنت حاضراً ـ ثم قال للملك الظاهر :

«أوصيك بتقوى الله فإنَّها رأس كلّ خير : وآمرك بما أمرك الله به ، فانه سبب نجاتك ، وأحذِّرك من الدّماء والدخول فيها والتقلُّد لها ، فإنَّ الدم لا ينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعيّة ، والنّظر في أحوالهم ، فأنتَ أميني وأمين الله عليهم ، وأوصيكَ بحفظِ قُلوب الأمراء ، وأربابِ الدَّولة

١ ـ انظر كتابي حطين ص ١٨٢ ـ ١٨٤ .

والأكابر ، فما بلغتُ ما بلغتُ إلاَّ بمداراة النَّاس ، ولا تَحْقِد على أحَد ، فانَّ المَوْتَ لا يُبقي على أحد ، واحذرْ ما بينك وبين النّاس ، فانَّه لا يغفر إلاَّ برضاهم ؛ وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه ، فانَّه كريم» .

وفي شهر ذي القعدة ، سلَّم إلى «الملك المنصور» ما كان لأبيه بالشام ، وهو «منبج ، وحماة ، وسلمية ، ومعرّة النعمان» وانقضت سنة ثمان وثمانين .

والهدنة مع الفرنج مستمرّة ، و«الملك النّاصر» بدمشق ، «والملك الظَّاهر» بحلب ، والملك العزيز بمصر ، والملك الأفضل ، وهو أكبر ولد السُّلطان ، معه بدمشق .

فمرض السّلطان ، في اليوم الخامس عشر ، من صفر ، بحمّى حادة ، واختلط ذهنه في السّابع ، وحُبس كلامه ، وانجذبت مادَّةُ المرض إلى دماغه ، وتوفي ـ رحمه الله ـ في الثَّالث عشر من مرضه ، في وقت الفجر ، من يوم الأربعاء ، السَّابع والعشرين من صفَر ، من سنة تسع وثمانين وخمسمائة .

وليس في خزانته من المال يومَ وفاته سوى دينار واحد صوري ، وسبعة وأربعين درهماً نقرة[1] ، ودعوتُه على المنابر من أقصى حضرموت في الجنوب إلى أوائل بلاد «أرانية»[2] في الشَّمال عرضاً ، ومن طرابلس الغرب إلى باب همذان طولاً . ونُقودُها من الدَّراهم والدنانير مضروبةٌ باسمه ، وعساكرُها مطيعة لأمره ، سائرةٌ تحت لوائه . ومِنْ جُملة مُلكه ديار مصر ، والشَّام

١ ـ أي من الفضة .

٢ ـ أرّان اقليم مشهور بين أذربيجان وأرمينية . معجم البلدان .

جميعه ، والجزيرة وديار بكر ، واليمن .

تِلْكَ المكارمُ لاَ قعبانُ مِنْ لَبَن شيبًا بماء فَعَادا بَعْدُ أبْوالاَ

وكان وزيُره القاضي «عبد الرحيم بن علي البيساني» ، صاحب البلاغة في الكتابه .

واستقرّ ملكُ ابنه السلطان «الملكُ الظَّاهرُ غازي بنُ الملكِ النَّاصِرِ يوسفَ بنِ أيُّوب» لحلب ، والبيرة ، وكفرطاب ، وعَزاز ، وحَارم ، وشَيرز ، وبارين ، وتلّ باشر . واستقلّ بملك حلب ، وأنعم على رعيّته ، واستمال قلوبَهم بالاحسان ، وعملَ بوصيّة أبيه في الأفعال الحِسَان ، وشاركَ أهلَ حلبَ في سرورهم والحزن ، وقلّد أعناقَهم أطواقَ الانعام والمِنَن ، وجالس الكبير منهم والصَّغير ، واستمالَ الجليل والحَقير .

وكان ـ رحمه الله ـ مع طَلاَقَة وجهه ، من أعظم المُلوك هيبةً ، وأشدّهم سطوةً ، وأسدّهم رأياً ، وأكثرهم عطاء ، وكانت الوفودُ في كلّ عام تزدحمُ ببابه من الشُّعراء ، والقرَّاء ، والفقراء ، وغيرهم . وكان يُوسعهم فضلاً وإنعاماً ، ويوليهم مبرّة وإكراماً .

ولم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد «سيف الدّولة بن حمدان» ما اجتمع ببابه ـ رحمه الله ـ وزاد على «سيف الدولة» في الحباء ، والفضل والعطاء .

وخرج صاحب الموصل «عزّ الدّين» ، باتفاق «عماد الدّين» وصاحب

ماردين ، لاستنقاذ حرّان والرّها ، من يد «الملك العادل» ، في شهر ربيع الآخر من هذه السنة ؛ ونزل بدنيسر .

ونزل «الملك العادل» بحرّان ، واستنجد بعساكر «الملك الظّاهر» و«الملك الأفضل» ، فسيّر الملك الظّاهر عسكره ومقدّمة الملك المنصور بن تقيّ الدّين ، ونزل الملك العادل على سروج فافتتحها . ومرض عزُّ الدّين ، وعاد إلى الموصل عن غير لقاء .

ثم نزل الملك العادل على الرَّقة ، فأخذها ، وأعطاها ابن أخيه «الملك الظافر» . وسار بالعساكر إلى نصيبين ، وأقطع الخابور وبلد القنا ، ثم اصطلحوا في شهر رمضان .

وكان الياروقية ومقدّمهم «دلدرم» صاحب «تلّ باشر» ، قد تكبّروا وتحامقوا على الملك الظّاهر ، وقصّروا في خدمته ، في حياة أبيه . وكانوا يعظِّمون «بدر الدين دلدرم» ، ويركبون كلّهم في خدمته حتى كأنه السلطان ، وكان بأيديهم من الأقطاع خير ضياع «جبل السّماق» ، وغيرها ؛ وملك الملك الظاهر حلب ، فسلكوا معه من الحماقة ، ما كانوا يسلكون من قبل ، فاعتقل مقدَّمهم «دلدرم» في قلعة حلب ، وقيّده ، وأخرج الباقين عن حلب ، وقبض أقطاعهم ، وطلب من «دلدرم» تسليم «تلّ باشر» فامتنع ، وذلك في سنة تسعين وخمسمائة .

واتّفق أن وقع خلف بين الأفضل والملك العزيز ، بسبب أميرين من النّاصرية ، أحدهما ميمون القصري ، والآخر سنقر الكبير ، وكان بأيديهما

عدَّة من القلاع ، فاستشعرا من الملك الأفضل أن يقبضهما ، فسارا إلى مصر ، وكاشفا «الأفضل» بالعصيان .

وطلبا من العزيز الكون في خدمته على أن يذّب عما في أيديهما ، فأقطع الملك الأفضل بلادهما ، وأقطعهما الملك العزيز نابلس ـ وكانت مقطعة مع ابن المشطوب ـ فامتنع من تسليمها إليهما ، وسار إلى الملك الأفضل فوقع الشرّ بينهما بسبب ذلك .

ونزل الملك العزيز إلى دمشق ، في جمادى الآخرة ، وأقطع بلدها ، وقاتلها ، فسيّر الملك الأفضل إلى عمّه ، وأعلمه بذلك ، فسار «الملك العادل» من بلاده شرقي الفرات جريدةً ، واجتمع بالملك الظاهر غازي بحلب ، وأصعده إلى قلعة حلب ، وأنزله في الدار ، التي فيها ابنة الملك العادل «غازية خاتون» ، زوجة السلطان الملك الظَّاهر . وطلب من الملك الظَّاهر موافقته على المسير إلى نصره الملك الأفضل ، واصلاح ما في قلوب الملكيْن من المضاغنة ، فوافقه على ذلك . ثم قال له الملك العادل : «انا ضيفك ، ولابدّ للضَّيف من قِرىً ، وأطلب أن تكون ضيافتي منك دلدرم» . فأجابه إلى ذلك وأطلقه .

وكان «العلم بن ماهان» في خدمة السُّلطان «الملك الظاهر» ، في محلّ الوزارة ، فأشار عليه بقبض عمّه الملك العادل ، فامتنع ، وقال : «هذا عمّي ، ومحلُّه محلّ الوالد» . ونزل الملك «بدلدرم» من القلعة ، فمضى في يومه إلى «تلّ باشر» .

وصعد الملك العادل والملك الظَّاهر ، إلى نصرة الملك الأفضل ، بعد أن سلَّم الملك الأفضل إلى الملك الظَّاهر جبلة ، واللاذقية ، وبلاطنس وأعمال ذلك كلّه ، لينصره على أخيه . واجتمع الملك العادل ، والملك الظَّاهر بالملك الأفضل ، وتأخَّر الملكُ العزيزُ عن دمشق .

وجرتْ بين الملوك الثلاثة مراسلاتٌ أفضت إلى الاتِّفاق والصُّلح ، على أن تكون بلادُ الملك الأفضل بحالها ، وما كان بيد «ميمون» و«سنقر» ، على حاله ، ويكونان في خدمة «الملك العزيز» . ووقعت الأيمان والعهود على ذلك ، في شعبان من سنة تسعين وخمسمائة .

وعاد «الملك العزيز» إلى مصر ، و«الملك الظَّاهر» إلى حلب ، والملك العادل إلى الشرق .

وفي سنة إحدى وتسعين اتَّصل القاضي «بهاءُ الدّين أبو المحاسن ، يوسف بن رافع بن تميم» بخدمة «الملك الظاهر» ، وقدم إليه إلى حلب ، وولَّاه قضاء حلب ووقوفها ، وعزل عن قضائها «زين الدين أبا البيان نبأ» نائب «محيي الدّين بن الزكي» ، وحلّ عنده بهاءُ الدّين في رتبة الوزارة والمشورة .

ثم إنَّ «الملك الأفضل» استشعر من أخيه «الملك العزيز» أن ينزل إلى دمشق ، ويحاصرها ، في سنة إحدى وتسعين ، كما فعل في السَّنة الخالية ، فسار إلى «قلعة جعبر» ، واجتمع بعمّه «الملك العادل . بها ، وفاوضه في

الوصول إليه إلى دمشق ، لينصره على الملك العزيز إنْ وصل إلى دمشق ، إمّا بصُلح أو بغيره ، فوافقه على ذلك .

وتوجَّه الملك العادل إلى دمشق ، ثم عدل الملك الأفضل إلى حلب ، إلى أخيه الملك الظاهر ، ووصل إليه حلب ، وفاوضه في انجاده على الملك العزيز ، فلم يجد عنده نيّة صادقة في الحركة معه إلى دمشق ، واشترط عليه شرائط من جملتها أن صاحب «حماة» الملك المنصور محمّد بن تقي الدّين ، وعزِّالدّين بن المقدّم صاحب «بارين» ، و«بدر الدّين دلدرم بن ياروق» ، صاحب «تل باشر» ، كانوا كلّهم في طاعته ، ومضافين إليه ، وبلادهم من جملة بلاد الملك الظَّاهر ، وأنهم كانوا من جملة أصحابه ، فانحرفوا عنه ، وانضافوا إلى عمه الملك العادل .

وكان الملك العادل قد شفع إليه في دلدرم ، وأطلقه لأجله ، وضمن له عنه الطاعة والقيام بما يجب ، فانضاف إلى عمّه .

وطلب «الملك الظَّاهر» أنَّ الملك العادل يقوم له ، بما جرى بينه وبينه من الشرط ، وأن لا يعرض لأتباعه المذكورين .

وسار الملك الأفضل إلى دمشق ، على أن يقرّر مع عمّه ما التمسه الملك الظَّاهر . فلم يتّفق للملك الظَّاهر شيء مما التمسه . فعاد بالكليّة عنها ، وأرسل إلى الملك العزيز ، يحضّه ، ويحرضه على قصدهما لأن الملك الأفضل مال إلى الملك العادل ، وألقى أموره كلّها إليه .

ووصلت رسل الملك العزيز إلى الملك الظَّاهر ، بموافقته معه ، ومعاضدته . وحلف له الملك الظَّاهر ، في شهر رجب من السَّنة .

ونزل الملك العزيز ، من مصر ، في شهر رمضان ؛ والأسدية والأكراد مخامرون عليه ، والملك العادل والملك الأفضل ، قد كاتباهم ، فمالوا إليهما لتقدمة الملك العزيز الناصريّة عليهم .

وخرج الملك الظَّاهر ، فنزل بقنسرين ، وعيّد بها عيد الفطر ، وعيّد الملك العزيز «بالفوّار» ، وعزم الملك العزيز على الرحيل إلى دمشق ، والنزول عليها ، ورحل أبو الهيجاء السمين والمهرانيّة ، والأسدية في رابع شوال . وساروا إلى دمشق .

ورحل الملك الظَّاهر من «قنّسرين» إلى «قراحصار» ، قاصداً حصار منبج ـ وهي في يد الملك المنصور صاحب حماة ـ فلما وصل الملك الظَّاهر إلى «بزاعا» ، وصله الخبر بأنَّ العسكر خامر على الملك العزيز ، وأنَّه رجع عن دمشق ؛ وسار الملك العادل والأفضل خلفه إلى مصر ، فعاد الملك الظَّاهر إلى «قرا حصار» حتي انسلخ شوال ، ودخل حلب .

ووصله الخبر بأن الملك العادل والأفضل ، سارا خلف الملك العزيز إلى مصر ، ونزلا على «بلبيس» ، ودخل الملك العزيز إلى مصر ، واستقرَّ أمره بها ، وعلم الملك العادل بأنَّه لا يتمشَّى أمرهمامع الملك العزيز ، فكتب إلى القاضي الفاضل ، وطلب الاجتماع به ، فألزمه الملك العزيز بالخروج إليه ، فاجتمع به ، وأصلح حاله مع الملك العزيز ، وشرط عليه أن يعفو عن

الأسدية . وقال للملك الأفضل : «أنا كان مقصودي الاصلاح بينكم ، وأن لا يقع على دولتكم خلل ، وقد حصل ذلك» .

وتحالفوا ، وعاد الملك الأفضل ، ومعه أبو الهيجاء السمين ، وبقي الملك العادل مع الملك العزيز بمصر ، ووافقه ، فانحرف الملك الظَّاهر عن الملك العزيز بذلك السبب ، ومال إلى الملك الأفضل .

وكان الملكُ العادلُ قد احتوى على الملك العزيز ، وأوقع في نفسه أن السَّلطنة تكون له في بلاد الاسلام ، والخطبة والسكَّة ، وكان يبلغه عن الملك الأفضل كلمات توجب الحنق عليه ، فاتَّفق مع الملك العزيز على أن ينزلا جميعاً إلى الشام ، لتقرير هذه القاعدة في جميع بلاد الاسلام .

فسيَّر الملك الظَّاهر أخاه الملك الزَّاهر داود ، والقاضي بهاء الدين قاضي حلب ، وسابق الدين عثمان ، صاحب شيزر ، في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة إلى الملك العزيز ، لتسكين الفتنة ، والرجوع إلى ما فيه صلاح النيّة والموافقة بين الأهل .

فوصلوا والملك العادل ، والملك العزيز ، قد خرجا مبرزين إلى «البرْكة» في ربيع الأول من السّنة ، وأعادوا الرسلَ بغير زبدة ، فعرفوا الملك الأفضل في اجتيازهم عليه ، بما قد عزم الملك العزيز ، والملك العادل عليه ، من إقامة الخطبة والسكَّة للملك العزيز ، وتعجّب من نقضهما الهدنة معه .

ولّما وصلوا إلى حلب ، راسل الملك الظَّاهر أخاه الأفضل ، في تحديد الصلح بينهما ، وتحالفا على المعاضدة والمناصرة . ووصل إلى الملك الظَّاهر من

الأمراء : علم الدين قيصر الناصري ، أمير جاندار أبيه الملك الناصر ، فأقطعه اللاذقية ؛ وأخذها من ابن السَّلار . وسيَّر العلم بن ماهان ، ليعتبر ما في قلعتها ويسلِّمها إلى قيصر ، ويجعل الأجناد فيها على حالهم ، ويحلِّفهم للسلطان الملك الظَّاهر .

وكان العلم بن ماهان ، إذ ذاك عند الملك الظَّاهر في محلّ الوزارة ، فلما وصل إليها ، ودخل قلعتها طمع باللَّاذقية ، وحدثته نفسه بالعصيان ، واستحلف الأجناد لنفسه ، وخالفه بعضهم ، وامتنعوا ، وكتبوا إلى «الملك الظَّاهر» ، وقبضوا على ابن ماهان . فسارع الملك الظَّاهر ، وخرج إلى اللَّاذقيّة ، وصعد إلى القلعة ، وأحضر ابن ماهان وقطع يده ، وقلع عينه ، وقتل غلاماً من خواصّه ، وقطع لسانَ البدر بن ماهان قرابته وأذنية ، وسلخ العامل النصراني الذي كان بها .

واحتوى على جميع ما كان لابن ماهان ، وفرّقه ، ودخل إلى حلب وهو معه ، فأركبه حماراً مقلوباً ، وعلى رأسه خفّ امرأة ، ويده معلَّقة في عنقه . وطيف به على تلك الحال ، ولطم بالدرّة ، ثم صعدوا به إلى القلعة ، فالتقاه «ابن منيفة» بوّابها ، وقال له : «أريد حقي منك» . وأخذ نعله من رجله ، ولطمه به لطماً كثيراً ، وحُبس في القلعة .

وتحدَّث بعضُ النَّاس أن الملك الظَّاهر أراد أن يرجع عن إقطاع قيصر اللَّاذقية ، فكتب إلى ابن ماهان يأمره بالعصيان ، ثم التزم بما فعل ، ولم يظهر صحة ذلك .

ولما دخل السلطان الملك الظَّاهر من الَّلاذقية ، سيّر عسكراً من عسكر حلب ، نجده لأخيه الملك الأفضل ، ووصل الملك العزيز والملك العادل ، فنزلا على دمشق ، وحصراها ، وتسلَّمها الملك العزيز بمخامرة أوجبت دخول الملك العادل من «باب توما» ، والملك العزيز من باب «الفرج» .

وخرج الملك الأفضل من القلعة ، وعُوّض عن دمشق بصرخد ، فسار إليها ، ووصل «الملك الظافر» إلى أخيه «الملك الظاهر» إلى حلب ، فأكرمه ، واحتفل به ، وذلك في شعبان من سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

وشرع «الملك الظاهر» في حفر الخنادق بحلب وتحصينها ، وسيَّر القاضيَ بهاء الدّين ، وغرس الدّين قلج ، إلى الملك العزيز ، يطلب موافقته ، وكان قد رحل إلى مصر ، وأبقى الملكَ العادل بدمشق .

وخرج «الملك الظاهر» إلى «مرج دابق» ، وأقام بها ، وأظهر أن صاحب «مرعش» عاث في بلد «رعبان» ، وسيّر يقدمه عسكره إلى «عين تاب» ، فخاف صاحبها حسام الدّين بن ناصر الدّين ، وحفظ القلعة . ونزل العسكر في الربض مظهرين أن لا غرض لهم في حصار القلعة ، بل لشدّة البرد والثلج . ثم أظهر أن صاحب مرعش سيّر إلى «الملك الظاهر» ، واعتذر ، وانقاد إلى طاعته ، وحلف له .

فرحل السّلطان إلى «الراوندان» ، وأقام بها ثلاثة أيام ، ورحل إلى «عزاز» ليلاً ، وهي في أيدي نواب الأمير «سيف الدّين بن علم الدّين عليّ بن سليمان بن جندر» ، وكان مريضاً بحلب ، فأراد السّلطان أن يصعد

إلى القلعة من شدّة المطر ، فمنعه مَن في القلعة أن يطلع إلاَّ باذن «سيف الدّين» ، فسار إلى «دربساك» وبها «ركن الدين الياس» ابن عمّ «سيف الدين» ، **فقبض عليه** .

وعاد إلى حلب مُغضباً ، ودخل إلى دار سيف الدّين بنفسه ، وأخذه في محفَّة ، وسيّره إلى «عزاز» ليسلمها ، ووكّل به «حسام الدّين عثمان بن طمان» ، فوصل معه إليها وسلَّمها إلى نواب السّلطان «الملك الظاهر» ، وعادوا به إلى حلب .

ولما جرى على سيف الدين ذلك ، وكانت «دربساك» معه ، وفيها ماله ونوَّابه ، وبها جماعة من أسرى الفرنج ، فأعملوا الحيلة ، وكسروا القيود ، وفتحوا خزانة السلاح ، ولبسوا العُدَد ، وقاموا في القلعة ، فاحتمى الوالي في القلعة مع جماعة من الأجناد ، والقتال عليهم . فعلم الملك الظاهر ، بذلك ، فخرج مجدّاً في السير حتى وصل «درب ساك» ، فوجد الوالي قد انتصر على الأسرى ، وقتلهم .

وعاد السلطان إلى «حارم» ، ثم دخل إلى حلب ، فأقام حتى تقضَّت سنة اثنتين وتسعين . ووصله القاضي «وقلج» بجواب الملك العزيز ، بانتظام الصلح بينه وبينه .

ورحل الملك العادل إلى بلاده الشرقية ، ووصل ابنه «الملك الكامل محمد» إلى حلب ، زائراً ابن عمه الملك الظَّاهر ، وكان قد طلبه من أبيه ليزوره ، فالتقاه الملك الظاهر ، وأحسن ضيافته ثم سار إلى أبيه .

وعصى «سربك» «برعبان» على الملك الظَّاهر ، وقد كانت في يده ، عوَّضة بها عن «حارم» وكان من مماليك أبيه الشجعان ، فأظهر الملك الظَّاهر أنَّه يخرج إلى الغزاة ، وخرج إلى «قنّسرين» ، ثم عطف من غير أن يعلم أحد حتى وصل إلى «رعبان» ، فنزل عليها ، وأقام أياماً لا يقاتلها ، في شهر رمضان ، من سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

واستغل بلدها ، فلبس «سربك» سلاحه ، وركب ، وحوله جماعة ، قد لبسوا ، وفتح باب القلعة ، ونزل إلى السّلطان ، والتمس منه العفو فعفا عنه . وردّ «رعبان» إليه ، وسار إلى حلب ، فأقام بها إلى أول ذي الحجة من سنة ثلاث وتسعين .

وكان الملك العادل قد سار إلى حلب ، فأقام بها إلى أول ذي الحجة من سنة ثلاث وتسعين .

وكان الملك العادل قد سار إلى «الغور» لحركة الفرنج ، واستصحب معه نجدة من الملك الظَّاهر ، فوصلت رسله إلى السّلطان الملك الظاهر ، يخبره أن الفرنج قد عزموا على قصد جبلة واللاّذقية فخرج الملك الظاهر إلى «الأثارب» ، وسيّر الحجَّارين والزرَّاقين ، لهدم حصنَيْ جبلة واللَّاذقية . وسار «المبارز أقجا» لهدم «جبلة» ، فهدموا سورها ودورها ، وأجلى أهَلها منها .

وسار غرس الدين قلج ، وابن طمان ، لهدم اللَّاذقية ، فنقبوا القلعة ، وعلَّقوها ، ورفعوا ذخائرها ، وهدموا المدينة ، وذهب أهلها ،

وبقي العسكر منتظراً وصول العدوّ ، ليلقوا النار في الأخشاب المحشوّة في الأنقاب ، فلم يصل أحد منهم .

وجاء البرنس في البحر تحت «المرقب» ، وطلب غرسَ الدّين وابن طهان فوصلا إليه ، وكلَّماه على جانب البحر ، فأشار عليهما بأن لا تهدم الَّلاذقية ، وأخبرهما أن الفرنج فتحوا «صيدا» و«بيروت» ، وعادوا إلى «صور» .

فسيّرا وأعلما السلطان وهو «بريحا»[1] ، فأمر ببناء ما استهدم منها ، وسار إلى «حارم» ، فوصلها في محرّم سنة أربع وتسعين . وأقام بها مدّة، ثم رحل إلى الَّلاذقية ، فعمّرها وعمّر ضياعها ، وتوجه إلى حلب .

وتوفِّي غرس الدّين قلج ، فعصى أولادُه بالقلاع التي كانت بيده ، وهي : دركوش» ، و«الشغر» ، و«بكاس» ، و«شقيف الروج» ، وامتنعوا من تسليمها إلى الملك الظاهر ، فخرج إليها ، ونازلها ، وأخذ عليها النقوب ، واستنزلهم منها ، وصفح عن جرمهم ، وأجرى لهم المعيشة السنيّة ، وتقدّم عنده منهم : سيف الدين عليّ بن قلج .

---

١ ـ أرجح أنه قصد هنا أريحا جبل السماق ، لا أريحا فلسطين ، وتتبع بلدة أريحا الآن محافظة أدلب ، وتبعد عنها مسافة ١٣ كم وعن المعرة ٢٠ كم ، و٦٠ كم عن جسر الشغور (الشغر) .

ودخلت سنة خمس وتسعين

ومات الملك العزيز بمصر ، واختلف أمراؤها ، فمال الأسديّة إلى الملك الأفضل والناصريّة إلى الملك العادل . وانقادَ الناصريّة على نيّاتٍ غير موافقة ، واستدعوا الملكَ الأفضلَ ، فسار من «صرخد» إلى مصر ودخلها ، وتلقّاه إخوته على مرحلتين منها ، واستوثقوا منه بالأيمان ، على أن يكون كافلاً للملك المنصور «محمد بن الملك العزيز» ومربّياً له .

وخرج الجحاف ، وجهاركس ، إلى «ميمون» إلى القدس ، فقيّد «الملك الأفضل» أخاه «الملك المؤيّد» وجماعة من الأمراء كاتبوا «الملك العادل» ، وأرسل الملك الظّاهر وزيره نظامَ الدين أبا المؤيد محمد بن الحسين ، إلى أخيه الملك الأفضل ، مهنئاً له بولاية مصر ، فأقام عنده مدّة ، والرسل تتردّد إليه من «الملك الظّاهر» في الاتفاق على الملك .

وكان الملك العادل ، إذ ذاك محاصراً «ماردين» ، وقد أشرف على أخذها ، فسار الملكُ الأفضلُ إلى دمشق ، وخرج الملك الظاهر إلى

«حارم» ، لغدر وقع من الفرنج بناحية «العمق» ، وأغاروا على التركمان ، في تلك الناحية . وسيّر بعضَ العسكر إلى «خناصرة» ليقطع الطريق على الملك العادل إن توجَّه إلى دمشق .

وصالح الملكُ الظَّاهرُ الفرنجَ ورحلَ إلى «مرج قراحصار» في سلخ رجب من سنة خمس وتسعين .

وسار الملكُ العادلُ حتى بلغ إلى «تدمر» ، وسار في البرية إلى دمشق ، ونزل الملك الأفضل على دمشق ، في نصف شعبان من السنة ، ونزل بعضُ عسكره في «الميدان» ، وهجم بعضُ العسكر المدينةَ بمخامرة من أهلها ، ونادوا بشعار الملك الأفضل .

وكان مجدُ الدّين ـ أخو الفقيه عيسى ـ هو الَّذي دخل منها حتى بلغ السّوق ، وشربوا الفقاع ، فخرج الملك العادل ، من القلعة ، وأخرجهم من البلد .

وخامر بعضُ العسكر على «الملك الأفضل» ، ودخلوا في اللَّيل إلى دمشق ، فاختلّ الأمر عند ذلك ، وتأخر الملكُ الأفضل إلى «جسر الخشب» .

وسار الملك الظَّاهر إلى حماة ، فالتقى سيف الدين طغرل الظَّاهري قطعةً من عسكر حماة سائرة إلى منبج فظفر بها «طغرل» وأسرَ رجالها ، وأحضرَهم إلى الملك الظاهر ، فأطلقهم بعدّتهم ودوابّهم .

ولّما وصل الملك الظاهر إلى «حماة» ، منعه عسكرها من العبور على الجسر فعبر قهراً ، ونزل عليها ، وقاتلها ، فهادنه الملكُ المنصورُ صاحبها ، وأخرج اليه تقدمةً سنيةً ، وسيّر عسكره في خدمته ، فأقطعه الملكُ الظاهر «بارين» وكانت في يد ابن المقدّم ، فخرج صاحب «حماة» إليها محاصراً لها .

وسيَّر الملك الظاهرُ إلى «الموصل» رسولاً يأمر صاحبَها بانجاد «ماردين» ؛ وترحيل الملك الكامل والملك العادل عنها ، ووصل الملكُ الظَّاهرُ إلى دمشق ، وَاجتمع بالملك الأفضل في منزلته ، وخيموا بأرض «داريّا» ، ثم إنَّهم زحفوا على المدينة ، وقاتلوها .

وبلغ الملكَ الظاهرَ أنَّ «جهاركس» و«سامة» و«سراسنقر» وغيرهم ، قد عزموا على الدخول إلى دمشق ، نجدة للملك العادل ، فسيّر الملكُ الظاهرُ عسكراً مقدّمه «سيف الدّين بن علم الدّين» ، ليمنعوهم من الدخول ، فاختلفوا في الطريق ، ودخل المذكورون إلى الملك العادل ، فاشتدّ بهم أزره ، ولم يكن ينصح في القتال ، وقت الحصار غيرُ العسكر الحلبيّ ، فأما المصري فأكثره منافقٌ .

ووصل المواصلة إلى «ماردين» ؛ ورحَّلوا الملكَ الكامل عنها ، ونهبوا ما كان لعسكره بها ، فضربت البشائر خارجَ دمشق في العسكر .

وسيَّر الملك «الظَّاهر» عسكراً ، مقدَّمه «سيف الدّين» المذكور إلى الشرق ، ليجتمعوا مع المواصلة ، ويحصروا بلاد الملك العادل بالشَّرق ، وأقطع سيفَ الدّين «سروج» ، وكان الأمر قد استقرَّ مع المواصلة ، أن يردَّ

إليهم سروج والرقّة . فلما علموا بأنَّ السلطان أقطعَ سيفَ الدين «سروج» انحرفوا عنه ، وعادوا ، وخرج عسكر الرّها ، فوقعوا على سيف الدين فانهزم عن سروج .

وفتح الملكُ المنصورُ صاحبُ حماة «بارين» في ذي القعدة من ابن المقدَّم ، وعوّضه عنها بمنبج ، بعد ذلك ، على ما سنذكره فيها بعد .

ووصلت رسُل الشَّرق إلى الملك الظَّاهر ـ وهو على دمشق ـ واتفقوا على أن يكون لصاحب الموصل حرَّان ، والرُّها ، والرَّقة ، وسروج ، وأن يكونوا يداً واحدة على مَنْ خالفهم ، وتحالفوا على ذلك ، في ذي الحجّة من سنة خمس وتسعين وخمسمائة .

ودخلت سنة ست وتسعين

والحصار على دمشق على حاله ، وأكثر الأجناد يحملون الأزواد في اللَّيل ، ويبيعونه على أهل البلد ، فأخرج الملكُ العادلُ خزائنه جميعها ، ثم اقترض من التُّجار جملةً كبيرةً ، وأمر بعمل الزّوايا والقرب ، للصعود إلى مصر ، واستدعى ابنَه الملكَ الكاملَ من البلاد الشرقيَّة ، فجمع وحشد .

وسيّر الملكُ الظاهرُ إلى سيف الدّين بن علم الدّين ، وإلى الملك المنصور صاحب حماة ، فاجتمعوا على «سلمية» ليمنعوا الملك الكاملَ من العبور ، فعبر في جيش عظيم ، لم يكن لهما به طاقة ، فانحازوا إلى «حماة» ، وساق سيف الدين بن علم الدين ، وأعلم السلطان الملك الظَّاهر بذلك .

ووصل الملكُ الكاملُ إلى دمشق ، فرحل المَلكُ الظَّاهر ، والملكُ الأفضل ، إلى «مرج الصُّفر» ، ثم إلى «رأس المآء» .

ورحل الملكُ الظَّاهرُ ، وأخفى نفسه جريدة إلى ناحية «صرخد» ومعه الملك المجاهد صاحب حمص ، وسار إلى طرف «السّماوة» ، وخرجوا إلى

«تدمر» . وسار الملك الظَّاهر إلى حلب ، ووصل بعده بغال الثقل ، دون الجمال على البريّة ، حتى وصلوا إلى «القريتين» ، ولحقهم الملكُ الكاملُ «بالقريتين» ، وهو مسرع إلى الشرق ، ووقع عسكرُ حلب على قطعة من أصحابه ، فظفروا بهم .

فلما وصل الملك الكامل ، وقد دخل ثقلُ السُّلطان إلى «القريتين» ، سيّر إلى مقدّم عسكر حلب «علم الدين قيصر الناصريّ» ، واستدعاه وقال له : «ما بيننا وبينكم إلَّا الخير ، وما جئنا لنتبعكم ، فردّوا علينا ما أخذتم لنا» . ففعل ذلك ، وسار الملكُ الكاملُ إلى الشرق ، ووصلت البغال إلى حلب ، في تاسع عشر شهر ربيع الأوَّل .

وأما الملكُ الأفضل ، فانَّه توجَّه من «رأس المآء» إلى مصر ، وتوجَّه ثقلُ الملك الظاهر وخزانتُه معه إلى مصر . وخرج الملكُ العادل من دمشق ، وسار خلفه إلى مصر ، فدخلها ، وهربَ الملكُ الأفضل إلى «صرخد» .

واستولى الملكُ العادلُ على الديار المصرية ، في صورة الكافل ، والمربّي ، للملك المنصور محمد بن العزيز ، وسيّر خزانةَ «الملك الظَّاهر» ، وبقيةَ ثقلة جميعه إليه ؛ وخفرَ أصحابَه حتى وصلوا إلى حلب ، في نصف جُمادى الأولى ، والسّلطان «بتلّ السلطان» ، فدخل إلى حلب .

ووصلته رسلُ الملك العادل تطلب منه الموافقةَ ، فلم يجبهم إلى ذلك ، وخرج إلى «بكاس» و«حارم» فمرض . ودخل حلب ، واشتدَّ مرضُه، وطلب إليه إلى القلعة الزهاد الَّذين كانوا بحلب، مثل أبي الحسن

الفاسي ، وعمّي أبي غانم ، وعبد الرحمن ابن الأستاذ ، وسألهم الدّعاء ، وتبرك بهم ، وأزال مظالم كثيرة . ثم أبلّ من مرضه ذلك ، في ذي الحجة من سنة ستّ وتسعين .

وانفصل عنه صاحب حمص وصاحب حماة ، وصارا مع عمّه الملك العادل ، وعوّض صاحب حماة عزّ الدّين بن المقدّم بمنبج عن «بارين» ، باشارة الملك العادل . ومات ابن المقدّم بأفامية ، وصار فيها أخ له صغير .

واستقلّ الملكُ العادل بملك مصر ، وقطع الخطبة والسكّة للملك المنصور بن العزيز ، واختلف جندها ، فمنهم من مال إلى تمليك الملك العادل ، وأقام في خدمته ، ومنهم من كان يريد ابن العزيز ، فانفصل منهم جهاركس ، والجحاف ، وغيرهما ، فانهم انفصلوا عن مصر ، واتفقوا مع الملك الأفضل .

فوصل الملك الأفضل إلى أخيه السلطان الملك الظاهر إلى حلب ، في عاشر جمادى الأولى من سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، ووصل معه الجحاف ، وأخبراه أن جهاركس «بالغور» ، مع العسكر ، واتفقوا على محاصرة دمشق .

وسيّر الملك الظاهر إلى الموصل بطلب نجدة تصله ، وبرز مع أخيه الأفضل ، وقصدا منبج ، ففتحها الملك الظّاهر ، وقبض على ابن المقدّم وحبسه ، وأقطعها الجحاف ، بعد أن خرب حصنها . وكان ابن فاخر سعد الدّين مسعود بقلعة نجم ، نائباً عن ابن المقدّم ، وأخته معه ، فسلّمها إلى «الملك الظّاهر» ، وعوضه «بمائز» ـ قرية من بلد عزاز ـ وسلّمها الملك الظّاهر إلى الأفضل .

وسار إلى أفامية ، ومعه ابن المقدم ، فعاقبه تحتها ليسلّموا اليه ، فلم يسلّموا ، فسيّره ، وحبسه بحلب ، وأقام بكفرطاب ، واستولى على بلدها ، ونزل بمعرة النعمان ، ونهب بلدها ، وأخذ ما فيها لبيت المال ، وسار إلى حماة ، فنزل عليها ، في شعبان ، وقاتلها إلى أن صالحه الملك المنصور صاحبها ، ووزن له ثلاثين ألف دينار ، ووافقه .

وسار إلى حمص ، فصالح الملك المجاهد صاحبها ، ووافقه ، وسار إلى دمشق فنازلها ، واستدعى «جهاركس» و«قراجا» من الغور ، فدافعا عن الوصول ، فسار السلطان الملك الظاهر اليهما بنفسه ، ولا طفهما حتى رحلا معه ، بعد أن أعطى الملك الأفضل قراجا «صرخد» ، وأخرج أمه وعياله منها ، ونزلوا على دمشق ، وعزموا على قتالها ، ففند جهاركس عن ذلك ، وكان قد صار في الباقين مع الملك العادل ، وقال : «المصلحة أننا نلقى الملك العادل ، فاذا كسرناه تمّ لنا ما نريد» .

وكان الملك العادل قد نزل من مصر إلى «الكرك» ، ثم توجّه إلى نابلس ، فلما رأى جهاركس جدَّ الملك الظَّاهر على حصار دمشق هرب من العسكر إلى الملك العادل إلى نابلس ، وهرب قراجا إلى صرخد ، وعصى بها ، وتركا خيامهما على حالها وبركهما فأنهب السلطان الملك الظاهر ذلك جميعه ، ثم زحف بالعساكر على دمشق ، وقاتلوها قتالاً شديداً ، وأحرقوا «العقيبة» ، ونهبوا الخانات .

وراسل الملك العادل صاحب الموصل ، فاتفق معه ، ورجع عن الملك

الظاهر ، بعد أن وصل إلى «رأس عين»[1] .

وسار الملك «الفائز بن العادل» من البلاد الشرقية ، طالباً تشعيث بلاد السلطان الملك الظاهر ، وشغل خاطره عن حصار دمشق ، فسيّر الملك الظاهر «المبارز أقجا» ـ وكان من أكبر أمراء حلب ـ ومعه بعض العسكر ، فنزل على «بالس» ونهبها ، وسار إلى «منبج» فنزلها ، فوصل الملك «الفائز» إليها ، فانهزم بمن كان معه من العسكر إلى «بزاعا» ، ودخلها الفائز ، وبنى قلعتها وحصّنها ، وسار منها طالباً عسكر حلب إلى «بزاعَا» ، فاندفعوا بين يديه إلى حلب ، وأقام على بزاعَا أياماً ، وجفل بلد حلب خوفاً منه ، وهرب فلّاحوه .

ورحل إلى أبيه إلى نابلس ، فسيّر الملك العادل نجدة تدخل إلى دمشق ، فبلغ حديثها الملك الظاهر ، وقد أحدقت العساكر بدمشق ، فكمن لهم كميناً ، فوقعوا عليهم ، وقتلوا منهم جمعاً كثيراً ، وانهزم بعضهم ، ولم يدخل إلى المدينة إلّا القليل . ونكث صاحب حماة ، وخرج إلى ناحية «الروج» ، وأغار عليه ، ونهب رستاق «شيرز» .

وسار عسكر حلب إلى منبج ، فلم يجد فيها مطمعاً ، واستدعاهم الملك الظاهر ، فمضوا إليه إلى دمشق ، وطال الحصار ، وضجر العسكر ، وهرب شقير ، والجحاف ، بعد استيلاء الفائز على منبج ، وكانت خبز الجحاف .

١ ـ رأس العين بلدة في الجزيرة السورية تتبع محافظة الحسكة وتبعد عن الحسكة /٨٤/كم ، وهي إلى الشمال الغربي منها .

ووقع الخلف بين الملك الأفضل والملك الظاهر على دمشق ، فالملك الظاهر يريدها لنفسه ، لأنه أخرج الخزائن ، وبذل الأموال ، وحصرها بعسكره ، والملك الأفضل يريدها لنفسه لأنها بلده ، وأنه أخرج «صرخد» من يده بسببها . وحصل بينهما منافرة أوجبت رحيل الملك الظاهر ، ومعه ميمون القصري ، وسراسنقر ، وأيبك فطيس ، والبكي الفارس ، والقبيسي .

ورحل الملك الأفضل فنزل حمص ، عند صاحبها الملك المجاهد ، وزوَّج ابنه «الملك المنصور إبراهيم» بابنة الملك الأفضل .

وسار الملك الظاهر إلى حماة ، فأغار عليها ، وشعَّث بلدها ، وصانع صاحبها الملك المنصور ، على مالٍ أخذه منه ، وسار إلى منبج ، وعزم على أن يهجمها بالسيف ، ويقتل جميع من بها ، لأنهم قاموا مع الملك «الفائز» ، فشفع إليه الأمراء في أن يسلِّموها طائعين ، ويعفو عنهم ، فتسلّمها ، وأقطعها ابن المشطوب ، في المحرّم من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

ثم دخل إلى حلب ، وأقطع ميمون القصري عزاز ، وشيح ، وبلد الحوَّار ، وأقطع أيبك فطيس أقطاعاً أرضاه ، وعاد عنه سراسنقر ، وتسلَّم السلطان أفاميّة من ابن المقدّم ، وعوضه عنها «بالراوندان» .

وتوفي وزير السّلطان الملك الظاهر «جمال الدين أبو غالب عبد الواحد بن الحُصين البغدادي» في شعبان سنة سبع وتسعين ، وكان في خدمة أبيه الملك الناصر ، فانتقل بعد موته إلى حلب ، ووزر له ، وصار وزيره

بعده نظام الدين أبو المؤيد محمد بن الحسين .

ووصل الملك العادل إلى دمشق ، فتوجّه إليه الملك المجاهد صاحب حمص ، ومعه الملك الأفضل ، وترقّق اليه ، فأعطى الملك الأفضل «شبختان» و«جملين» و«الموزر» و«قلعة السنّ» و«سميساط» . وسار إليها الملك الأفضل ، ونزل الملك العادل إلى حماة ، وراسل الملك الظّاهر ، حتى استقرَّ الصلح بينه وبينه ، على أن خطب له الملك الظاهر بحلب ، وضرب السكَّة باسمه مع اسمه ، في شهر جمادى الآخرة ، من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

وصعد الرسول شمس الدين بن التَنبي إلى المنبر، وقت اقامة الدعوة له ، يوم الجمعة ، ونثر ذهباً كثيراً على الناس . وبلغ الملك الظاهر ، عن ابن المشطوب ، أنَّه كان قد عزم على المخامرة ، فسيّر إلى «منبج» العسكر ، وأخذها منه ، وعفا عنه ، وهدم قلعتها وسورها ، فمضى ابن المشطوب إلى الشرق .

وجمع الملك الظَّاهر العرب في دابق ، لأخذ العداد منهم ، وخاف ابن المقدّم منه ، فهرب إلى «الراوندان» ، ليعصي بها ، فسار الملك الظاهر خلفه ، ولم يمهله ، فلم يبت في قلعتها غير ليلة واحدة . ومضى إلى «بدر الدين دلدرم» ، بتل باشر ، منهزماً من السلطان . فوصل السلطان اليها ، ونزل عليها محاصراً لها ، فسلَّمها من كان بها إليه ، وحاز جميع ما كان فيها من الذخائر والأموال ، ورتَّب أمورها .

وسار منها إلى منبج ، وسيَّر نجدة للملك الكامل ابن عمه العادل ، وكان نازلاً على «ماردين» ، لأن صاحبها صار مع ركن الدين بن قلج أرسلان، ونزل السلطان في «بدّايا» ، واتفق الأمر بينه وبين [صاحب] «ماردين» وابن الملك على الصلح ، فعاد إلى حلب بعد أن توجه إلى «البيرة» .

وخرج من البحر جمع كبير من الفرنج ، في سنة تسع وتسعين وخمسمائة . ووصلت طائفة منهم إلى جهة «انطاكية» ، مجتازة على اللاذقية في البر ، وكان مقطع اللاذقية إذ ذاك ، سيف الدّين بن علم الدين ، وعبروا في أرض الّلاذقيّة ، على كره من المسلمين ، وفي عزمهم إنْ رأوا لهم طمعاً في الّلاذقية يأخذوها .

فخرج سيف الدّين بعسكره ، والتقوا ، ونصره الله عليهم ، وأسر ملوكهم ومقدّميهم ـ وكان ملكهم أعور ـ وقتل منهم جمعاً كثيراً ، ووصل الأسرى ، والملك ، والرؤوس ، والخيل ، والسلاح ، إلى حلب وكانت غنيمة عظيمة .

وعصى الملك الأفضل على عمّه الملك العادل ، في البلاد التي كان أعطاه إيّاها ، فسيّر ، واستعاد منه شبختان ، وجملين ، والموزر ، وسروج ، والسنّ ، وسار الملك الظاهر إلى «قلعة نجم» ، فأخذها من الملك الأفضل خوفاً أن يستولي عليها عمّه ، وكان «الملك الظّاهر» قد سلّمها إلى الأفضل ، فوصلت أمّ الملك الأفضل إلى حلب ، تسأل الملك الظاهر ،

سؤال عمه فيه ، وفي ردّ البلاد عليه ، فسيّر معها إلى دمشق «سيف الدّين بن علم الدّين» في ذلك ، فلم يجب إلى ترك شيء من البلاد عليه ، سوى «سميساط» . وشرط عليه أن لا تكون له حركة بعد ذلك .

ودخلت سنة ستمائة

ووصلت الأخبار بحركة الفرنج إلى «جبلة» و«الّلاذقية» ، فسيّر السّلطان إليها العساكر ، وأمرهم بخراب «جبلة» و«الّلاذقية» ، فلم يكن للفرنج حركة ، وخربت قلعة «اللاذقية» و«العتيقة» ـ وكانت من جهة الشمال ـ وذلك بعد أن أخذت اللاذقية من ابن جندر ـ سيف الدين بن علم الدين .

ووُلد للسُّلطان «الملك الظَّاهر» ولده ، الملكُ «الصَّالح أحمد» في صفر ، وسر به سروراً عظيماً ، وزيّن البلد والقلعة ، ولبس العسكر في أجمل هيئة وزيّ . ولبس السلطان ، ولعب العسكر معه في ميدان «باب الصغير» .

وفي محرّم سنة إحدى وستّمائة ، هجم ملكُ الأرمن «ابن لاون» ـ وهو من ولد «بردس الفقاس» ، الذي كان في زمن سيف الدّولة [صاحب] أنطاكية ـ فسيّر الملكُ الظاهر عسكراً من حلب ، لنجدة البرنس صاحبها ، فلما وصلوا إلى «العاصي» ، ضعف أمر ابن «لاون» عندهم ، وقاموا عليه ،

وأخرجوه منها ، وقتلوا جماعة كبيرة من أصحابه ، فعاد عسكر حلب إليها ، ففسخ «ابن لاون» الهدنة ، وأغار في بلد العمق ، واستاق مواشيها ، وشرع في عمارة حصن داثر في الجبل ، بالقرب من «دربساك» ، ليضيّق به عليها . وأرسل إلى السلطان ، وسأله أن يخلي بينه وبين «أنطاكية» . وأن يعيد جميع ما أخذه من «العمق» ، فأجابه إلى ذلك ، وهادنه على هذا الأمر . ونزل على «أنطاكية» ، وخرّب رستاقها ، ووقع فيها غلاء عظيم ، فكان الملك الظّاهر يمدّ أهل «أنطاكية» بالغلال ، حتى قويت .

ودخلت سنة اثنتين وستمائة

فجرّد «ابنُ لاون» في جمادى الأولى ، في اللَّيل ، عسكراً في ليلة الميلاد ، وجاء على غفلة إلى ربض «دربساك» ، فلم ينكروا وقود النار في ليلة الميلاد ، فقاتلهم أهل الربض ومَن به من الأجناد ، في بيوت الربض ، فلم يظفروا منهم بطائل ، وطلع الفجر ، فانتشروا في أرض «العمق» ، ونهبوا من كان فيه من التركمان ، وداموا إلى ضحوة ذلك النّهار ، ورجعوا .

وابتدرت عساكر تلك الناحية من المسلمين فلم يدركوهم ، ودخل الأرمن إلى «جبل اللكّام» ، فجاءهم في اللَّيل ثلج عظيم ، وهلك معهم من الخيل والمواشي ، فكانوا يسلخون الشاء ويلبسون جلودها ، لشدّة البرد ، فسيّر الملك الظاهر عسكراً من عسكر حلب يقدمه «ميمون القصري» ، ومعه «أيبك فطيس» ، فنزلوا على «حارم» ، وقطعة من العسكر مع ابن طمان «بدربساك» ، وسيف الدين بن علم الدّين نازل بعسكره على «تيزين» - وكانت جارية في أقطاعه - وفي أكثر الأيَّام تجري وقعات بين العسكر المقيم «بدربساك» ، وبين عسكر ابن لاون «ببغراس» .

وخرج السّلطان إلى «مرج دابق» ، في شعبان من هذه السّنة ، للدّخول إلى بلد «لاون» ، وجمع العساكر ، وسيّر إليه عمُّه «الملك العادل» ، وغيره من ملوك الإسلام النجد ، فأقام «بدابق» إلى أن انسلخ شهر الصيّام .

فسار «ابن لاون» من «التينات» ، وجاء على غير طريق اليزك في الليل ، فأصبح في «العمق» غائراً على غرّة من العسكر ، وكبس العسكر الذي كان مع ميمون ، حتى حصلوا معهم في الخيام ، وقابلوهم على غير أهبة فقاتلهم المسلمون ، فقتل منهم جماعة ، ولم يلبث إلاّ قليلاً ، وعاد ، وساق سيف الدين من «تيزين» ، فوجده قد رجع .

وبلغ الخبر إلى السّلطان ، وهو «بدابق» ، فسار بالجيوش التي معه فنزل «بالعمق» ، واجتمع من العساكر والتّركمان ما لا يحدّ كثرة ، فسيّر «ابن لاون» يبذل الطاعة ، وأن يهدم الحصن الذي بناه بقرب «دربساك» .

فأعرض عنه ، وردّ فلاّحي «العمق» ، وعمرَ ضياعَه ، وكمل استغلالَ ذلك البلد ، والرُّسل تتردّد في إصلاح الحال ، إلى أن استقرّت القاعدة : على أن يهدم «ابن لاون» الحصنَ الذي بناه ، ويردّ جميع ما أخذ في الغارة ، ويردّ جميعَ أسارى المسلمين الذين في يده ، وأنْ لا يعرضَ «لأنطاكية» . وقرَّر الصُّلح إلى ثماني سنين ، وخرب الحصن ، ورد ما استقرَّ الأمر عليه .

ودخل السُّلطانُ حلبَ ، في سنة ثلاث وستمائة ، وأمَّر جماعة من مماليكه وأصحابه . وعاث الفرنج على بلد «حماة» ، في سنة خمس وستمائة ،

فسيّر الملك الظاهر من حلب ، نجدة من عسكره .

ونزل الملك العادل على «قدس» ، وغارت خيله على طرابلس ، وخربوا حصونها ، وشتّى «بحماة» إلى أن انقضى فصل الربيع ، وعاد إلى دمشق ، وعاد ابنه «الأشرف» ، إلى بلاده ، من خدمة أبيه ، فعبر في حلب ، فالتقاه الملك «الظّاهر» ، واحتفل به وأنزله في داره بقلعة حلب ، وقدّم له تحفاً جليلة من السّلاح ، والخيل ، والذّهب ، والجوهر ، والمماليك ، والجواري ، والثياب ، بما قيمته ألف دينار ، وودّعه بعد سبعة أيام ، إلى قراحصار ، وعاد إلى حلب .

وقصد كيخسرو بن قلج أرسلان بلاد «ابن لاون» ، وطلب نجدة من السّلطان الملك الظّاهر ، فأرسل إليه عسكراً مقدّمه سيف الدّين بن علم الدين ، وفي صحبته أيبك فطيس ، فاجتمعوا بمرعش ، ونزلوا على برتوس[1] في سنة خمس وستمائة ، فافتتحوها ، وافتتحوا حصوناً عدة من بلد ابن لاون .

فراسل «ابن لاون» الملك العادل ، والتجأ إليه ، فأرسل الملك العادل إلى كيخسرو وإلى الملك الظاهر ، فابتدر كيخسرو ، وصالح «ابن لاون» على أن يردّ حصن «بغراس» إلى «الداويّة» ، وأن لا يعرض لأنطاكية ، وأن يردّ ماله الذي تركه عنده ، في حياة أخيه ركن الدّين . وكان قد خاف من أخيه ، فقدم حلب ، وأقام عند الملك الظّاهر مدّة ، وخاف الملك الظّاهر من

١ ـ كذا بالأصل ، وفي مفرج الكروب «غرقوس» فلعلها تصحيف «عربسوس» أي «أفسوس» .

أخيه ركن الدّين ، أن يتغيَّر قلبه عليه بسببه ، وأنَّه ربّما يطلبه منه ، فلا يمكنه تسليمه إليه ، فأعرض عنه . فدخل إلى «ابن لاون» ، ثم خاف منه ، فانهزم ، وترك عنده مالاً وافراً ، فاحتوى عليه فردَّه عليه ، عند هذه الهدنة . ودفع إليه جميع الأسرى من المسلمين ، الذين كانوا في بلاده ، وأن لا يعرض لبلاد السّلطان الملك الظاهر . ووصلت نجدة حلب إلى حلب .

وخرج العادل من دمشق ، **في سنة ستّ وستمائة** ، وطلب من الملك الظَّاهر نجدة ، تكون معه إلى الشرق ، ليمضي إلى خلاط ، لدفع «الكرج» عنها ، فسيّر إليه نجدةً ، وعبر «الفرات» . فلما وصل إلى «رأس عين» ؛ رحل «الكُرج» عن خلاط ، ووصل إليه صاحب «آمد» ، فسار في العسكر إلى «سنجار» ، وأقطع بلد الخابور ، ونصيبين .

ونزل على «سنجار» محاصراً لها ، وشفع إليه مظفَّر الدّين بن زين الدّين ، في صاحب سنجار ، فلم يقبل شفاعته . وقال : «لايجوز لي في الشَّرع ، تمكين هؤلاء من أخذ أموال بيت المال في الفساد ، وترك خدمة الأجناد ، وفي مصلحة الجهاد» ، وضايق سنجار ، وقاتلها في شهر جمادى الآخرة .

وقام نور الدّين بن عزّ الدّين ـ صاحب الموصل ـ في نصرة ابن عمه صاحبها ، واتَّفق مع «مظفَّر الدّين» ، وتحالفا ، وأفسدا جماعةً من عسكر «الملك العادل» وراسلا «الملك الظاهر» ، على أن يجعلاه السّلطان ، ويخطبوا له ، ويضربوا السكَّة باسمه .

وجعل «الملك الظَّاهر» يداري الجهتين ، والرسل تتواتر إليه من البلدان ، وهو في الظاهر في طاعة عمّه ، وعسكره معه ، وفي الباطن في النّظر في حفظ سنجار ، ومداخلة المواصلة ، وهو يظهر لعمّه أنه متمّسك بيمينه له ، إلى أن أرسل أخاه «الملك المؤيّد» ، ووزيره «نظام الدّين الكاتب» إلى عمّه ، معلماً له أن رسول الموصل ، ومظفَّر الدّين ، وصلا يطلبان منه الشفاعة إليه ، في إطلاق سنجار ، وتقرير الأمر على حالة يراها .

وتوسّط الحال عند قدومه ، على أن شفع فيهم الملك الظَّاهر ، وأطلق لهم «سنجار» ، واستنزلهم عن «الخابور» و«نصيبين» . وعاد «الملك المؤيّد» ، مِنْ حضرة عمّه بالبّر الوافر ، فلما وصل «رأس عين» ، دخل إليها في ليلة باردة كثيرة الثلج ، فنزل في دار فيها منزل مجصّص ، فستر بابه ، وسدّ ما فيه من المنافس ، وأوقد فيه نار في منقل ، وعنده ثلاثة من أصحابه ، فاختنق ، وواحد من أصحابه ، وحُمل إلى «حلب» ميتاً في شعبان ، من سنة ست وستمائة . وجرى على الملك الظَّاهر منه ما لا يوصف من الحزن والأسف .

ووصل الملك العادل إلى «حرّان» ، وخافه صاحب الموصل والجزيرة ، فراسل الملك الظَّاهر ، وطلب منه أن يخلي بينه وبين ملوك الشرق ، وأن يحتكم في ما يطلبه منه ، وراسله صاحب الموصل ، وصاحب إربل ، وصاحب الجزيرة ، يعتضدون به وهو لا يؤيسهم ، فخرج السلطان إلى «حَيلان» بعسكره ، ثم رحل إلى «السمّوقة» وراسل عمّه في مهادنتهم ، وتطييب قلوبهم ، وهو مخيم على «السموقة» ـ على نهر قُوَيْق ـ وطلب منه أن تكون كلمةُ المسلمين كلِّهم متفقة .

وكذلك تدخّل في الصُلح ملك الرُّوم ، وأن يقصدوا الفرنج بجملتهم ، فانَّ الفرنج في نية التحرك ، وخامر جماعة من عسكر الملك العادل ، ووصل ابن كهدان إلى السّلطان الملك الظّاهر ، فأكرمه ، فتخاذل عسكر الملك العادل ، فاتفق الحال بينهم على الصلح ، ودخول ملوك الإسلام فيه .

وتمّت المصاهرة بين «الملك العادل» و«الملك الظّاهر» ، على ابنته الخاتون الجليلة «ضَيْفَةَ خاتون» ـ بنت الملك العادل ـ وشرع السّلطان في عمل «قناة حلب» وفرَّقها على الأمراء ، والخواص . وحرّر عيونَها ، وكلس طريقها جميعَه ، حتى كثر الماء بحلب . وقسم الماء في جميع محال حلب . وابتنى القساطل في المحالّ . ووقف عليها وقفاً لإصلاحها ، وذلك في سنة سبع وستمائة .

وتوفّي وزير السّلطان الملك الظاهر «نظام الدّين محمد بن الحُسين» بحلب ، بعلة الدوسنطاريا ، في صفر سنة سبع وستمائة . وكان ـ رحمه الله ـ وزيراً صالحاً ، مشفقاً ، ناصحاً ، واسطة خير عند السّلطان ، لا يشير عليه إلاّ بما فيه مصلحة رعيته ، والإحسان إليهم . وقام بعده بكتابة الإنشاء والأسرار «شرف الدين أبو منصور بن الحصين» ، و«شمس الدين بن أبي يعلى» كان مستوفي الدواوين . فلما مات أبو منصور بن الحصين استقلّ بالوزارة ، وأضيف إليه ديوان الإنشاء مع الإستيفاء .

وعمر السلطان باب قلعة حلب ، والدركاه ، وأوسع خندقها وعمل

«البغلة» من الحجارة الهرقليّة ، وعمق الخندق ، إلى أن نبع الماء في سنة ثمان وستمائة .

وخرجت من مصر ، في هذه السنة ، الملكة الخاتون ، «ضيفة خاتون» بنت الملك العادل إلى حلب ، مع «شمس الدّين بن التنبي» . والتقاها الملك الظاهر بالقاضي بهاء الدين من دمشق ، ثم بالعساكر الحلبية بعد ذلك «بتلّ السّلطان» ، واحتفل في اللقاء ، وبالغ في العطاء ، ووصلت إلى حلب في النصف من المحرّم ، من سنة تسع وستمائة .

وملّك ابن التنبي قرية من قرى حلب ، من ضياع «الأرتيق»[1] يقال لها تلع ، وأعطاه عطاء وافراً ، وحظيت عنده حظوة ، لم يسمع بمثلها .

ووقعت النّار في مقام إبراهيم ـ عليهُ السَّلام ـ وهو الذي فيه المنبر ، ليلة الميلاد ، وكان فيه من الخيم والآلات والسلاح ما لا يوصف ، فاحترق الجميع ، ولم يسلم غير الجرن الذي فيه رأس يحيى بن زكريا ـ عليه السلام ـ واحترقت السقوف والأبواب ، فجدّده السلطان الملك الظّاهر ، في أقرب مدة أحسن مما كان .

وتوفي شرف الدين عبدالله بن الحصين كاتب السلطان ، واستقلّ شمس الدين عبد الباقي بن أبي يعلى بالوزارة ، في سنة تسع وستمائة .

وشرع الملك الظاهر في هدم «باب اليهود» وحفر خندقه وتوسعته ،

١ ـ الأرتيق : من كور حلب قرب عزاز . بغية الطلب لابن العديم ـ ص٤٣٧ .

وبناه بناء حسناً ، وغيّره عن صورته التي كان عليها ، وبنى عليه برجيْن عظيميْن ، وسمّاه «باب النصر» . وأتم بناءه ، في سنة عشر وستمائة .

وولُد للسُّلطان الملك الظَّاهر ولدُه الملك العزيز ، من ابنة عمه الخاتون «ضيفة خاتون» ، في يوم الخميس خامس ذي الحجة من سنة عشر وستمائة ، فضربت البشائر ، وزيّنت مدينة حلب وعقدت القباب ، وفي اليوم السابع عشر ، من ميلاده ، خَتَن السُّلطانُ أخاه الملك الصالح ، واحتفل بختانه ، ونصب الزَّورق ، من قلعة حلب إلى المدينة ، ونزل فيه الرجال ، وعملوا من الآلات والتماثيل التي ركبوها ، حالة النزول أنواعاً ، وطَهَّر أولادَ الأكابر من أهل المدينة ، وشرَّفهم ، وخلع عليهم .

ودخلت سنة إحدى عشرة وستمائة

فجدَّد السلطان الملك الظَّاهر «باشورة» حلب ، من «باب الجنان» إلى «برج الثعابين» ، وبنى لها سوراً قوياً ظاهراً عن السّور العتيق ، وجدَّد فيه أبرجة كالقلاع ، وعزم على أن يفتتح بالقرب من «برج الثعابين» باباً للمدينة ، ويسميه «باب الفراديس» ، وكان يباشر الإشراف على العمارة بنفسه .

وأمر في هذه السنة بتجديد ربض الظاهرية ، خارج «باب قنّسرين» ، فيما بينه وبين النهر ، فنسب إليه ، لذلك ، وخربت «الياروقية» ، وانتقل معظم أهلها إليه .

ووثب الإسماعيلية على ابن الابرنس ، «بكنيسة انطرسوس» ، فقتلوه ، فجمع البرنس جموع الفرنج ، ونزل على حصونهم ، وقتل وسبى ، وحصر «حصن الخوابي» فكتبوا إلى السّلطان ، يستغيثون به ، ويستنجدونه ، فاستخدم السلطان مائتي راجل ، وسيّر جماعة من عسكر حلب ، يحفظونه ، ليدخلوا إلى «حصن الخوابي» ، ويمنعوا الفرنج من الإستيلاء عليه .

وجرَّد عسكراً من حلب ، مع سيف الدّين بن علم الدّين ، ليشتغل الفرنج من جهة «الّلاذقية» ليتمكن الرجالة من الدخول إلى الحصن ، فلما سمع الفرنج بذلك ، كمنوا كميناً للرجالة والخيالة ، الذين يحفظونهم ، فأسروا الرجالة ، وقتلوهم ، وقبضوا ثلاثين من الخيالة ، وذلك في حادي عشر شهر رجب .

فعند ذلك خرج الملك المعظَّم بن العادل ، من دمشق ، بعسكره ، ودخل غائراً في بلد «طرابلس» ، فلم يترك في بلدها قرية إلاَّ نهبها ، وخربها ، واستاق الغنائم والأسرى ، فرحلوا عن «الخوابي» ؛ وأطلقوا الأسرى الذين أسروهم من أصحاب السلطان الملك الظاهر ، وراسلوه ، معتذرين ، متلطِّفين ، وافترقوا عن غير زبدة حصلت لهم .

وتمت الباشورة ، والباب ، والأبرجة ، في سنة اثنتي عشر وستمائة . ولم يتم فتح الباب ، وسدّه طغرل الأتابك ، لما مات الملك الظَّاهر ، إلى أن فتحه السلطان الملك النَّاصر ـ أعزَّ الله نصره ـ على ما نذكره ، في سنة اثنتين وأربعين وستمائة .

ودخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة

ووقعت المراسلة بين السلطان الملك الظاهر، وبين السلطان «كيكاوس بن كيخسرو» ؛ واتفقا على أن يَمضي السّلطان إلى خدمته ، ويتفق معه خوفاً من عمّه ، فأجابه «كيكاوس» إلى ذلك ، وخرج بنفسه إلى أطراف البلاد .

وندم السلطان على ما كان منه ، ورأى أنَّ حفظ بيته أولى ، وأنَّ اتفاقه مع عمّه أجمل ، فسيّر القاضيَ بهاء الدّين - قاضي حلب - إلى عمّه إلى مصر برسالة ، تتضمن الموافقة : أنَّه قد جعل ابنه الملك العزيز محمداً ، ابن ابنة الملك العادل ، وليَّ عهده ، وطلب من الملك العادل أن يحلف له على ذلك ، فسار إلى مصر ، فرتَّب السُّلطان خيلَ البريد ، تطالع بما يتجدّد من أخبار عمّه ، لينظر في أمره ، فإنْ وقع منه ما يستشعر منه ، خرج بنفسه إلى «كيكاوس» ، وهو مع هذا كلّه في همّه تجهيز الجيوش ، والإستعداد للخروج إلى «كيكاوس» ، والإجتماع معه على قصد بلد ابن «لاون» أولاً ، وكان «ابن لاون» قد ملك أنطاكية ، وضاق ذرعُ السُّلطان بمجاورته ، لعلمه بانتمائه إلى عمّه .

فوصلت الأخبار من «القاضي» من مصر ، أنَّ الملك العادل أجاب الملك الظاهر إلى كل ما اقترحه ، وسارع إلى تحصيل أغراضه ، ولم يتوقَّفْ في أمرٍ من الأمور .

وجعل كيكاوس يحث السّلطان على الخروج ، ويذكر أنه ينتظره ، ونشب السلطان به ، وضاق صدره ، وبقي مفكراً في أنَّ عمه قد وافقه ، ولا يرى الرّجوع عنه إلى ملك الروم ، فيفسد ما بينه وبين عمّه ، ويغضّ من قدره بالخروج إليه والإجتماع به إذا خرج ، وأنه إن رجع عن ذلك فسد ما بينه وبين ملك الروم ، والعسكر قد برز ، وهو مهتمّ في ذلك الأمر . وطلب الإعتذار إلى ملك الروم بوجهٍ يجمل ، فلشدّة فكره ، وضيق صدره ، هجم عليه مرض حادّ في جُمادى الآخرة في سنة ثلاث عشرة وستمائة . واعترته أمراض شتّى وماشيرا[1] . واشتدّ به الحال ، وجمع مقدّمي البلد وأمراءه ، واستحلفهم لابنه الملك العزيز محمد ، ثم من بعده لابنه الملك الصالح أحمد ، ثم من بعده لابن أخيه ، وزوج ابنته : الملك المنصور محمّد بن الملك العزيز . وجعل الأمير سيف الدّين بن علم الدّين مقدّم العسكر ؛ وشهاب الدين طغرل الخادم والي القلعة ، ومتولّي الخزانة ، وتربية أولاده ، والنظر في مصالح الدّار والنساء .

وأنزل «بدر الدين ايدمر» والي قلعة حلب منها ، وأقطعه زيادة على ما كان في يده من الأقطاع «قلعة نجم» ، بذخائرها وعددها ، و«زردنا» ،

---

١ - مرض تظهر آثاره على الوجه والجلد .

مع تسع ضياع أخر من أمّهات الضياع . وحلف إخوة السلطان على ذلك .

واستشعر السلطان من أخيه الملك الظافر «خضر» ـ وكان مقيماً «بالياروقية» ـ فأقطعه «كفرسود» ، وتقدّم إليه بالتوجّه إليها ، فسار إليها ، فسبقه الملك «الزّاهر» ، فاستولى عليها ، وعلى «البيرة» و«حروص» و«المرزبان» و«نهر الجوز» و«الكرزين» و«العمق» .

ومات السّلطان الملك الظاهر ـ رحمه الله ـ بقلعة حلب ، في الخامس والعشرين ، من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة وستمائة ، وكتم خبر موته ذلك اليوم ، حتى دفن في الحجرة ، إلى جنب الدّار الكبيرة ، التي أنشأها بقلعة حلب .

ثم أركب في اليوم الثاني من موته ولداه : الملك العزيز ، والملك الصالح ، وأنزلا بالثياب السّود إلى أسفل جسر القلعة ، وصعد أكابر البلد إليهما .

وأصيب أهل حلب بمصيبة فتّت في أعضادهم ، وكان له ـ رحمه الله ـ في كل دار بها مأتم وعزاء ، وفي كل قلية[1] نكبة وبلاء :

والنّاس مأتمهم عليه واحدٌ ... في كلّ دارٍ أنّة وزفيرُ

ووصل «القاضي بهاء الدّين» من الرّسالة ، في اليوم الثالث ، والوزير ابن أبي يعلى ، قد استولى على التّدبير ، وحكم على الصغير والكبير ، فصعد

١ ـ تصغير قلة ، وهي أعلى مكان في القلعة ، أو أنها تصحيف «قبيلة» .

القلعة ، واجتمع «بشهاب الدّين طغرل» ، وصرفه عن إضافة الأمور إلى الوزير .

وقرّر أن الأمراء يجتمعون ، ويتشاورون فيما يدبّرونه ، وأن لا يخرج الأمر عن رأي «شهاب الدّين» أيضاً ، فاجتمعوا «بدار العدل» ، واتّفقت آراؤهم على أن يكون «الملكُ المنصور بن العزيز» أتابك العسكر ، وأمرُ الإقطاع إليه ، وأمرُ المناصب الدينيّة يكون راجعاً إلى «شهاب الدين طغرل» ؛ وحلّفوه على ذلك ، وركب ، والأمراء كلّهم في خدمته .

ونزل الملك العزيز ، والملك الصالح ، وجلسا في دار العدل ، والملك العزيز في منصب أبيه ، وأخوه إلى جانبه ، والملك المنصور ، إلى جانبهما ثم اضطّربت الحال ، ولم يرض إخوة «الملك الظّاهر» ، بولاية المنصور .

ووصل في أثناء ذلك رسول الملك الرومي كيكاوس ـ وكان مخيّماً بالقرب من البلاد ينتظر وصول السّلطان «الملك الظّاهر» إليه ـ فسيّر رسولاً معزّياً ، ومشيراً بالموافقة معه ، وأن يكون «الملك الأفضل» أتابك العسكر ، فانّه عمّ الملك العزيز ، وهو أولى بتربيته وحفظ ملكه .

ومال الأُمراءُ المصريون مثل : «مبارز الدّين يوسف بن خُطْلُخ» ، و«مبارز الدين سُنْقُر الحلبي» ، و«ابن أبي ذكرى الكردي» ، وغيرهم ، إلى هذا الرأي ، وقالوا : «أنّ هذا ملك كبير ، ولا ينتظم حفظ الملك إلّا به ، وإذا صار أمر حلب راجعاً إليه كان قادراً على أخذ ثأره من عمّه ، وأخذ الملك به» .

ورأى القاضي «بهاء الدين» ، وسيف الدّين بن علم الدّين وسيف الدين بن قلج ، وغيرهما ، غير ذلك ، وقالوا : «إنَّ هذا إذا فُعِل ، كان الملك العزيز على خطر من الجانبين ، لأنَّ الملك العادل ملك عظيم ، وصاحب الديار المصرية ، فاذا قبلنا ذلك خرج من أيدينا ، فانْ كانت الغلبة له انتزع الملك من أيدينا . «وإنْ كانت عليه فلا نأمنُ أنَّ الملك الأفضل ، يتغلَّب على ابن أخيه وينتزع الملك منه ، ويستقلّ به ، كما فعل الملك العادل بابن العزيز ، والملك العادل قد حلف للملك الظاهر ، ولابنه الملك العزيز من بعده ، وهو ابن ابنته ، وابنته بقلعة حلب ، ونحن نطالبه بالوفاء بالعهد ، وهو يذبّ عن حلب كما يذبّ عن غيرها من ممالكه ، وأمور الخزائن وهي راجعة إلى شهاب الدّين طغرل ، وهو متولّي القلعة ، والرأي أن يقع الإتّفاق عليه ، فانَّ المال عنده بالقلعة ، وهو فيها ينتصف ممَّن خالفه ، وقد وقع إعتماد الملك الظَّاهر عليه» .

فاتفق رأيهم كلهم عليه ، وعملت نسخة يمين ، حلف بها جماعة الأمراء والمقدّمين من أهل البلد ، على الموالاة والطاعة للملك العزيز ، ثم من بعده لأخيه الملك الصَّالح ، وعلى الموالاة لأتابكه «شهاب الدّين طغرل» ، وانقاد الجميع له طائعين ومكرهين .

وأبعد الوزير ابن أبي يعلى ، وصرف ، واستقرَّ الأمر على ذلك ، في أواخر شعبان ، من السّنة ، وسار ابن أبي يعلى عن حلب ، في شهر رمضان من السّنة ، واستقلّ طغرل بترتيب البلاد والقلاع وتفريق الأموال والأقطاع ،

ولا يخرج في ذلك كلّه ، عن رأي القاضي بهاء الدين ، وسيف الدّين بن علم الدّين ، وسيف الدّين بن قلج .

وأقطع علم الدين قيصر «دربساك» ، وابن أمير التركمان «اللاذقية» ، وسيّر علم الدّين إلى الملك الزّاهر ، أولاً ، يعاتبه على إستيلائه على البلاد ، فاعتلقه ، وقال : «أنا أحقّ بذلك ، فإنّني كنتُ وليَّ العهد لأخي ، وقد حلف لي الناس». وطمع بملك حلب، ثم انقاد إلى الطّاعة والخطبة، وشرط أن تبقى البلاد ، التي استولى عليها بيده ، فأجيب إلى بذلك .

ولما استقرَّ أمر الأتابكية لشهاب الدّين طغرل ، كره ذلك جماعةٌ من المماليك الظّاهرية ، فعمد «عزّ الدين أيبك الجمدار» الظاهري ، واستضاف إليه جماعة من المماليك الظّاهرية ، والأجناد . وكاتب «الأسد أقطغان» ، - وكان والي حارم - واتفق معه على أن يأتي إليه ، إلى «حارم» بالجماعة الذين وافقهم ، ويفتح له القلعة ، فإذا حصلوا بها انضم إليهم جماعةٌ غيرهم ، وكان لهم شأن حينئذ .

وكان العسكر المقيم «بحارم» قد أُصعد إلى القلعة ، ورُتّب بها ، وفيهم «المبارز أيوب بن المبارز أقجا» ، فأحسّوا باختلال أمر «الأسد الوالي» ، وأنكروا عليه أشياء ، فاستيقظوا لأنفسهم ، واتّفقوا على حفظ القلعة ، والإحتياط عليها .

وسار أيبك الجمدار إلى حارم ، ووقف تحت القلعة ، ورام الصُّعود إليها ، فمنعه الأجناد والأمراء ، الذين في القلعة من ذلك ، ولم يمكّنوا الوالي

من التحرّك فيها بحركة ، واحتاطوا عليه .

فسار أيبك إلى «دربساك» ، وطمع أن يتمّ له فيها حيلة أيضاً ، فلم يستتبّ له ذلك ، وعصى «ألطنبغا» بقلعة بهسنى ، وانضاف إلى ملك الرّوم «كيكاوس» . وانتظم الأمر بعد ذلك ، وسكنت الفتنة ، في أواخر شوّال من السَّنة .

ونزل «الملك العادل» من مصر إلى الشّام ، وأرسل إلى «أتابك» بما يطيّب نفسه ، وسيّر خلعة للملك العزيز ، وسنجقاً ، وحلف له على ما أوجب السكون والثقة .

واتّفق خروج الفرنج من البحر ، وتجمّعوا في أرض عكّار ، وأغاروا على «الغَوْر» ، واندفع «الملك العادل» بين أيديهم ، إلى «عجلون» ، ثم إلى «حوران» ، ثم نازل الفرنج «الطُّور» ، وزحفوا عليه ، فكانت النّصرة للمسلمين ، وقتل منهم جمع كثير ، وانهزموا عنها ، وهدمها الملك العادل .

وسار الفرنج إلى «دمياط» ، ونزلوا عليها ، وبينها وبينهم «النّيل» ، والملك «الكامل» في مقابلتهم ، واستدعى الملك «العادل» ابنه «الملك الأشرف» ، فسار في عسكره إلى «حمص» ، ودخل بلاد الفرنج ، ليشغلهم عن محاصرة «دمياط» فدخل إلى «صافيتا» ، فخربوا ربضها ، ونهبوا رستاقها ، وهدموا ما حولها من الحصون ، ودخلوا إلى رَبَض «حصن الأكراد» ، فنهبوه ، وحاصروا القلعة ، حتى أشرفت على الأخذ ، والملك العادل مقيم في «عالقين» .

ودخلت سنة خمس عشرة وستمائة

وتحرَّك ملك الرُّوم «كيكاوس» ، ومعه «الملك الأفضل» ، طالباً أن يملك حلب ، ويطمع «الأفضل» أن يأخذها له ، ليرغب الأمراء في تمليكه عليهم ؛ وكاتب جماعة من الأمراء ، وكتب لهم التواقيع ، ومِنْ جملة مَنْ كاتَبه «عَلَم الدّين قيصر» . وكتب له توقيعاً «بأبلستان» . واغتنما شغل قلب «الملك العادل» بالفرنج ، ووافقهما الملك الصَّالح ـ صاحب آمد ـ وكان «كيكاوس» ، يريد الملك لنفسه ، ويجعل «الأفضل» ذريعة للتوصّل إليه ، وكاتبه أمراء حلب الَّذين كانوا يميلون إلى «الأفضل» . فجمع العساكر . واحتشد ، واستصحب المناجيق ، وسار في شهر ربيع الأوَّل ، فنزل رعبان وحصرها ، وفتحها .

فسيّر «الأتابك شهاب الدّين» «زين الدّين ابن الأستاذ» رسولاً إلى «الملك العادل» ، يستصرخه على «الرّومي» ، و«الأفضل» . فكتب إلى ولده «الملك الأشرف» ، يأمره بالرّحيل إلى إنجاد حلب بالعساكر ، وسيَّر إليه خزانةً ، وجعل «الملكَ المجاهدَ» ـ صاحب حمص ـ في مقابلة الفرنج .

وسار «الملكُ الأشرف» ، حتى نزل حلبَ «بالميدان الأخضر» وخرج الأمراء إلى خدمته واستحلفهم ، وخلع عليهم ، وأتاه «مانع» أميرُ العرب بجموعه المتوافرة ، وعاث العرب في بلد حلب ، «والملك الأشرف» يداريهم لحاجته إليهم .

وسار علمُ الدّين قيصر إلى ملك الرّوم من «دربساك» ، وجاهر بالعصيان ، ونزل «نجم الدين ألطنبعا» إليه من «بهسنى» . وتسلّم الروميّ «المرزبان» ، وسار إلى «تلّ باشر» وهي في يد ولد «بدر الدين دلدرم» ، فنازلها ، وحصرها ، وفتحها . ولم يعط الملك الأفضلَ شيئاً من البلاد التي افتتحها . فتحقَّق «الملكُ الأفضلُ» فسادَ نيته ، وسار إلى منبج ، ففتحها بتسليم أهلها ، وكان قد صار في جملته رجل يقال له «الصَّارم المنبجي» ، وله اتباع بمنبج فتولّى له أمر «منبج» وشرع في ترميم سورها ، وإصلاحه .

وسار «الملكُ الأشرف» نحوه من حلب إلى «وادي بزاعًا» على عزم لقائه ، وجماعة من الأمراء المخامرين في صحبته ، فنزل في وادي بزاعًا ، وسيَّر «الرُّومي» ألفَ فارس ، هم نخبة عسكره ، ومقدّمهم «سوباشي سيواس» ، فوصلوا إلى «تلّ قبّاسين» فوقع عليهم العرب ، واحتووا عليهم ، وعلى سوادهم . وركب «الملكُ الأشرف» ، فوصل إليهم ، وقد استباحوهم قتلاً وأسراً ، وسيّروا الأسرى إلى حلب ، ودخلوا بهم والبشائر تضرب بين يديهم ، وأودعوا السّجن .

ولما سمع «كيكاوس» ذلك ، سار عن منبج هارباً ، ورحل «الملكُ

الأشرف» من منزلته ، واتبعه يتخطَّف أطراف عسكره ، حتى وصل إلى «تل باشر» ، فنزل عليها ، وحاصرها حتى افتتحها ، وسلَّمها إلى نُوّاب الملك العزيز ، وقال : «هذه كانت ، أولاً ، للملك الظَّاهر ـ رحمه الله ـ وكان يؤثر ارتجاعها إليه ، وأنا أردّها إلى ولده» . وذلك في جُمادى الأولى ، من سنة خمس عشرة وستمائة . ثم أنه ملَّكها للأتابك شهاب الدين طغرل ، في سنة ثمان عشرة وستمائة ، بجميع قراها .

ثم سار «الملك الأشرف» إلى «رعبان» و«تلّ خالد» فافتتحهما وافتتح «برج الرَّصاص» ، وأعطى الجميع «الملك العزيز» ، وأقطعت «رعبان» لسيف الدين بن قلج . وعاد منكفئاً إلى حلب ، ونزل على «بانقوسا» .

وكان الخبرُ قد ورد بمَوْت «الملك العادل» ـ رحمه الله ـ وكان مرض على «عالقين» ، فرحل إلى دمشق ، فمات في الطريق ، في جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة . فكتب الأتابك شهاب الدّين بذلك إلى الأمراء ، و«الملك الأشرف» قد قارب «مدينة حلب» ، فأعلموه بذلك ، فجلس في خيمته للعزاء ، وخرج أكابر البلد والأمراء إلى خدمته ، وأنشده الشعراء مراثيَ الملك العادل ، وتكلَّم الوعَّاظ بين يديه .

ولما انفصل العزاءُ ، سيَّر «الأتابك شهاب الدّين» إلى «الملك الأشرف» ، وتحدَّث معه في أن يكون هو السّلطان موضع أبيه ، وأن يخطب له في البلاد ، وتضرب السكَّة باسمه ، وأن تكون العساكر الحلبيّة في خدمته . فقال : «لا والله لا أُغيِّر قاعدة قرَّرها أبي ، بل يكون السُّلطان أخي

«الملك الكامل» ، ويكون قائماً مقام أبي» ، فاتَّفق الحال بين «أتابك» وبينه ، برأي القاضي «بهاء الدّين» ، وسيف الدّين بن علم الدّين ، وسيف الدّين بن قلج ، على أن خُطب بحلب وأعمالها «للملك الكامل» ، وبعده للملك الأشرف ، ثم للملك العزيز ، وضُرب اسم «الملك الكامل» ، والملك العزيز ، على السكَّة . وجُعل أمرُ الأجناد والأقطاع في عسكر حلب إلى «الملك الأشرف» ، وأخليت له دار «الملك الظافر» «بالياروقية» ، فنزل فيها ، ورُتب له برسم المعونة ، من أعمال حلب «سرمين» و«بزاعا» و«الجبّول» ، ووصلت إليه رسل البلاد ، من جميع الجهات ، ومالوا إليه ، وصاروا أتباعاً له ، وأمر ونهى ببلد حلب ، في الأجناد والأقطاع لا غير ، وتردّد أكابر الحلبيّين إلى خدمته ، وخلع عليهم ، وانقضى فضل الشتاء .

ودخلت سنة ست عشرة وستمائة

فأقطع الأقطاع لأجناد حلب ، ورتَّب أمور أمرائها ، ولا يفعل شيئاً من ذلك إلَّا بمراجعة «الأتابك شهاب الدّين» ، وبدا من الأمراء المصريين تحرّك في أمره ، وكرهوا أمره ونهيَه في حلب ، وخافوا من استيلائه عليها ، وانتقامه منهم لميلهم إلى «الملك الأفضل» . وبلغه عنهم أشياء عزموا عليها ، وهو ثابت لذلك كله .

ووصلته رسل أخيه «الملك الكامل» ، يطلب منه النجدة إلى «دمياط» . وكان «ابن المشطوب» قد أراد الوثوب عليه وتمليك «الفائز» أخيه ، فأخرجه من الديار المصريّة ، بعد أن رحل من منزلته ، التي كان بها في قبالة الفرنج ، وعبور الفرنج إليها ، ونهب الخيم ومنازلة «دمياط» ، وقطعهم المادة عنها ، فاتفق رأيُ «الملك الأشرف» على تسيير الأمراء ، الذين كانوا يضمرون له الغدر ، فسيّرهم نجدة إلى أخيه ، وهم المبارزان : «ابن خطلخ» و«سنقر» الحلبيّان ، وابن كهدان ، وغيرهم ، وخاف ابن خطلخ منه ، فاستحلفه على أن لا يؤذيه ، فحلف له ، وسيَّرهم إلى أخيه «الملك الكامل» ، فأقاموا عنده بالكلية .

وتوفّي نورُ الدّين ـ صاحب الموصل ـ في هذه السنة . وترك ابناً صغيراً قام «بدر الدين لؤلؤ» ، مملوك جدّه بتربيته . وخطب للكامل والأشرف .

وقام زنكي بن عز الدين ، فأخذ «العمادية» ـ وهي قلعة حصينة فيها أموال الموصل ـ بمواطأة من أجنادها ، وعزم على أخذ الموصل ، وقال : «أنا أولى بكفالة ابن أخي» . وساعده «مظفّر الدّين» صاحب «إربل» على ذلك ، فسيّر لؤلؤ رسولاً إلى «الملك الأشرف» إلى حلب ، يطلبُ إنجاده ، فسيّر إليه عزّ الدّين أيبك الأشرفي .

وكان عمادُ الدّين بن سيف الدّين علي المشطوب ، لما نُفي من الديار المصريّة ، قد وصل إلى «حماة» ، وأقام عند صاحبها ، وكاتب «الملك الأفضل» ، وجمع جموعاً كثيرة من الأكراد ، وأرباب الفساد ، وساعده الملك المنصور ـ صاحب حماة ـ بالمال والرجال على ذلك وعزم على أن يمضي ، بمن جمعه من العساكر إلى الأفضل ، وأن يقوم معه ، ويساعده صاحب حماة ، وسلطان الرّوم . ثم سار ابن المشطوب ، بغتة ، وخاض بلد حلب ، وكان الزمنُ زمن الربيع ، وخيول الأجناد متفرّقة في الربيع ، فوصل إلى «قنّسرين» ونفذ منها إلى «تلّ أعرن»[1] ، وبلغ «الساجور» ، واستاق في طريقه ما وجد من الخيل ، وغيره .

١ ـ كان يعرف أيضاً باسم تل عرن ، وهو ما يزال يحمل الاسم نفسه ، وهو قرية في جبل الأحص تتبع منطقة السفيرة ـ محافظة حلب ، وتبعد القرية ٥ كم عن السفيرة ، يتوسطها تل كبير ، هو تل عرن . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .

وبلغ خبره إلى الملك الأشرف ، فأركب مَن كان بحضرته من العساكر ، خلفه ، وكان فيهم ابن عماد الدّين صاحب «قرقيسيا» ، فلحقوه على «السَّاجور» ، وفي صحبته «نجم الدّين بن أبي عصرون» ، فقبضوا عليه وأتوا به إلى «الملك الأشرف» ، فعفا عنه ، و«عن ابن أبي عصرون» ، وأقطع ابن المشطوب «رأس عين» وأقام عنده مخيّماً «بالياروقيّة» ، إلى أن دخل شعبان ، من السنة المذكورة . وسار «الملك الأشرف» ، إلى بلاده الشرقيّة ، لاصلاح أمر الموصل ، وكان صاحب إربل وزنكي ، قد كسرا «لؤلؤ» و«أيبك الأشرفي» ، على الموصل . فنزل الملك الأشرف على حرّان ، وفي صحبته عسكر حلب .

ومات «كيكاوس» ، ملك الروم ، وملك بعده أخوه كيقباذ ، فراسل الملك الأشرف ، واتفق معه . وخربت القدس في أوائل هذه السنة .

وخرج إلى الفرنج المنازلين «دمياط» نجدةٌ من البحر ، ووقع الوباء في أهل «دمياط» ، وضعفوا عن حفظها ، فهجمها الفرنج على غفلة من أهلها ، في عاشر شهر رمضان ، والملك الكامل ، مرابط حولها بالعساكر ، وابتنى مدينة سماها «المنصورة» ، أقام فيها في مقابلة الفرنج .

ودخلت سنة سبع عشرة وستمائة

والملك الأشرف في «حرّان» ، و«ابن المشطوب» في اقطاعه «رأس عين» ، وقد داخل صاحب «ماردين» ؛ وقرّر الأمر معه على العصيان على «الملك الأشرف» ، وجمع جماعة من الأكراد ، فنمى الخبر إلى الملك الأشرف ، وخاف «ابن المشطوب» ، فسار إلى سنجار ، فاعترضه والي «نصيبين» ، من جهة الملك الأشرف ، وقاتله فهزمه ، واستباح عسكره ، وسار إلى سنجار ، فأجاره قطب الدّين صاحبها . وأرسل «الملك الأشرف» اليه ، في طلبه ، فلم يجبه إلى ذلك ، فسار الملك الأشرف نحوه ، فترك «سنجار» ، ومضى إلى «تلعفر» ، فعصى بها ، فوصل إليه «ابن صبره» وعسكر الموصل . ووصل «الملك الأشرف» إلى «سنجار» ، وفتحها ، وعوّض صاحبها «بالرّقة» عنها ، وفتح لؤلؤ «تلعفر» ، وسلّمها إلى «الملك الأشرف» ، واستجار «ابن المشطوب» بلؤلؤ ، فأجاره على حكم الملك الأشرف ، فيه ، وسلّمه إلى الملك الأشرف ، فقيّده ، وسجنه بسنجار .

وسار الملك الأشرف إلى الموصل ، ومعه عسكر حلب ، فأقام مخيّماً

على ظاهرها ، حتى أصلح أمرها مع صاحب «إربل» ، وهادنه .

ووصل الملك «الفائز» ، من الديار المصريّة ، مستصرخاً ، وطالباً للنُجَد ، ووصل إلى حلب ، وأنزل «بالميدان الأخضر» ، وسار إلى الموصل ، إلى أخيه «الملك الأشرف» ، فأقام عنده ، بظاهر الموصل ، شهراً ومات . وانفصل الملك الأشرف عن الموصل ، بعد إصلاح أمورها ، وشتّى «بسنجار» ، وقبض على «حسام الدين بن خشترين» ـ وكان أميراً من أمراء حلب ـ لغَدْرٍ بلغه عنه ، وقيّده ، وسيّره ، وابن المشطوب إلى قلعة «حرّان» ، فحبسهما فيها إلى أن ماتا . وقبض على ابن عماد الدّين ـ صاحب «قرقيسيا» ـ وأخذها ، «وعانة» والبلاد التي كانت معه من يده ، وقدم حرَّان ، فوصل إليه أخوه «الملك المعظَّم» في محرّم سنة ثمان عشرة من دمشق ، فوافقه على الصعود إلى الديار المصريّة ، لازاحة الفرنج عنها ، فجهَّز العساكر ، واستدعى عسكر حلب ، وعبر الفرات ، والتقى بعسكر حلب .

وسار إلى دمياط ، مع أخيه «الملك المعظَّم» ، وخرج الفرنج عن «دمياط» ، ونزلوا في مقابلة المسلمين ، فأرسلوا الماء عليهم ، فمنعهم من العود إلى «دمياط» ، ولم يبق لهم طريق اليها ؛ وزحف المسلمون عليهم ، واستداروا حولهم ، فطلبوا الأمان وتسليم «دمياط» فتسلَّمها المسلمون في العشرين من شهر رجب سنة ثمان عشرة وستمائة .

وكان الملك المنصور ـ صاحب حماة ـ قد توفِّي في ذي القعدة ، سنة

سبع عشرة وستمائة . وكان ابنه الكبير «الملك المظفر» ، في نجدة خاله بدمياط ، فاستولى ابنه الملك الناصر ، على حماة ، وسيّر إلى الأتابك شهاب الدين ، يطلب الاعتضاد به ، والسفارة بينه وبين خاله «الملك الأشرف» ، على أن ينتمي إليه ، ويخطب له ، على أن يمنع عنه من يقصده ، وروسل في ذلك ، فأجاب ، وحلف له على ذلك .

ونزل «الملك الأشرف» من الدّيار المصرية ، ووصل إلى بلاده ، وسيّر كتاباً إلى الأتابك شهاب الدّين ، يتضمّن أنّه : «لما وقع الاتفاق في الابتداء ، وعرض عليّ «الجبول» و«بزاعا» و«سرمين» ، أجبتُ إلى ذلك ، ليعلم المخالفُ والعدوُّ ، أن البلاد قد صارت واحدةً ، والكلمة متّفقة ، والآن فقد تحقّق الناسُ كلّهم ذلك ، وأوثر الآن التقدّم إلى نوّاب المولى «الملك العزيز» في قبضها ، واجرائها على العادة ، وصرفها في مصالح بلاده فأجبت إلى ذلك» . ورفع «الملك الأشرف» أيدي نوابه عنها .

ودخلت سنة تسع عشرة وستمائة

توجَّه «الملك الصّالح» ابن «الملك الظَّاهر» إلى «الشّغر» و«بكاس» ، وأضيف اليه «الروج» و«معرة مصرين» . ورتّب جماعة من الحجّاب والمماليك في خدمته ، وذلك في جمادى الأولى .

وفي ذي الحجة ـ من سنة تسع عشرة وستمائة ـ خرج الملك [الناصر] صاحب حماة إلى الصيَّد ، فبلغ ذلك «الملكَ المعظَّم عيسى» ، صاحبَ دمشق ، فخرج مجدّاً من دمشق ، ليسبق صاحبها إليها فيملكها ، فانتهى الخبر إلى «الناصر» ، فسبق اليها . ووصل الملك المعظَّم إلى حماة ، فوجد الملكَ الناصرَ قد وصلها ، وفاتَه ما أراد ، فسار إلى «معرَّة النُّعمان» ، واحتوى على مغَّلاتها ، وسيّر أتابك شهاب الدّين إليه ، تقدمةً مع مظفَّر الدين بن جرديك ، إلى المعرّة ، فقبلها ، واعتذر بأنَّه إنما جاء لكتابٍ وصله من «الملك الكامل» ، يأمرُه أن يقبض على خادم هرب منه ، وأنَّه خرج خلفَه ليدركه ، فلما قرب من «حماة» ، بدا من صاحبها من الامتهان ، وعدم النزل والاقامة ما لا يليق . وتَجنّى عليه ذنوباً لا أصل لها ، والملك الكامل ، والملك الأشرف ، حينئذ بمصر .

ودخلت سنة عشرين وستمائة

فرحل «الملك المعظم» إلى «سلمية» ، بعد أن رتَّب «بالمعرّة» والياً ، ورتَّب «لسلمية» والياً من قبله ، وعزم على حصار «حماة» ، واستعدَّ صاحبها للحصار ، ووكَّل الملك المعظَّم العرب ، لقطع الميرة عن حماة ، ومنع مَن يقصدها من الأجناد للانجاد ، وحوّل طريق القافلة على سلمية .

وأرجف الناس بأن حسام الدين ابن أمير تركمان ، قد وافق الملك المعظَّم ، وأنه قد صاهر صاحب «صهيون» ، وكان سيف الدين بن قلج ، هو الذي أشار بترتيبه في اللاذقية وضمنه ، فسار إليه ، فلم يمتنع من تسليمها ولم يكن لما ذكر عنه صحّة ؛ فترك سيف الدين بن قلج بها أخاه عماد الدين ، واستصحب حسام الدين ، معه إلى حلب . فأقام إلى أن زال الاستشعار من جهة «الملك المعظم» ، وردّت إليه .

ووصل حسام الدّين الحاجب علي ـ نائب الملك الأشرف في بلاده إلى حلب ـ واجتمع بأتابك شهاب الدّين ، وأعلمه أنَّ الملك الأشرف ، كتب إليه أن يرحل إلى «الملك المعظَّم» ، ويرحّله عن بلاد «الناصر» ، ويعلم

«أتابك» أن هذا الّذي وقع ، لم يكن بعلم «الملك الكامل» ، ولا «الملك الأشرف» ، وانّهما لا يوافقانه على ذلك ، وسار الحاجب إليه في هذا المعنى .

ووصل «الناصح أبو المعالي الفارسي» ـ أحد أمراء حلب ـ برسالة «الملك الكامل» من مصر ، وكان قد صعد إليها إلى خدمته «الملك الأشرف» ، وكان هو الحاجب بين يديه إذ ذاك ، والأمور كلّها راجعة اليه ، فقال له الناصح : «الملكُ الكامل يأمر المولى بالرَّحيل ، وترك الخلاف» ، فأجاب إلى ذلك ، وقرَّر الصلح بين صاحب حماة وبينه ، ورحل إلى دمشق ، وعاد الناصح إلى مصر .

ونقل السلطان الملك الظَّاهر ، من الحجرة التي دفن بها بالقلعة ، إلى القبة ، بالمدرسة التي ابتناها له أتابك ، ودفنه بها في أول شعبان من سنة عشرين وستمائة .

ونزل الملك الأشرف من مصر ، ووصل إلى حلب في شوال من سنة عشرين ، والتقاه «الملك العزيز» ، ونزل في خيمته ، قبلّي «المقام» وشرقيّة ، بالقرب من «قَرَنْبيا» ، وكان قد صحبه خلعة للملك العزيز من «الملك الكامل» ، وسنجق ، وخرج «الملك العزيز» ، وأهل البلد ، في خدمته ، بعد ذلك ، ودخل الناس إلى الخيمة ، في خدمة السلطان الملك العزيز ، ومدَّ «الملك الأشرف» السّماط ، في ذلك اليوم للناس ، فلما أكلوا ، وخرج الناس من الخيمة ، أحضر «الخلع الكاملية» ، وأفاضها على الملك العزيز . ووقف قائماً في خدمته . ثم أحضر المركوب فأركبه . وحمل الغاشية بين

يديه ، حتى خرج من الخيمة ، وركب إلى القلعة .

وأقام «الملك الأشرف» ، مقدار عشرة أيام ، واتفق رأيه مع الأمراء على اخراب قلعة «الّلاذقية» ، فسار العسكر إليها ، وخرّبوها في هذه السَّنة .

وتوجَّه الملكُ الأشرفُ إلى حرّان ، وعصى الملك المظفَّر «شهاب الدين غازي» أخوه ، عليه «باخلاط» ، وكان أخوه «الملك المعظَّم» ، هو الذي حمله على ذلك ، وحسّنه له ، لأجل ما سبق من «الملك الأشرف» ، في نصرة صاحب حماة . فاستدعى «الملكُ الأشرفُ» عسكراً من حلب ، فسار إليه عسكرٌ قويٌّ فيهم : سيف الدّين بن قلج ، وعلم الدين قيصر ، وحسام الدين بُلدق ، في سنة إحدى وعشرين وستمائة ، وسار إلى «اخلاط» ، واتّفق «مظفَّر الدين» ـ صاحب إربل ـ والملك المعظَّم صاحب دمشق ، على أن يخرج هذا إلى جهة «الموصل» ، وهذا إلى جهة «حمص» ، ليشغلا «الملك الأشرف» عن اخلاط ، فسيّر «الملك الأشرف» ، وطلب طائفة من عسكر حلب ليقيم بسنجار ، خوفاً من أن يغتالها صاحب «إربل» . وخرج «الملك المعظَّم» ، وأغار على بلد حمص ، وبارين ، ووصل إلى «بحيرة قدس» ، وعاد .

ووصل الملك الأشرف إلى «اخلاط» ، فخرج أخوه ، وقاتله ، فهزمه إلى «اخلاط» ، وفتحها أهلها للملك الأشرف . واحتمى الملك «المظفَّر» بالقلعة ، حتى عفا عنه أخوه الملك الأشرف ، وخرج إليه ، وأبقى عليه

«ميّافارقين» ، وعاد عسكر حلب والملك الأشرف ، في رمضان ، وشتّى الملك الأشرف بسنجار .

وانهدم في هذه السَّنة من سور قلعة حلب الأبراج التي تلي «باب الجبل» ، من حدّ المركز ، وهي عشرة أبراج ، وتساقطعت مع أبدانها ، في سلخ ذي القعدة . ووافق ذلك شدّة البرد في الأربعينيات ، فاهتم «أتابك شهاب الدّين» بعمارتها ، وتحصيل آلاتها ، من غير أن يستعين فيها بمعاونة أحد ، ولازمها بنفسه ، حتى أتّمها في سنة اثنتين وعشرين وستمائة .

ومات الملكُ الأفضل ، «بسميساط» ، في هذه السنة في صفر ، وحُمل إلى حلب ، فدفن في التربة ، التي دَفن فيها أمّة قبليّ «المقام» .

ودخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

ووصل «محيي الدّين أبو المظفر ابن الجوزي» ، إلى حلب بخلعة من «الامام الظّاهر» ، إلى «الملك العزيز» ، وكان قد توَّلى الخلافة ، في سنة اثنتين وعشرين ، بعد موت أبيه «الإمام النَّاصر» ، فألبسها السلطان «الملك العزيز» ، وركب بها ، وكانت خلعةً سنيّة ، واسعة الكمّ ، سودآء ، بعمامة سوداء ، وهي مذهبّة ، والثوب بالزركش . وكان قد أحضر إلى «الملك الأشرف» خلعة ، ألبسه أياها ، وسار بخلعه أخرى إلى «الملك المعظَّم» ، وخلعه أخرى ، إلى «الملك الكامل» .

وكاتب «الملك المعظَّم» خوارزمشاه ، وأطمعه في بلاد أخيه «الملك الأشرف» ، ونزل الملكُ المعظَّم من دمشق ، ونازل حمص ، وكان سيّر جماعة من الأعراب ، فنهبوا قراها ؛ ووصل «مانع» ، في جموع العرب لانجاد حمص ، من جهة الملك الأشرف ، فانتهبوا قرى «المعرّة» و«حماة» ، وقسموا البيادر ، ولم يؤدوا عداداً[1] ، في هذه السنة ، لأحد .

١ ـ ضريبة على رؤوس المواشي عرفتها بلاد الشام حتى وقت قريب .

ولما وصل «الملك المعظَّم» إلى حمص ، اندفع «مانع» وعرب حلب ، والجزيرة ، إلى قنّسرين ، ثم نزلوا قراحصار ، ثم تركوا أظعانهم ، بمرج دابق ، وساروا جريدة إلى نحو حمص ، فتواقع «مانع» وعرب دمشق ، وقعات ، وجرّد عسكر من حلب إلى حمص ، فوصلوا إليها ، قبل أن ينازلها الملك المعظَّم ، فحين وصلوها اتَّفق وصولُ عسكر دمشق ، فاقتتلوا ، ثم دخلوا إلى مدينة حمص .

وكان «الملك الأشرف» على «الرَّقة» فجاءه الخبر بحركة «كيقباذ» ، وخروجه إلى بلاد صاحب «آمد» ، وأخذه «حصن منصور» ، و«الكختا»[1] ، فسيّر «الملك الأشرفُ» نجدة إلى آمد ، فالتقاهم جيش «الرّومي» ، وهزمهم ، فعاد الملك الأشرف إلى «حرَّان» ، وخرج من بقي من عسكر حلب إلى حاضر «قنسرين» لانجاد صاحب حمص .

ووقع الفناء في عسكر «الملك المعظَّم» ، وماتت دوابّهم ، وكثر المرض في رجالهم ، فرحل عن حمص ، في شهر رمضان من السَّنة . وسار «الملك الأشرف» ، عند ذلك بنفسه إلى دمشق ، واجتمع بأخيه «الملك المعظَّم» قطعاً لمادّة شرّه ، وزيّنت دمشق لقدوم الملك الأشرف ، وعقدت بها القباب ، وأظهر الملك المعظَّم السُّرور بقدومه ، وحكَّمه في ماله ؛ وباطنه ليس كظاهره ، ورسله تتردّد إلى «خوارزمشاه» في الباطن ، وجاءته خلعة من «خوارزمشاه» فلبسها .

---

١ ـ حصن على أربعين ميلاً من ملطية ، في الجنوب الشرقي منها .

وكانا لما انقضى شهر رمضان ، قد خرجا عن دمشق ، إلى «المرج» ، وورد عليهما رسولاً حلب: القاضي زين الدّين ابن الاستاذ نائب القاضي بهاء الدّين ، ومظفَّر الدّين بن جورديك ، يطلبان تجديد الأيمان «للملك العزيز» ، و«أتابك» . فوجد «الملك الأشرف» ، وقد أصبح مع «الملك المعظَّم» ، بمنزلة التبّع له ، ويطلب مداراته بكلّ طريق ، وهو لا يتجاسر أن ينفرد بهما في حديث ، دون الملك المعظَّم ، و«الملك المعظَّم»يشترط شروطاً كثيرة ، والمراجعات بينهما وبين أتابك إلى حلب مستمرة مدة شهرين . إلى أن وردت الأخبار بنزول «خوارزمشاه» على «اخلاط» ، ومحاصرتها ، وفيها «الحاجب عليّ» ـ نائب الملك الأشرف ـ فهجم بعض عسكره اخلاط ، وقام مَنْ بها مِنْ أهلها وجندها ، وأخرجوهم منها ، كرهاً . فوافق الملك الأشرف أخاه ، على ما طلبه منه ، واستدعى رسولَي حلب ، وحلفا لهما ، ورحل خوارزمشاه عن «خلاط» .

وشتّى الملك المعظَّم ، والملك الأشرف «بالغور» ، واضحى «الملكُ الأشرفُ» كالأسير في يديْ أخيه «الملك المعظَّم» ، لا يتجاسر على أن يخالفه في أمرٍ من الأمور ، وهو يتلوَّن معه ، وكلّما أجابه «الملك الأشرف» إلى قضية ، رجع عنها إلى غيرها ، وأقام عنده ، إلى أن دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة .

وانقطعت مراسلة الملك الأشرف إلى حلب ، لكثرة عيون أخيه عليه ، وكونه لا يأمن من جهته من أمر يكرهه ، لانه أصبح في قبضته ، واتَّفق وصولي من الحجّ ، في صفر من هذه السنة ، فاستدعاني «الملكُ الأشرف» ،

وحمّلني رسالة إلى أتابك شهاب الدّين ، مضمونها ما قد وقع فيه مع أخيه . «وأنه يتلوّن معه ، تلوّن الحرباء ، ولا يثبت على أمر من الأمور ، وإنَّ آخر ما قد وقع بيني وبينه ، أنه التمس مني أن يحلف له أتابك على مساعدته ومعاضدته ، وأن لا يوافق الملك الكامل عليه ، وأنَّه متى قصده الملك الكامل ، كان عوناً له على الملك الكامل» . فلما أبلغتُ «أتابك» ما قال ، امتنع من الموافقة على ذلك ، وقال : «أنا حلَّفني الملك الأشرف للملك الكامل ، وفي جملة يمينه : أنني لا أهادن أحداً من الملوك على قضيّة إلاَّ بأمره ، فاذا أراد هذا مني فليأتني بأمر من الملك الكامل ، حتى أساعده على ذلك» .

وحين رأى «الملك الأشرف» وقوعه في أنشوطة أخيه ، وأن لا مخلصَ له إلاَّ بما يريده ، ساعده على كلّ ما طلبه منه ، واستحلفه على الملك الكامل ، وصاحبيْ حماة وحمص ، فاطمأن الملك المعظَّم إلى ذلك ، ومكّن الملك الأشرف من الرحيل ، فسار إلى «الرّقة» ، في جُمادى الآخرة من السنة ، فرجع «الملكُ الأشرف»عن جميع ما قرّرة مع أخيه ، وتأوَّل في أيمانه التي حلفها ، بأنه كان مكرهاً عليها ، وأنه علم أنه لا ينجيه من يديْ أخيه إلاَّ موافقته فيما طلب ، وندم «الملك المعظَّم» على تمكينه من الانفصال عنه ، وسيَّر العربان إلى بلد حمص وحماة ، فعاثوا فيهما ، ونهبوا .

وخرج عسكر الأنبرور ـ ملك الفرنج ـ إلى عكا ، في جموع عظيمة ، فطمع صاحب حماة ، وصاحب حمص في «الملك المعظَّم» حينئذ ، وأرسلا إليه يطلبان العوض عما أخذه من بلادهما ، فلاطف حينئذ أخاه «الملك

الأشرف» ، وأرسل إليه يطلب موافقته ، فعنَّفه على أفعاله التي عامله بها ، وقرّعه على ما اعتمد في حقّه وحقّ أهله . ومرض «الملك المعظَّم» بدمشق ومات سلخ ذي القعدة . وملك دمشق بعده «الملك الناصر» ولده .

وفي هذه السَّنة ، سلّمت عين تاب ، والراوندان ، والزّوب ، إلى «الملك الصالح» ابن الملك الظاهر ، وأخذ منه «الشغر» و«بكاس» ، وما كان في يده معها .

ودخل الحاجب ، في هذه السنة ، وجمع مَنْ قدر عليه من العساكر ، إلى بلد أذربيجان ، وافتتح «خوي» ، و«سلماس» ، وأخذ زوجة أزبك ـ وكانت في خوي ـ وهي التي سلَّمت خوي إليه ، وكانت قد تزوجت بخوارزمشاه .

وخرج الملك الكامل من مصر حين سمع بموت أخيه . وسيَّر الملك الناصر ، إلى عمِّه الملك الأشرف، يعتضد به، ويستمسك بذيله، مع ابن موسك . فوصل إليه إلى سنجار ، وطلبه ليأتي إلى دمشق ، فسار إليه إلى دمشق ، ونزل «الملك الكامل» ، فخيّم بتلّ العجول في مقابلة الفرنج ، وسيّر الملك الأشرفُ إليه ، «سيف الدّين بن قلج» يطلب منه ابقاء دمشق على ابن أخيه ، ويقول له : «إننا كلنا في طاعتك ، ولم نخرج عن موافقتك» . فخاطبه بما أطمع الملك الأشرف في دمشق .

وأما الملك العزيز ، فانَّه في هذه السنة ، جلس في «دار العدل» في منصب أبيه ، ورفعت إليه الشكاوي ، فأجاب عنها ، وأمرَ ونَهى ، وكان

يحضر عنده الفقهاء ، في ليالي الجُمع ليلاً ، ويتكلمون في المسألة بين يديه ، وحضر عيد الفطر ، فخلع على كافة الأمراء ، ومقدّمي البلد ، وأرْباب المناصب، وعمل عيداً عظيماً، احتفل فيه ، ولم يُعمل بحلب عيدٌ ، منذ مات «الملك الظّاهر» ، قبل هذه السّنة .

ووصل «الأنبرور» إلى عكا ، وخيّم الملك الكامل «بالعوجا» . وتوجّه الملك الأشرف ، إليه من دمشق ، فجدّد الأيمان فيما بينهما ، وسارت النجدة من حلب ، في آخر المحرم سنة ستّ وعشرين وستمائة ، فنزلت في «الغَور» .

وصالح «الملك الكامل» الفرنجَ على أن أعطاهم مدينة «القدس» - سوى الصخرة والمسجد الأقصى - وليس لهم في ظاهرها حكم ، وأعطاهم «بيت لحم» ، وضياعاً في طريقهم إلى القدس ، من عكا .

وعاد الملك الأشرف ، واجتمع بعسكر حلب ، وبالملك الناصر ابن الملك المعظم ، فقال له : «إنّني قد اجتهدتُ في أمرك بالملك الكامل ، فلم يرجع عن قصد دمشق ، وكان آخر ما انتهى اليه أن قال : يُـعطى الملك الناصر البلاد الشرقية ، وتأخُذ أنتَ دمشق» ، فعلم الملك الناصر ، أنّهما قد توافقا على أخذ دمشق ، وكان أيبك المعظّمي معه ، فأشار عليه بالرحيل إلى دمشق ، فقوّض خيامه ، وسار ، ولم يمكن الملك الأشرف منعه ، ومضى إلى دمشق ، وشرع في تحصينها ، فسار الملك الأشرف بجيوش حلب ، ونزل على دمشق ، وقطع عنها الماء ، فخرج عسكر دمشق ، وقاتلوا أشدّ القتال ، حتّى أعادوا الماء اليها ، ووصل الملك الكامل ، في جُمادى الأولى ، بالعساكر المصريّة ، وخيّموا جميعاً على دمشق .

وسار القاضي بهاء الدين ، وفي صحبته أكابر حلب وعدولها إلى دمشق ، لعقد المصاهرة بين «الملك العزيز» و«الملك الكامل» . ووصل إلى ظاهر دمشق من ناحية «ضمير» ، وخرج الملك الكامل من المخيّم ، والتقاه ، وأنزله في المخيم ، بالقرب من «مشهد القَدَم» . وأحضره إلى خيمته ، وقدَّم ما كان وصل على يده ، للملك الكامل . ثم نقله بعد ذلك إلى جوسق الملك العزيز «بالمزَّة» ، وكان يتردّد إليه «الملك الكامل» ، في بعض الأوقات ، إلى أن اتَّفق الأمر ، على أن حمل الذَّهب الواصل ، لتقدمة المَهر ، والجَواري ، والخدم ، والدراهم ، والمتاع ، وعُقد العقد بحضور الملك الأشرف ، في «مسجد خاتون» ، وتولَّى عقد النكاح «عماد الدّين ابن شيخ الشيوخ» عن الملك الكامل . لابنته «فاطمة خاتون» ، على صداق ، مبلغه خمسون ألف دينار . وقَبِل القاضي «بهاءُ الدّين» العقدَ عن الملك العزيز ، وذلك في سحرة يوم الأحد سادس عشر شهر رجب ، وخلع «الملك الكامل» على القاضي ، وعلى جميع أصحابه ، وعلى الحاجي بشر أمير لالا الملك العزيز ، بعد أن فتحت دمشق . وعاد القاضي ومن كان في صحبته إلى حلب .

واستقرّ أن يأخذَ الملكُ الكامل من الملك الأشرف ، عوضاً عن دمشق : حرّان ، والرّها ، والرّقة ، وسروج ، ورأس عين ، وسار الملك الأشرف إلى بعلبك ، فحصرها إلى أن أخذها من صاحبها .

وسار العسكر إلى حماة ، بأمر الملك الكامل ، فَحَصرَها ليسلِّمها

صاحُبها إلى الملك «المظفَّر ابن الملك المنصور» ، فنزل إليه صاحُبها الملك الناصر ـ وكان نازلاً بمجمع المروج ـ فحبسه عنده إلى أن سلَّمها إلى أخيه ، وأعطاه «بارين» . وسار الملك الكامل إلى الرقة .

ونزل خوارزمشاه على «أخلاط» ، ووافقه ابن زين الدين ، في الباطن ، وصاحب آمد في الظاهر ، وخطب له ، وضاق الأمر بأهل «أخلاط» ، فطلبوا الأمان فلم يجبهم إلى ذلك ، وافتتحها في ثامن وعشرين من جمادى الأولى ، من سنة سبع وعشرين وستمائة ، ووضع السيف في أهلها ، وسبى النّساء والصبيان .

وفي ثامن جمادى الأولى ، وُلد للسلطان «الملك العزيز» ، مولود من جارية ، وسمّاه باسم أبيه ، ولقَّبه بلقبه «الملك الظاهر غازي» ، وزيّن المدينة ، وعقد القباب ، ولبس العسكر في أتمّ زينة وهيئة ، وعمل الزَّورق من القلعة إلى المدينة ؛ ونزل الناس فيه ، وانقطعت بكره برجل منهم ، فوقع في سفح القلعة ، فمات ، فبطل الملك العزيز الزروق .

وولد له أيضاً في هذه السنة ، ولدٌ آخر لقَّبه «بالملك العادل» . وولد له أيضاً في هذه السنة ، «السلطان الملك الناصر» وهو الذي أوصى له بالملك ، بعد أن مات الولدان المتقدمان .

واتفق الملك الكامل ، والملك الأشرف ، وملك الرُّوم كيقباذ ، على خوارزمشاه . وطلب الملك الأشرف نجدةً من حلب ، فسيّر الملك العزيز وأتابك ، عسكراً يقدمه «عزُّ الدين بن مجلي» ، فدخل الملك الأشرف ،

واجتمع بملك الروم ؛ وسار إلى ناحية «أرزنكان» ، واصطفَّت العساكر للقتال ، فكسر الخوارزمي في التاسع والعشرين من شهر رمضان ، وهبَّت ريح عاصفة في وجه عساكره ، وانهزموا ، وصادفوا شقيفاً ، في طريقهم ، فوقع فيه أكثر الخوارزمية فهلكوا ، وصار «الملك الأشرف» إلى «اخلاط» فاستعادها ، وهادن الخوارزمي .

ودخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

وكان للفرنج حركة ، وخرج عسكر حلب مع بدر الدين بن الوالي ، وأغاروا على ناحية «المرقب» ، ونهبوا حصن بانياس ، وخربوه ، وسيّروا أسرى حلب ، ثم تواقع المسلمون والفرنج وقعة أخرى ، قُتل من الفريقين فيها جماعة ، وكان الربح فيها للمسلمين ، وسيّرت العساكر من حلب في النصف من شهر ربيع الآخر .

واحتبس الغيث في حلب ، وارتفعت الأسعار فيها ، وخرج الناس ، واستسقوا على «بانقوسا» فجاء مطر يسير ، بعد ذلك ، وانحطّت الأسعار قليلاً .

واستقرّت الهدنة بين عسكر حلب والداويّة ، والاسبتار ، في العشرين من شعبان من السنة .

واستقلّ السلطان الملك العزيز بملكه ، في هذه السنة ، وتسلّم خزائنه من «أتابك شهاب الدّين» ، ورتّب الولاة في القلاع ، واستحلف الأجناد لنفسه ؛ وخرج بنفسه ، ودار القلاع والحصون ، وركب أتابك شهاب

الدّين ، في نصف شهر رمضان ، من هذه السنة ، ونزل من القلعة ، وركب النّاس في خدمته ، ولم ينزل منها ، منذ توفي الملك الظّاهر ، إلاّ هذه المرة ، ثم عاد إلى القلعة ، وكان يركب منها في الأحايين ، إلى أن دخل السّلطان «الملك العزيز» بابنة الملك الكامل ، وبقي «أتابك» مدّة في القلعة ، ثم نزل منها ، وسكن في داره ، التي كانت تعرف بصاحب عين تاب ، تجاه باب القلعة .

واستوزر الملك العزيز ، في هذه السّنة ، خطيبَ القلعة وابن خطيبها «زين الدين عبد المحسن بن محمد بن حرب» ، ومال إليه بجملته .

وسيّر الملكُ العزيز القاضيَ بهاء الدّين ، في هذه السّنة في شوّال ، إلى مصر ، لإحضار زوجته بنت الملك الكامل ، فأقام بمصر مدة ، إلى أن قدم في صحبتها والدها «الملك الكامل» ، إلى دمشق ، وسيّرها من دمشق صحبته ، وأصحبها من جماعته : فخر الدين البانياسي ، والشريف قاضي العسكر ، وخرج وزيرُه ، وأعيانُ دولته ، فالتقوها من حماة ، وأكابرُ أهل حلب أيضاً ، والتقتها والدة السلطان عمّتها من «جباب التركمان» ، والتقاها بقية العساكر ، «بتلّ السلطان» ، والتقاها أخو السّلطان «الملك الصالح» ، في عسكره ، وتجمّله ، وعادت العساكر في تجمّلها ، واصطفت أطلاباً طُلباً بعد طُلب ، في «الوضيحي» . وخرج السّلطان إلى «الوضيحي» ، ودخل مع زوجته ، ليلاً ، إلى القلعة المنصورة ، في شهر رمضان ، من سنة تسع وعشرين وستمائة .

وكانت العامة بحلب ، قد ثاروا على محتسبها «مجد الدّين بن العجمي» ، لأن السعر كان مرتفعاً ، وقد بلغ الرّطل من الخبز إلى عشرة قراطيس ، ثم انحطَّ السعر كان في تقاديم الغلَّة ، إلى أن بيع الرطل بخمسة ونصف ، فركب نائب المحتسب وسعّره في البلد بستة قراطيس ، فهاجت العامّة عليه ، وقصدوا دكّة المحتسب ، وهمّوا بقتل نائبه ، وخربوا الدكّة ، ومضوا إلى دار المحتسب ، لينهبوها ، فنزل والي البلد ، والأمير «علم الدّين قيصر» ، وسكنوا الفتنة ، بعد أن صعد جماعة إلى السلطان ، واستغاثوا على المحتسب ، فظفروا بأخيه نائب الحشر «الكمال بن العجمي» ، فرجموه بالحجارة ، فانهزم ، واختفى في بعض دروب حلب ، ثم هرب إلى المسجد الجامع ، فهمّوا به مرّة ثانية ، في الجامع ، فحماه مقدّم الأحداث ، وكان ذلك ، في يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ، من سنة تسع وعشرين وستمائة .

وداوم «الملك العزيز» الخروج إلى الصيَّد ، ورمي البندق بنواحي «العمق» وغيرها ، وحسّن له جماعةٌ من أصحابه ، أن يسير إلى قلعة «تلّ باشر» ، ويستولي عليها ، وينزعها من نواب أتابكه «شهاب الدين طغرل» ، وأن يبقي عليه رستاقها ، وأن لا يكون شيء من القلاع إلاّ بيده ، فنمى الخبر إلى «أتابك» ، فسيَّر إلى الوالي ، وأمره أن لا يعارضه في القلعة ، وأن يسلِّمها إليه ، وكان له بها خزانة ، فاستدعاها ، وخرج السّلطان إلى «عزاز» ، وكانت في يد والدة أخت «الملك الصَّالح» ، وأولادها بني «ألطنبغا» ، عوّضهم بها «أتابك» عن «بهسنى» ، بعد قتل الرّومي كيكاوس الطنبغا ، فصعد إلى قلعتها ، وولَّى بها والياً من قِبله ، وأبقى عليهم ما كان

في أيديهم من بلدها . ثم سار السّلطان من «عزاز» ، إلى «تلّ باشر» ، وصعد إلى القلعة ، وولّى فيها والياً من جهته ، وانتزعها من أيدي نواب أتابكه . وبلغه أخذ الخزانة ، من «تلّ باشر» ، فسيّر من اعترض أصحاب «أتابك» في الطّريق ، فأخذ الخزانة منهم ، وكان يظنّ أنّ بها مالاً طائلاً ، فلم يجد الأمر كما ذكر ، فأعادها على أتابك ، فامتنع من أخذها ، وقال : «أنا ما ادّخرت المال إلاّ لك» ثم دخل السّلطان إلى حلب ، وكان ذلك كلّه ، في شهر رمضان ، من سنة تسع وعشرين وستمائة .

ثم إن السّلطان «الملك العزيز» ، خرج في خرجاته ، لرمي البندق إلى «حارم» ، وتوجّه منها إلى «دركوش» ثم إلى «أفامية» ، في سنة ثلاثين وستمائة ، فلم يحتفل به صاحب «شيزر» «شهاب الدّين يوسف بن مسعود بن سابق الدّين» ، وأنفذ إليه إقامة يسيرة ـ وهي شيء من الشّعير على حمير ، سخّرها من بلد شيزر ـ فشقّ عليه ذلك . فلما دخل حلب استدعى «سيف الدّين عليّ بن قلج الظّاهري» ، وسيّره إلى الملك الكامل ، ليستأذنه في حصار «شيزر» ، وأخذها ، وكانت مضافةً إلى حلب ، وإنّما خاف أن يُلقي صاحبها نفسَه على «الملك الكامل» ، فيشفع إليه في أمره ، فلا يتمّ له ما يريد ، فصعد «سيف الدّين» إلى دمشق ، وقرّر مع الملك الكامل ، الأمرَ على ما يختاره «الملك العزيز» ؛ وسيّر إلى السُّلطان الملك العزيز ، وأعلمه بذلك ، فأخرج العسكر ، «والزّردخاناه» ، ونزل العسكر على «شيزر» ، واحتاط الديوان ، على ما في رستاق «شيزر» من المغلاّت .

ووصل «سيف الدّين بن قلج» من دمشق ، وخرج السّلطان بنفسه ، فنصب عليها المناجيق ، من جهة الجبل ، وترك المنجنيق المغربي ، قبالة بابها ، وسيّر إلى صاحبها ، وقال له : «والله لئن قتل واحدٌ من أصحابي ، لأشنقنّك بدله» . فتقدّم إلى الجرخيّة بالقلعة ، أن لا يرمي أحدٌ بسهم ، وتبلّد ، وأسقط في يده .

وأرسل «الملك الكامل» إلى السلطان نجابَيْنْ ، ومعهما خمسة آلاف دينار مصريّة ، ليستخدم بها رجالة ، يستعين بهم على حصار «شيزر» .

وقدم إليه إلى شيزر «الملك المظفر محمود» ـ صاحب حماة ـ وأرسل إليه صاحب شيزر ، يبذل له تسليمها ، على أن يبقي عليه أمواله ، التي بها ، ويحلف له على أملاكه ، بحلب ، فأجابه إلى ذلك ، ونزل من شيزر إلى خدمة السّلطان ، وسلّمها إليه ، ووفى له السلطان بما اشترطه ، وصعد السُّلطان إلى القلعة ، وأقام أياماً بشيزر ، ثم دخل إلى مدينة حلب .

ومرض أتابك «شهاب الدّين طغرل بن عبدالله» في أواخر هذه السنة ، ودام مرضه ، إلى أن مات ، ليلة الاثنين الحادية عشرة ، من محرَّم سنة إحدى وثلاثين وستمائة .

وحضر السّلطان الملك العزيز محمد بن الملك الظَّاهر ، جنازته ، صبيحة الليلة المذكورة . ومشى خلف جنازته ، من داره إلى أن صلَّى عليه خارج «باب الأربعين» ، ودفن بتربته ، التي أنشأها «بتلّ قيقان» ، ووقفها مدرسة على أصحاب الإمام أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ وبكى السُّلطان عليه

بكاءً عظيماً ، وحضر عزاءه ، يومينْ بعد موته ، بالمدرسة التي أنشأها «أتابك» ، وجعل فيها تربة للسُّلطان الملك الظَّاهر - رحمهم الله -

وفي هذه السّنة :

وهي سنة إحدى وثلاثين

نزل الملك الكامل ، من مصر ، واتَّفق مع أخيه الملك الأشرف ، على قصد بلاد السلطان «كيقباذ بن كيخسرو» ، للوحشة التي تجدَّدت بينهم ، بسبب إستيلاء كيقباذ على بلاد «أخلاط» ، وانتزاعها من أيدي نواب «الملك الأشرف» ، وسارا من دمشق ، وخرج معهما الملك المجاهد ، صاحب حمص ، والملك المظفَّر ، صاحب حماة ، ووصل معهم الملك الناصر ، صاحب الكرك ، ووصلوا إلى «منبج» باذن السلطان «الملك العزيز» .

وسيَّر الملكُ العزيزُ ، إليه إلى «منبج» ، الإقامة العظيمة ، والزردخاناه ، وعسكره ، ومقدّمه عمّه «الملك المعظَّم» ، وساروا من ناحية «تل باشر» ، فنزل إليه «الملك الزَّاهر داود بن الملك النَّاصر» .

وقدم إليه صاحب «سميساط» «الملك المفضل موسى» ، وصاحب «عين تاب» «الملك الصالح بن الملك الظَّاهر» ، والملك المظفَّر شهاب الدّين بن الملك العادل ، والملك الحافظ أخوه ، وغيرهم ، من الملوك ، حتى اجتمع في عسكره ستة عشر أميراً .

وسيّر ملك الروم إلى «الملك العزيز» ، وقال له : «أنا راضٍ منك بأن

تمدّه بالأجناد والأموال ، على أن لا تنزل إليه أبداً» . وأعفاه الملك الكامل ، من مثل ذلك ، ورضي كلّ واحدٍ من الملكَيْن بفعله .

وسار الملك الكامل في جيوشه ، في أوائل سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، إلى أن نزل على «نهر الأزرق» ، في طرف بلاد الروم ، وجاء عسكر الروم حتّى نزل قبليّ زّلى - بينها وبين الدَّرْبند - والسّلطان معهم ، وصعد الرجالة إلى فم «الدَّرْبند» ، بالقرب من نور كغال، وبنوا عليه سوراً، وقاتلوا منه ، ومنعوا من يطلع إليه ، وقلَّت الأقوات على العسكر الشَّامي .

فرجع «الملك الكامل» ، وخرج إلى طرف بلد «بهسنى» ، ونزل على بحيرة أنزنيت ، ووصل إليه صاحب خرتبرت ، ودخل في طاعته ، وأشار عليه بالدّخول من جهته ، فسار إلى ناحية «خرتبرت» .

ووقعت طائفة من عسكر الروم ، على طائفة من عسكر الملك الكامل ، وفيهم الملك المظفَّر - صاحب حماة - وشمس الدين صواب ، فكُسر العسكر الكامليّ ، واعتصم مَنْ نجا منهم «بخرتبرت» ، فحاصرهم ملك الرُّوم إلى أن نزلوا بالأمان ، وأطلقهم ، واستولى «كيقباذ» على «خرتبرت» ، وعفا عن صاحبها ، وعوّضه عنها بأقطاع في بلاده .

ومرض «الملك الزَّاهر» في العسكر ، فحمل مريضاً إلى «البيرة» ، وقوي مرضه، وطمع بعض أولاده بمُلكها، وشرع في تحصينها وتقويتها، وبلغ «الملك الزَّاهر» ذلك ، فسيّر إلى السّلطان «الملك العزيز» ، واستدعاه إليه ، وأصعده إلى القلعة ، وأوصى إليه بالقلاع التي في يده ، والخزائن

وعيّن لأولاده شيئاً من ماله ، وتوفّي «بالبيرة» ، والسّلطان بها عنده ، في أوائل صفر ، من سنة اثنتين وثلاثين وستمائة .

وأقام السّلطان بها يرتّب أحوالها ، وأقام فيها والياً من قبله ، فاتّفق وفاة القاضي بهاء الدّين بحلب ، في يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر ، من سنة اثنتين وثلاثين وستمائة .

وطلب «الكمال ابن العجمي» قضاء حلب ، وكاتب السلطان في ذلك ، فلم يجبه إلى ذلك . وسار السلطان من «البيرة» إلى «حارم» ، فخرج ابن العجمي إليه ، إلى «حارم» ، فمنعه الدّخول اليه ، وبذل له في قضاء حلب ستّين ألف درهم ، وأن يحمل في كل سنة ، للسّلطان ، من فواضل أوقاف الصدقة ، ومن كتابة الشروط ، خمسين ألف درهم ، فلم يصغ السّلطان إلى شيء من ذلك ، وكتب إلى القاضي زين الدّين ، كتاباً يأمره بأن يحكم بين النّاس ، على جاري عادته ، إلى أن يدخل الى المدينة ، فلما دخل السلطان اجتهد «ابن العجمي» في قبول ما بذله ، وبذل شيئاً كثيراً غير ذلك ، لخواصّ السّلطان ، وحسنوا للسّلطان قبول ما بذله ، وإجابته الى ما سأله ، فجرى على مذهب أبيه وجدّه في الاحسان ، ولم يبع منصب النبيّ ـ ﷺ ـ بالأثمان ونظر في مصلحة الرعيّة ، وأرضى الله ونبيّه ، وقلّد القضاء بمدينة حلب وأعمالها ، في يوم الجمعة ، الرابع عشر ، من شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، القاضي زين الدّين أبا محمد عبدالله بن عبدالرحمن ، بن علوان ـ المعروف بابن الأستاذ ـ وكان نائب القاضي بهاء الدّين في الحكم .

وأما الملك الكامل ، فانه عاد في تلك الجيوش العظيمة ، ولم يحظ بطائل ، ودخل فصل الشتاء ، وحال بين الفريقينْ ، وعاد كلّ إلى بلاده ، ولما خرج فصل الشتاء ، خرج «علاء الدين كيقباذ» الى الجزيرة ، والرّها ، والرقة ، وسبى عسكره أهلَ البلاد كما يسبى الكفّار ، وذلك في ذي الحجة ، من سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، وسار «الملك الكامل» نحوها ، فاندفع ملك الرّوم ، فعاد «الملك الكامل» ، واستولى على البلاد ، وخرّب قلعة الرّها وبلدها ، وسيّر إليه السلطان العسكر الى الشّرق ، والزّردخاناه ، وذلك في الجمادين ، سنة ثلاث وثلاثين وستمائة .

ودام «الملك العزيز» ، في ملكه بحلب ، وسمت همّته إلى معالي الأمور ، ومال إلى رعيته ، وأحسن إليهم الى أن دخلت سنة أربع وثلاثين وستمائة ، فغضب على وزيره «زين الدّين بن حرب» ، وألزمه داره بقلعة حلب ، وولّى الديوان مكانه ، الوزيرَ «جمالَ الدّين الأكرمَ أبا الحسن عليّ بنَ يوسف القِفطيّ الشيباني» .

وخرج في أواخر شهر صفر إلى «النقرة» ، ثم توجّه منها الى «حارم» ، وحضر في الملقة [1] ، لرمي البندق ، واحتاج الى أن اغتسل بماء باردٍ ، فحمّ ، ودخل إلى حلب ، فالتقاه النّاس ، وهو موعوك ، ودامت به الحمّى ، الى أن قوي مرضه ، واستحلف الناس لولده الملك «النّاصر صلاح الدّين يوسف بن الملك العزيز» . وسيّرني إلى أخيه «الملك الصالح» إلى عين

(١) كذا بالأصل ، ولعله أراد «الملقى» أو أنها تصحيف «الحلقة» .

تاب ، يستحلفه له ، ولابنه «الملك الناصر» ، وعُدتُ ، وقد مات ، في شهر ربيع الأوّل ، من سنة أربع وثلاثين وستمائة .

وتولّى تدبير دولته الأميران : شمس الدين لؤلؤ الأميني ، وعزّ الدين عمر بن محلّي ووزير الدولة القاضي «جمال الدين الأكرم» و«جمال الدَّولة اقبال الخاتوني» ، يحضر بينهم في المشورة .

واذا اتّفق رأيُهم على شيء ، دخل جمال الدَّولة إقبال الخاتوني ، إلى جدّة السُّلطان «الملك النَّاصر» ، والدة «الملك العزيز» ، وعرّفها ما اتّفق رأي الجماعة عليه ، فتأذن لهم في فعله ، والعلامات على التواقيع ، والمكاتبات إلى الستر العالي الخاتوني، والدة الملك العزيز. فاتّفق رأيهم ، على أن سيّروا القاضي زين الدّين ـ قاضي حلب ـ والأمير بدرالدّين بدر بن أبي الهيجاء ، إلى مصر ، رسولَيْن إلى «الملك الكامل» ، ليحلّفاه «للملك النّاصر» ، ويتوثّقا من جهته ، واستصحبا معهما كُزَاغَند السّلطان الملك العزيز ، وزرديته ، وخوذته ، ومركوبه .

فلما وصلا إليه ، أظهر الألم والحزن لموته ، وقصّر في إكرامهما وعطائهما ، وحلف للملك الناصر ، على الوجه الذي اقتُرح عليه ، وخاطبَ الرسولَيْن بما يشيران به ، عنه ، من تقدمة «الملك الصالح بن الملك الظّاهر» ، على العسكر ، وأن تكون تربية «الملك الناصر» إليه ، فلم ير الجماعة ذلك .

واتّفق بعد ذلك بمدّة ، أن سيّر الملك الكامل خلعة للملك الناصر ،

بغير مركوب ، وسيّر عدّة خلع لأمراء الدّولة ، وسيّر مع رسول مفرد خلعة «للملك الصالح» ، على أن يجيء اليه إلى «عين تاب» ، فاستشعر أرباب الدّولة التّدبير من ذلك ، وحصل عند جدّة السّلطان وحشة من ذلك . واتفق رأيهم ، على أن لبس السّلطان خلعته ، ولم يُخْلَع على أحدٍ من الأمراء شيء ، مما سيّره لهم ، وردّوا الرسولَ الوارد إلى الملك الصالح بخلعته ، ولم يمكنوه من الوصول إليه ، واستوحشوا من جهة «الملك الكامل» .

وكان «الملك الأشرف» ، قد تتابعت من أخيه ، «الملك الكامل» أفعال أوجبت ضيقَ صدره ، وكان يغضّ على نفسه ، ويحتملها ، فمنها أنه أخذ بلاده الشرقيّة ، حين أعطاه دمشق ، وأخذ من مضافات دمشق ، مواضع متعدّدة .

واتفق أن «كيقباذ» ملك الرّوم ، أخذ «خلاط» ، فضاق ما في يد «الملك الأشرف» جدًّا ، وكان ينزل إليه في كلّ سنة إلى دمشق ، في عبوره إلى الشّرق ، فيقيم بدمشق مدّة ، فيحتاج «الملك الأشرف» ، في ضيافته إلى جملة .

وقبض على أملاكه التي كانت له بحرّان ، والرقّة ، وسروج ، والرّها ، ورأس عين ، وعلى جميع تمليكاته التي ملكها بتلك الناحية ، وفتح آمد ، وهو في صحبته ، فلم يطلق له من بلادها شيئاً ، وخذله في انتزاع «خلاط» من يد «الرّوميّ» ، فاتفق هو ، والملك المجاهد ـ صاحب حمص ـ والملك المظفّر ـ صاحب حماة ـ وعزموا على الخروج عليه ، وعُيّن لكلّ واحدٍ منهم

شيء من بلاده ، وأرسل إلى الملكة «الخاتون» والأمراء بحلب ، وطلبوا موافقتهم على ذلك ، وخوّفوهم من جهته ، وذكروا ما تمتدّ أطماعه إليه فوافقوهم .

وتحالفوا عليه ، وسيّروا رسلاً من جهتهم إلى ملك الروم «كيقباذ» ؛ يطلبون منه مثل ذلك . فوصلوا إليه ومات «كيقباذ» ، قبل اجتماعهم به فذكروا رسالتهم لابنه «كيخسرو» ، فحلف لهم على ذلك .

واتفقوا كلّهم على أن يرسلوا رسلاً من جهتهم ، إلى «الملك الكامل» ، الى مصر ، ومعهم رسول من حلب ، وقالوا له : «إنّنا قد اتفقنا كلنا ، ونطلب منك أنّك لا تعود تخرج من مصر ، ولا تنزل إلى الشام» ، فقال لهم : «مبارك ، أنتم قد اتفقتم ، فما تطلبون من يمين ، احلفوا أنتم أيضاً لي : أن لا تقصدوا بلادي ، ولا تتعرّضوا لشيء مما في يدي وأنا أوافقكم على ما تطلبون» . ونزل رسوله ، ومرض «الملك الأشرف» ، واشتغل بمرضه ، وطال الى أن مات ـ على ما نذكره ـ.

ومما تجدّد في حلب ، في سنة أربع وثلاثين وستمائة : أنّ «شهاب الدّين» «صاحب شيزر» ، و«كمال الدين عمر بن العجمي» ، اتفقا ، على أن سيّرا من جهتهما رجلاً ، يقال له «العزّ بن الأطغاني» إلى دمشق إلى «الملك الأشرف» ، وحدّثاه في أن يقصد حلب ، وأنهما يساعدانه بأموالهما ، وأوهمه صاحب «شيزر» أنّ معظم الأمراء بحلب ، يوافقونه على ذلك ، وأوهمه ابن العجمي أنّ أقاربه ، وجماعة كبيرة من الحلبيّين ، يتابعونه ، ويشايعونه ،

ويوافقونه ، على ذلك ، واشترط على «الملك الأشرف» ، أن يولّيه قضاء حلب .

فمضى رسولها إلى «الملك الأشرف» ، واجتمع ببعض خواصّه ، وذكر له الأمر الذي جاء فيه ، فلم يحضره اليه ، وأجابها بأنّه : «لا تتصوّر أن يبدو مني غَدر ، ولا قَبيحٌ في حقّ أحد من ذريّة الملك الظاهر» ، وأخبرني «فلك الدّين بن المسيري» أنّه هو الّذي كان المتكلّم بين «الملك الأشرف» ، وبين رسولها .

ونُمي هذا الخبر إلى الملكة ، والأُمراء ، فسيَّروا من يُوقف الرسولَ واتَّفق وصولُه إلى حلـب فقُبض في «باب العراق» ، وأُصعد إلى القلعة ، وسُئل عن ذلك ، فأخبرهم بالحديث على فصّه ، فحبس الرّسول ، وحلقت لحيته ، وسيّر الى «دربساك» ، وحُبس بها ، وأُصعد «ابن العجمي» ، وصاحب شيزر ، واعتقلا بالقلعة ، وأُخذت أموال صاحب شيزر جميعها ، ولم يُتعرّض لأموال ابن العجمي ، تطييباً لقلوب أهله . وداما في الاعتقال ، من جمادى ، من سنة أربع وثلاثين الى أن مات الملك الكامل ، في سنة خمس وثلاثين وستمائة ، وأطلقا .

وما حدث أيضاً ، في سنة أربع وثلاثين ، أنَّ أميراً من التركمان ، يقال له «قنغر» جمع إليه جمعاً من التركمان ، بعد موت «الملك العزيز» ، وعاث في أطراف بلاد حلب ، من ناحية «قورس» ، وغيرها ، ونهب ضياعاً متعدّدة ، وكان يغاز[1] ، ويدخل الى بلد الروم ، فخرج اليه عسكر من حلب ، فكسر

١ ـ كذا بالأصل ولعله أراد «يغزو» أو «يغير» .

ذلك العسكر ، ونهبه .

وتخوف أمراء حلب ، أن يكون ذلك بأمر «ملك الرّوم» ، فسيَّروا رسولا إلى ملك الروم ، في معناه ، فأنكر ذلك ، وأمر بردّ ما أخذه ، من بلد حلب ، فردّ بعضه ، وانكف عن العَيث والفساد .

وبذل «ملكُ الروم» من نفسه الموافقة ، والنصرة «للملك النّاصر» ، وكفّ من يقصد بلاده بأذىً ، فسيَّر له تقدمة سنيّة ، من حلب ، على يد «شرف الدين بن أمير جاندار» ، فأكرم الرَّسول إكراماً كثيراً ، وسُيّر اليه رسول في الباطن ، وهو أوحد الدّين ـ قاضي خلاط ـ فاستحلفه على الموالاة «للملك الناصر» ، والذبّ عن بلاده ، ودفع مَنْ يقصدها .

واتفق أيضاً ، في هذه السنة ، تحرّك الداويّة ، مِنْ «بغراس» ، وأغاروا في بلد «العمق» ، واستاقوا أغناماً للتركمان ، ومواشي لغيرهم كثيرة . فخرج «الملك المعظم بن الملك الناصر» يقدم عسكر حلب ، ونزلوا على «بغراس» وحصروها مدّة ، حتى ثغروا مواضع من سورها ، ونفد ما فيها من الذخائر ، وأشرفت على الأخذ ، فسيّر البرنس ـ صاحب أنطاكية ـ وشفع فيهم ، بعد أن كان مغاضباً لهم ، فرأوا المصلحة ، في إجابته إلى ذلك ، وعقدوا الهدنة مع الداويّة ، على «بغراس» ، ورحلوا عنها ، ولو أقاموا عليها يومين آخرين ، لما استطاع مَنْ فيها الصبر على المدافعة .

وسار العسكر عن «بغراس» ، بعد أن أخربوها ، وبلدها ، خراباً شنيعاً ، ونزل العسكر الاسلامي بالقرب من «دربساك» ، فجمع «الداويّة»

جموعهم ، واستنجدوا بصاحب «جُبَيْل» وغيره ، من الفرنج ، وجمعوا راجلاً كثيراً ، وساروا من جهة حجر «شغلان» إلى «دربساك» ، ظناً منهم أن يكبسوا الربض ، على غرَّة من أهله ، وأن ينالوا منه غرضاً ، فاستعدّ لهم مَنْ بالربض من الأجناد ، ونزل جماعةٌ من أجناد القلعة ، وقاتلوهم في الربض ، قتالاً شديداً ، وحموه منهم ، واشتغلوا بقتالهم ، إلى أن وصل الخبر إلى عسكر حلب ، فركبوا ، ووصلوا إليهم ، وقد تعب الفرنج ، وكلَّت خيولهم ، فوقعوا عليهم ، فانهزم الفرنج هزيمة شنيعة ، وقتل منهم خلق عظيم ، واستولى المسلمون على فارسهم وراجلهم ، وكان فيهم جماعة من المقدّمين واختبأ منهم جماعة من الخيّالة ، وغيرهم ، خلفَ الأشجار في الجبل ، فأخذوا ، ولم ينج منهم إلاَّ القليل ، ودخلوا بالرؤوس والأسرى إلى حلب ، وكان يوماً مشهوداً وحُبِسوا في القلعة ، ثم أنزلوا الى الخندق .

واستولى المسلمون على فارسهم وراجلهم ، وكان فيهم جماعة من المقدّمين واختبأ منهم جماعة من الخيّالة ، وغيرهم ، خلفَ الأشجار في الجبل ، فأخذوا ، وكان يوماً مشهوداً وحُبِسوا في القلعة ، ثم أنزلوا إلى الخندق .

وفتّت هذه الوقعة في أعضاد «الداويّة» ، بالساحل ، ولم ينتعشوا بعدها ، وكانوا قد استطالوا على المسلمين والفرنج .

ومات في هذه السّنة «علاء الدين كيقباذ» ـ ملك الروم ـ «بقيصرية» ، في أوائل شوَّال ، من سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وسُيّرتُ رسولاً إلى ابنه «غياث الدين كيخسرو» ، القائم في الملك بعده ، بالتّعزية ، وتجديد الأيمان عليه ، على القاعدة التي كانت مع أبيه ، فحلَّفتُه على ذلك ، في ذي القعدة .

وكان قد قبض على «قيرخان» ـ مقدّم الخوارزمية ـ فهرب مَنْ بقي منهم، من بلاد الروم، ونهبوا في طريقهم ما قدروا عليه، وعبروا الفرات، واستمالهم الملك الصالح بن الملك الكامل، وأقطعهم مواضع في الجزيرة.

وتوفِّي «الملك الأشرف» بدمشق، لأربع خلون من المحرم من سنة خمس وثلاثين وستمائة. وأوصى بها لأخيه «الملك الصالح اسماعيل»، وجدّد الأيمان مع الجماعة، الذين كانوا وافقوا أخاه «الملك الأشرف».

فخرج «الملك الكامل» من مصر، وقَصد دمشق، وسيَّر مِن حلب نجدةً إلى دمشق وكذلك سيَّر «الملك المجاهد» ولدَه «المنصور» إليها، ونزل «الملكُ الكاملُ» على دمشق، وحصرها مدّة، فرجع «الملك المظفَّر» ـ صاحب حماة ـ عن موافقة الجماعة وداخل الملك الكامل، وأطلعه على جميع الأحوال، ووقع بينه وبين صاحب حمص اختلاف، وطلب من صاحب حمص «سلمية»، لتجري الموافقة على ما كان عليه.

فَسُيِّرتُ من حلب، ومعي الأمير «علاء الدّين طيبغا الظَّاهري»، ليوفِّق بين صاحب حمص وصاحب حماة، فأبى كلّ واحد منهما، أن يجيبَ صاحبه إلى ما يريد. وكان مطلوبُ صاحب حماة أن يعطيه صاحبُ حمص «سلمية» والقلعة الَّتي جدّدها «الملك المجاهد» المعروفة «بشميميس»[1]. فقال «الملك المجاهد»: «هذه ثمينة لي، وقد حلف لي على كلّ ما بيدي»، وأبى أن يجيبه إلى ذلك.

١ ـ ماتزال تحمل الاسم نفسه قرب سلمية، يراها على يمينه الخارج من سلمية إلى حماة.

فعدنا إلى «حماة»، وذَكَرْنا لصاحبها مقالة «الملك المجاهد»، وأنَّ في ما يحاوله نقضاً للعهد، فقال: «هو قد نقض عهدي، وأنفذ واستفسد جماعةً من عسكري»، وعدّد له ذنوباً لا أصل لها، وقال: «لابدَّ مِنْ قَصده، وإذا نزل الملكُ الكاملُ على حمص، نزلتُ معه عليها وفعلتُ ما يصل إليه جهدي. ولكن حلب، أبذلُ نفسي ومالي دون الوصول إلى قرية منها، ولا أرجعُ عن اليمين الَّتي حلفتُ بها للسِّتر العالي، والملك الناصر».

فقلتُ: «فالمولى يعلمُ ما جرى بيننا وبين صاحب حمص، من الأيْمان، وما نقض منها عهداً، وإذا قصدَه قاصدٌ إلى حمص يتعينّ إنجادُه ونُصرته، وإذا وصلَ عسكرٌ مِنْ حلب لنجدته، فكيف يفعل المولى»؟ فتلجلج، وقال: «أنا أقاتله، وَمَن قاتلني قاتلته».

فكتبنا بذلك إلى حلب، فجاء الأمر بالتوجّه إلى حلب، فسرنا في الحال من غير توديع، حتى وصلنا العبادي ليلة الاثنين، مستهلّ جُمادى الأولى، من سنة خمس وثلاثين وستّمائة، فلحقنا «المهماندار»[1] بالخلع والتّسفير، فلم نقبل منه شيئاً، ووصلنا إلى حلب يوم الثلاثاء، فتحقَّق أنَّه قد داخل «الملك الكامل»، وأنه يطالعه بالمتجدّدات جميعها.

وأما دمشق، فإنَّ «الملك الكامل»، لازم حصارها، حتى صالحه «الملك الصَّالح»، على أن أبقى له بعلبك، وبصرى، وأخذ منه دمشق، في تاسع

١ ـ أي مايماثل مدير المراسم.

عشر جمادى الأولى، من السّنة، ولم يتعرّض لنجدة حلب، وحمص، بسوء. وخرجوا من دمشق إلى مستقرّهم.

ووصل «النّاصح»، وعسكر حلب، إلى حلب، واستدعى «الملك المعظّم»، وأقارب السلطان والأمراء، وحلفوا للسّلطان «الملك الناصر» و«للخاتون الملكة»، على طبقاتهم. ثمّ حلف بعد ذلك أكابر البلد، ورؤساؤها. ثم حلف الأجناد والعامة، واستعدّ الناس للحصار بالذّخائر، والأقوات، والحطب، وما يجري مجراه، ونقلت أحجار المناجيق إلى أبواب البلد، واستخدم جماعة من الخوارزميّة، وغيرهم.

ووصل «قنغر التركماني» فاستخدم بحلب، وقدّم على التركمان. وقفز جماعة من العسكر الكاملي إلى حلب، فاستخدموا، وتتابعت الرسل إلى «ملك الرّوم»، لطلب نجدة، تصل إلى حلب، من جهته، فسيّر نجدةً من أجود عساكره، وعرض عليهم أن يسيّر غيرها، فاكتفوا بمن سَيَّره.

وسيَّر ملك الروم رسولاً إلى «الملك الكامل»، يخاطبه في الامتناع عن قصد حلب، فأمر بالتبريز من دمشق، لقصد حلب، وأخرج الخيم والأعلام، فمرض، ومات بدمشق، في قلعتها، في حادي وعشرين، شهر رجب، من سنة خمس وثلاثين وستمائة، ووصل خبر موته، فعمل له العزاء بحلب، وحضره السّلطان «الملك النّاصر»، يومَيْن، وأمر العسكر، في الحال، بالخروج إلى معرَّة النعمان، فخرج، ونازل معرَّة النّعمان، مع «الملك المعظّم»، ووصل رسُول «الملك المظفَّر» ـ صاحب حماة ـ يتلطَّف الحال، فلم

يُلتفت إليه، ولم يُستحضر. وسيّرت المجانيق، ونصبت على قلعة المعرّة.

ووصل في أثناء ذلك، رسول من السّلطان «غياث الدّين كيخسرو»، يطلب الوصلة إلى «الخاتون الملكة»، بأن تزوّجه بنتَ السلطان «الملك العزيز»، أختَ السّلطان «الملك الناصر»، وأن يُزَوِّج السّلطانُ الملكُ الناصر، أختَ السلطان «غياث الدين»، واستقرَّ الأمر على ذلك، واجتمع النّاس في دار السّلطان، بالقلعة، وعُقِد عَقْدُ السُّلطانِ «غياث الدّين» على الستّ «غازية خاتون». وتَوَلَّيْتُ عقدَ النكاح، على مذهب الإمام أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ لصغر الزَّوجة، على خمسين ألف دينار، وقَبلَ النّكاحَ، عن السُّلطان «غياث الدّين» الرسولُ الواصلُ من جهته، «عزُّ الدّين» ـ قاضي دوقات[1] ـ حينئذ ـ ونَثَر الذَّهبَ، عندَ الفَراغ من العقد.

ووصل، عند ذلك، الخبرُ بفتح «معرّة النّعمان»، في تلك السَّاعة، على جناح طائر ـ وضُرِبت البشائرُ للأمرَين، وذلك في تاسع شعبان[2] من سنة خمس وثلاثين وستّمائة.

وسار العسكر فنازل «حماة»، وابتنى صاحبُها سوراً من اللّبن، على حاضرها، من جهة القبلة، ونَهب عسكرُ حلب بلد «حماة» ورستاقها.

ووصل رسول من الملك «الصالح بن الملك الكامل»، يشفع في صاحب حماة، فلم يُجَب إلى سؤاله فيه، واعتُذر إليه بما بدا منه، وطلب

١ ـ هي توقات عند ياقوت، بلدة بين قونية وسيواس.
٢ ـ قراءة ترجيحية، بسبب طمس مطلع السطر.

الرّسول، عن صاحبه، الموافقة والمعاضدة، وأن يسفروا في الصّلح، بينه وبين «ملك الرّوم»، فأجيب جواباً، لم يحصل منه على طائل.

ووردت الرّسل من مصر، من الملك العادل، والملك الكامل، يطلبون منه الموافقة، بينه وبين صاحب حلب، وأن يجروا منه، على عادة أبيه، في الصّلح، وإقامة الدعوة له بحلب، فلم يُجب إلى شيء من ذلك، ورجعت الرّسل بغير طائل.

وفي هذه السنة، قُبض على «قنغر التركماني»، وحُبس بقلعة حلب، ونُهبت خيمه ودوابّه.

وسُيِّرت من حلب، في الرّابع من شوّال، سنة خمس وثلاثين وستمائة، إلى «بلاد الرُّوم»، لعقد الوصلة بين السُّلطان «الملك النَّاصر»، والسّلطان «غياث الدين كيسخرو»، على أخت السّلطان كيخسرو، وهي ابنة خالة الملك العزيز، والد الملك الناصر.

وسمع السلطان كيخسرو بوصولي، وكان في عزم «كيخسرو» التوجّه إلى ناحية «قونية»، فتعوّق بسببي، وسيّر بولقاً إلى «أقجا» دربند، قبل وصولي «ابلستان» يستحثُّني على الوصول، ويعرّفني تعويقه بسببي، ثم سير بولقاً آخر، فوصل إلى تحت «سمندو» يستحثُّني على الوصول.

فأسرعتُ السّير، حتى وصلت إلى «قيصريّة»، والسّلطان في «الكيقباذية»، فاستدعاني إليه، ولم أنزل «بقيصريّة»، واجتمعتُ به، عند وصولي، يوم الثلاثاء، سادس عشر شوّال، من سنة خمس وثلاثين وستمائة،

ووقعت الإجابة إلى عَقد العَقد. ووكّل السلطان «كمال الدّين كاميار»، على عقد العقد معي، على أخته «ملكة خاتون بنت كيقباذ». ودخلنا في تلك السّاعة إلى «قيصريّة»، وأحضر قاضي البلدة، والشّهود، وعقدت العقد مع «كاميار»، على خمسين ألف دينار سلطانيّة، مثل صِداق «كيخسرو»، الذي كُتب عليه لأخت السّلطان «الملك الناصر».

وأظهر في ذلك اليوم من التجمّل، وآلات الذهب، والفضة، مالا يمكن وصفه. ونثرت الدنانير الواصلة، صحبتي، وكانت ألف دينار، ونُثر في دار السلطان من الذّهب، والدّراهم، والثياب، والسكّر، شيء كثير. وضُربت البشائر في دار السّلطان، وأظهر من السرّور والفرح، ما لا يوصف.

وسَيَّرتُ، في الحال، بعضَ أصحابي إلى حلب، مبشّراً بذلك كلّه، فضربت البشائر بحلب، وأفيضت الخلع على المبشّر، وعُدت إلى حلب، فدخلتها يوم الخميس، تاسع ذي القعدة، والتقاني السلطان «الملك الناصر» - أعزَّ الله نصره - يوم وصولي.

هذا كلُّه، والعسكرُ الحلبيّ محاصرٌ «حماة». وكان قبل هذا العقد، سَيَّر السلطانُ «كيخسرو» الأميرَ «قمر الدّين» الخادم - ويُعْرَف بمَلِكِ الأرْمَن - رسولاً إلى حلب، وعلى يده توقيع من السُّلطان «الملك الناصر»، بالرُّها، وسروج. واتّفق الأمر معه، على أن خَطَب له الملكُ «المظَفَّر شهاب الدّين غازي» - ابن الملك العادل - وأقطعه حرّان، وأقطع «الملك المنصور» - صاحب ماردين - سنجار، ونصيبين، و«الملك المجاهد» - صاحب

حمص ـ عانة، وغرباً من بلد الخابور، وكانت هذه البلاد في يد «الملك الصالح بن الملك الكامل». واتّفق الأمر، على أن يأخذ السلطان «كيخسرو» آمد، وسميساط، وأعمالها.

وكان «الخوارزميّة»، قد خرجوا على «الملك الصالح»، واستولوا على البلاد، وهرَب «الملك الصَّالح» منهم. فأُنْعِم على الرَّسول الواصل إلى حلب، وأُعطي عطاء وافراً، وقُبِل التوقيعُ منه.

ولم ترَ الملكة «الخاتون» مضايقة ابن أخيها في البلاد، ولم تتعرّض لشيء منها. وبلغه ذلك فَسَيَّر إليها، وعرض عليها تلك البلاد، وغيرها، وقال: «البلاد كلّها بحكمكِ، وإنْ شِئتِ إرسال نائب يتسلَّم هذه البلادَ، وغيرها، فأرسليه لأسلِّم إليه ما تأمرين بتسليمه». فشكرتْه، وطيَّبَت قلبه.

واتَّفق بعد ذلك مع «الخوارزميّة»، وأقطعهم: حرَّان، والرّها، وغيرهما، بعد أن كانوا اتفقوا مع «الملك المنصور» ـ صاحب ماردين ـ وقَصدوا بلاد «الملك الصالح أيوب»، وأغاروا عليها، ونزلوا على حرّان، وأجفل أهلها.

وخاف «الملك الصالح»، فاختفى، ثم ظهر «بسنجار»، وحصره «بدرُ الدّين لؤلؤ» ـ صاحب المَوْصل ـ وكان قد ترك ولده الملك «المغيث» «بقلعة حرَّان»، فخاف من الخوارزميّة، وسار مختفياً نحو «قلعة جعبر»، فطلبوه، ونهبوه ومَنْ معه، وأفلت في شرذمة من أصحابه، ووصل إلى

«منبج» مستجيراً بعمّته . فسيّر إليه منْ حلب ، ورُدَّ عن الوصول إليها بوجهٍ لطيف ، وقيل له : «نخافُ أن يطلبك منّا سلطان الرّوم ، ولا يمكننا منعك منه» ، فعاد إلى حرّان ، ووصله كتاب أبيه يأمره بموافقة «الخوارزمية» والوصول إليه بهم لدفع «لؤلؤ» ، ففعل ذلك ؛ وسار «بالخوارزميّة» ، طالبين عسكر الموصل ، فانهزموا وأفرجوا عن سنجار ، وأدركهم الخوارزمية فقتلوا منهم ونهبوا أثقالهم ، وقوي «الملك الصالح» بهم .

ووصل عسكر «الروم» إلى آمد ، ونازلها ، وأخذ بعضَ قلاعها ، وتوجَّه عسكر «الخوارزميّة» ، إلى جهتهم ، فرحلوا عن آمد . ولم ينالوا منها زبدة .

ووصل رسول «السلطان كيخسرو» عز الدّين ـ قاضي دوقات ـ إلى حلب في هذه السنة ، وتحدَّث في إقامة الدّعوة «للسلطان كيخسرو» ، وضرب السكَّة باسمه . وكان الأمراء والعسكر محاصرين «حماة» ، فتوقَّفت الملكة في ذلك ، وأشير عليها بموافقته على ما طلب ، فأجابت وخُطب له في يوم الجمعة « . . . . »[1] من سنة خمس وثلاثين وستمائة ، على منبر حلب .

وحضر في ذلك اليوم ، الأمير «جمال الدّولة إقبال» ، وصعد الرّسول إلى المنبر ، ونَثَر الدّنانير عند إقامة الدعوة ، ونثر «جمال الدولة» دنانير ودراهم ، وخلع على الدعاء ، وأظهر من السرور ، والاحتفال في ذلك

١ ـ فراغ بالأصل .

اليوم ، شيء عظيم ، في مقابلة ما أظهر «بقيصرية» من الاحتفال يوم عقد الملك الناصر .

وطال الحصار على «حماة» ، ولم تكن «الملكة الخاتون» تُؤثر أخذها من ابن أختها ، وانما أرادت التّضييق عليه ، لينزل عن طلب «معرّة النعمان» . وضجر العسكر ، فاستُدعي إلى حلب المحروسة ، فوصل إليها في «. . . . .»[1] من سنة ست وثلاثين وستمائة .

وكان الملك «الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل» ، بعد موت «الملك الكامل» ، قد استولى على «دمشق» ، وعلى الخزائن ، التي كانت في صحبة «الملك الكامل» ؛ ويظهر الطاعة «للملك العادل» وأرسل إلى حلب ، رسولاً يطلب منهم معاضدته ، وانتماءه ، فلم يُصغوا إلى قوله ، وامتنعوا أن يدخلوا بينه وبين الملك العادل .

وخاف من «الملك العادل» ، فراسل الملك «الصالح أيّوب بن الملك الكامل» ، واتّفقا على أن تسلِّم إلى «الملك الصالح» دمشق ، ويعوّضه عنها «بالرّقة» و«سنجار» و«عانة» ، فسار «الملك الصالح» ، من الشّرق ، و«الخوارزميّة» في صحبته ، في جمادى الأولى .

وتقدَّم الملك الصالح إلى دمشق ، وتسلَّمها من «الملك الجواد» ، في جمادى الآخرة من سنة ستّ وثلاثين ، وأرسل إلى عمّته إلى حلب ، يُعرفها بذلك ، ويبذل من نفسه الموافقة على ما تريده ، ويطلب المساعدة له ،

---

١ ـ فراغ بالأصل .

والمعاضدة على أخذ مصر ، فأجابته بأنَّها : «لا تدخل بينه وبين أخيه ، وأنكما ولد أخي» ، ولم تُجبه إلى ما اقترح .

وسار «الملك الجواد» إلى «الرَّقة» ، فأخرجه «الخوارزمية» منها ، وسار إلى «سنجار» ، فأقام بها مدّة ، وخرج إلى «عانة» ، فسار بدر الدين لؤلؤ إلى سنجار ، بعملة كانت له فيها ، فاستولى عليها ، في شهر ربيع الأوَّل ، من سنة سبع وثلاثين .

وأما الملك الصالح ، فإنَّه صعد إلى «نابلس» ، وأقام بها ، وكاتب الأمراء المصريّين ، وعثر الملك العادل على قضيّتهم ، فقبض الذين كاتبوه ، ولم يتَّفق للملك الصَّالح ما أراد .

وساقَ عمّه «الملك الصالح اسماعيل» ، من بعلبك ، «والملك المجاهد» - صاحب حمص - منها ، ودخلا «دمشق» ، وملكها «الملك الصالح» ، وحصر القلعة يوماً أو يومين ، وفتحها ، وذلك في شهر ربيع الأوَّل ، من سنة سبع وثلاثين وستمائة . وقبض على «الملك المغيث» ابن الملك الصَّالح ، وسجنه «بقلعة دمشق» .

وسمع الملك الصَّالح بن الكامل بذلك ، فتوجَّه نحو دمشق ، حتى وصل إلى «العقبة» ، فلم يجد معه من عسكره من ينصحه ، فعاد إلى «نابلس» ، فسيَّر «الملك الناصر» - صاحب الكرك - وقبض عليه ، وحمله مقيّداً إلى «الكرك» وسجنه بها .

وتجدَّدت الوحشة بين «الملك الناصر» ، وبين «الملك الصالح» ،

عمّه ، بسبب استيلائه على دمشق . واتفق الملك العادل وعمّه الملك الصَّالح ، فاستوحش «الملك الناصر» من الملك العادل لذلك ، حتى آل الأمر به إلى أن أخرج الملك الصَّالح بن الكامل من سجن «الكرك» ، وخرج معه ، وكاتب الأمراء بمصر ، فقبضوا على «الملك العادل» «ببلبيس» ، في ليلة الجمعة ، الثامنة من ذي القعدة ، من سنة سبع وثلاثين وستمائة ، ووصل الملكُ الصَّالحُ أيوب ، فدخل «القاهرة» ، بكرة الأحد الرابع والعشرين من الشهر المذكور .

وكُنت إذْ ذَاك بالقاهرة ، رسولاً إلى «الملك العادل» ، أهنئه بكسر عسكره الافرنج على «غزَّة» ، وأطلب أن يسيّر عمَّاته بنات «الملك العادل» ، معي إلى أختهن «الملكة» إلى حلب ، فاستحضرني «الملك الصَّالح أيُّوب» ، يوم الثلاثاء حادي عشر ذي الحجّة ، وقال لي : «تقبّل الأرضَ بين يدي السِّتْر العالي ، وتُعرّفها أنني مملوكُها ، وانَّها عندي في محلّ «الملك الكامل» ، وأنا أعرض نفسي لخدمتها ، وامتثال أمرها فيما تأمر به» ، وحمَّلني مثلَ هذا القول إلى «السّلطان الملك الناصر» .

ونزلتُ من مصر ، فاجتمعتُ بالملك الصَّالح اسماعيل بن الملك العادل ، في رابع محرَّم سنة ثمان وثلاثين ، وحمَّلني رسالة إلى «الملكة الخاتون» ، يطلب منها معاضدتَه ، ومساعدتَه ، على «الملك الصَّالح» - صاحب مصر - إنْ قَصَده ، فلم تُجبْهُ إلى ذلك في ذلك الوقت .

وكان «الخوارزميّة» ، في سنة سبع وثلاثين ، قَد وضعوا أيديهم على

«أوشين» ـ من بلد البيرة ـ وطمعوا في أطراف بلد «البيرة» ، واستولوا على قلعة «حرّان» ، حين كان «الملك الصالح» محبوساً «بالكرك» ، وامتدَّت أطماعهم إلى البلاد المجاورة لهم ، وكثير تثقيلهم على الملك «الحافظ أرسلان بن الملك العادل» ، بناحية «قلعة جعبر» ، وهو يداريهم ، ويبذل لهم الأموال ؛ وأطماعُهم تشتدّ .

واتَّفق أنه فُلِجَ ، وخَاف مِنْ وَلَدِهِ ، فأرسل إلى أخته «الملكة» بحلب يطلبُ منها أن تُقايضه «بقلعة جعبر» و«بالس» . إلى شيء تعمل له ، بمقدار «قلعة جعبر» و«بالس» . فاتَّفق الأمر على أن تعوّضه «بعزاز» ، ومواضع تعمل بمقدار ذلك . وسيَّر مِنْ حلب من تسلَّم «قلعة جعبر» ، في صفر من سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

ووصل «الملك الحافظ» إلى حلب ، في هذا الشَّهر ، وصعد في المحفَّة إلى القلعة ، واجتمع بأخته «الملكة» ، وأنزل في الدار المعروفة «بصاحب عين تاب» ـ تحت القلعة ـ وسُلمت إلى نوَّابه «قلعة عزاز» .

فخرج الخوارزمية ، عند ذلك ، وأغاروا على بلد «قلعة جعبر» ، ووصلوا إلى «بالس» ، فأغاروا عليها ، ونهبوها ، ولم يسلم منها إلاَّ من كان خرج عنها إلى حلب وإلى منبج .

وفي هذا الشَّهر ، توفِّي القاضي «جمال الدّين أبو عبد الله ، محمد بن عبد الرّحمن بن علوان» ـ قاضي حلب ـ وولّى قضاءها بعده نائبُه ابن أخيه «كمال الدين أبو العبَّاس ، أحمد بن القاضي زين الدّين أبي محمد» .

وخرج عسكر حلب إلى جهة «الخوارزمية» ، ومقدَّمهم «الملك المعظَّم تورانشاه» بن الملك الناصر ، فنزلوا «بالنّقرة» ، ورحلوا منها إلى «منبج» ، وأقاموا بها مدَّة . وتجمَّع «الخوارزمية» في حرَّان ، والحلبيّون غير محتفلين بأمرهم ، وعسكر حلب بعضه في نجدة «ملك الرُّوم» في مقابلة «التتار» ، وبعضهم في «قلعة جعبر» ، وبعضهم مفرَّقون في القلاع ، مثل «شيزر» ، «وحارم» ، وغيرهما .

وسار الخوارزميّة ، بجملتهم ، في جمع عظيم ، ومعهم «الملك الجواد بن مودود بن الملك الحافظ» ، و«الملك الصالح» بن الملك المجاهد - صاحب حمص - وكان جمعهم يزيد على اثني عشر ألفاً ، وانضم اليهم الأمير «علي بن حديثة» في جموعة من العرب ، وكان استوحش من أهل حلب ، لتقريبهم الأحلاف .

وعبروا بجملتهم من «جسر الرّقة» ، وساروا ، حتى وصلوا نهر «بوجبار» ، وسمع بهم مَن بمنبج ، من عسكر حلب ، فرحلوا من منبج ، ونزلوا في وادي «بزاعا» ، وأصبح كلّ واحد من الفريقين ، يطلب صاحبه ، وعسكر حلب لا يزيدون عن ألف وخمسمائة فارس .

وتعبّأ كلّ فريق لقتال صاحبه . وأقبل الخوارزمية - ومقدّمهم «بركة خان» - ومعه «صاروخان» و«بردى خان» و«كشلوخان» وغيرهم ، من أمرائهم ، والملك الجواد ، وابن الملك الحافظ ، وابن صاحب حمص ، وعسكر «ماردين» نجدة معهم وعبروا «نهر الذَّهب» . والتقى الفريقان ، على

«البيرة» ـ قرية بالوادي ـ في يوم الخميس رابع عشر ، من شهر ربيع الآخر ، من سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، فصدمهم عسكر حلب على قلّته ، صدمة ، تزحزحوا لها ، وتكاثر الخوارزمية عليهم .

وجاء «عليّ بن حديثة» ، وخرج من بين البساتين ، وجاء من وراء عسكر حلب ، ووقع في الغلمان ، و«الركابدارية» ، وأحاطوا بهم ، من جميع الجهات ، وانهزموا وهم مطبقون عليهم ، وجعلوا طريقهم على «رصيف الملكة» ، الذي يأخذ من «بزاعا» إلى حلب ، حتى خرجوا فيما بين «ربانا» و«تلفيتا» . والخوارزميّة في آثارهم يقتلون ، ويأسرون ، ونزلوا من جهة «اعرابية» ، و«فرفارين» وهم في آثارهم ، فقبضوا على «الملك المعظّم» ، بعد أن ثبت في المعركة ، وجرح جراحات مثخنة ، وعلى أخيه «نصرة الدين» ، وقبضوا على عامة الأمراء ، ولم يسلم من العسكر إلاّ القليل . وقتل في المعركة «الملك الصالح» ابن الملك الأفضل ، وابن الملك الزّاهر ، وجماعة كثيرة . واستولوا على ثقل العسكر ، ونَهَبَ الأحلافُ من العرب أكثر ثقل العسكر ، وكانوا أشدَّ ضرراً على العسكر ، في انتهاب أموالهم من أعدائهم .

ونزل «الخوارزميّة» حول «حيلان» ، وامتدّوا على النهر ، إلى «فافين» ، وقطعوا على جماعة من العسكر أموالاً أخذوها منهم ، وابتاعوا بها أنفسهم ، وشربوا تلك الليلة ، وقتلوا جماعة من الأسرى صبراً ، فخاف الباقون ، وقطعوا أموالاً على أنفسهم ، وزنوها فمنهم من خلص ، ومنهم من أخذوا منه المال ، وغدروا به ، ولم يطلقوه .

واختبط «بلد حلب» ، وتقدَّم إلى مقدّمي البلدة بحفظ الأسوار ، والأبواب ، وجفل أهلُ «الحاضر» ، ومَنْ كان خارج المدينة إلى المدينة ، بما قدروا على نقله من أمتعتهم ، وبقي في البلد الأميران : «شمس الدّين لؤلؤ» ، و«عزّ الدّين بن مجلّي» ، في جماعة ، لا تبلغ مائتي فارس يركبون ، ويخرجون إلى ظاهر المدينة ، يتعرَّفون أخبارهم .

وبثُّوا سراياهم ، في أعمال حلب يشنّون الغارة فيها ، فبلغت خيلهم إلى بلد «عزاز» ، و«تلّ باشر» ، و«برج الرّصاص» ، و«جبل سمعان» ، و«بلد الحوّار» ، و«طرف العمق» ، وجاؤوا أهل هذه النوحي على غفلة ، فلم يستطيعوا أن يهربوا بين أيديهم ، ومَنْ أجفل منهم لحقوه ، فأخذوا من المواشي ، والأمتعة ، والحرم ، والصبيان ، ما لا يحدّ ولا يوصف ، وارتكبوا من الفاحشة مع حرم المسلمين ، ما لم يفعله أحد من الكفّار ، إلاَّ ما سمع عن القرامطة .

ثم رحلوا إلى «بزاعًا» ، و«الباب» ، فعذَّبوا أهل الموضعينْ ، واستقروهم على أموالهم التي أخفوها ، واستصفوها منهم . وقتلوا منهم جماعة ، ونهبوا ما كان فيها من المتاع والمواشي ؛ وكان بعضهم ، قد هرب إلى حلب ، وقتَ الوقعة ، بما خفّ معه من الحرم ، والمتاع ، فسلم .

ثم رحلوا إلى «منبج» ، وقد استعصم أهلها بالسّور ودرَّبوا المواضع التي لا سور لها ، فهجموها بالسّيف ، في يوم الخميس الحادي والعشرين ، من شهر ربيع الآخر ، من سنة ثمان وثلاثين ، وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً ،

وخرَّبوا دورها ، ونبشوها ، فعثروا فيها على أموال عظيمة ، وسبوا أولادهم ونساءهم ، وجاهروا الله تعالى بالمعاصي في حرمهم ، والتجأ لّمة من النّساء إلى «المسجد الجامع» ، فدخلوا عليهنّ ، وفحشوا ببعضهن في المسجد الجامع ، وكان الواحد منهم يأخذ المرأة ، وعلى صدرها ولدها الرَّضيع ، فيأخذه منها ، ويضرب به الأرض ، ويأخذها ، ويمضي .

ووصل الخبر بكسرة عسكر حلب إلى حمص إلى «الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد» ، وقد عزم على الدخول إلى بلد «الفرنج» للغارة ، وعنده من عسكره وعسكر دمشق مقدار ألف فارس ، فساق بِمَن معه من العسكر . ووصل إلى حلب في يوم السَّبت الثالث والعشرين ، من شهر ربيع الآخر .

وخرج السُّلطان وأهلُ البلد ، والتقوَه إلى «السَّعْدي» ، ونزل «الهَزازه» ، ثم أُخليتْ له في ذلك اليوم دار «علم الدّين قيصر الظَّاهري» . بمصلّى العيد العتيق - خارج «باب الرَّابية» - فأقام بها ، واستقرَّ الأمر معه على أن يستقدم العساكر ، وتُجمع ، ووقع التوثُّق منه ، وله ، بالأيمان والعهود .

وسُيِّرتُ رسولاً إلى الملك «الصالح إسماعيل بن الملك العادل» لتحليفه ، فسرتُ ، ووصلتُ إلى دمشق ، وحلَّفته في جُمادى الآخرة من السّنة ، وطلبتُ منه نجدة من عسكره ، زيادة على مَنْ كان منهم بحلب ، فَسيَّر نجدةً أخرى ، وأطلق الأسرى «الداويّة» ، الذين كانوا بحلب استكفاء لشرّهم .

وحين سمع «الخوارزميّة» تجمّع العساكِر بحلب ، عادوا من أقطاعاتهم ، وتجمّعوا «بحرّان» ، وعزموا على العبور إلى جهة حلب ، ومعاجلتهم قبل أن يكثر جمعهم ، وظنّوا أنهم يبادرون إلى صلحهم .

وكان «عليّ بن حديثة» ، قد انفصل عن «الخوارزمية» وظاهر ابن غنام ، قد خدم بحلب ، وأُمّر في سائر العرب ، وزوّجته «الملكة الخاتون» بعضَ جواريها ، وأقطعته أقطاعاً ترضيه .

فسار «الخوارزمية» ، من «حرّان» ، في يوم الاثنين سادس عشر شهر رجب ، من سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وتتابعوا في الرَّحيل ، ووصلوا إلى «الرَّقة» ، وعبروا «الفرات» ، وبلغ خبرهم إلى حلب ، فبرز «الملك المنصور» خيمتَه ، وضربَها شرقيَّ حلب ، على أرض «النّيْرب» و«جبرين» ، وخرجت العساكر ، بخيمها حوله .

ووصل «الخوارزميّة» إلى «الفايا» ثم إلى «دير حافر» ثم إلى «الجبّول» ، وامتدوا في أرض «النّقرة» . وأقام «الملك المنصور» ، والعسكر معه ، في الخيم ، وَيزَكَ الخوارزميّة في «تلّ عرن» ، وَيزك الملك المنصور على «بوشلا» ، والعربان يناوشون «الخوارزميّة» .

وعاث الخوارزميّة في البلد ، وأحرقوا الأبواب الّتي في القُرى ، وأخذوا ما قدروا عليه ، وكان الفساد في هذه المرّة ، أقلّ من المرّة الأولى . وكان البلد قد أجفل ، فلم ينتهبوا إلاَّ ما عجز أهله عن حمله ، وتأخّر لقاء العسكر الخوارزميّة ، لأنّهم لم يتكملوا العدّة ، ورحل الخوارزميّة ، فنزلوا

بقرب «الصافية» ، ومضوا إلى «سرمين» ، ونهبوها ، ودخلوا «دار الدَّعوة» ، وكان قد اجتمع فيها أمتعة كثيرة للناس ، ظنّاً منهم أنَّهم لا يجسرون على قربانها ، خوفاً من «الاسماعيلية» ، فدخلوها قهراً ، ونهبوا جميع ما كان فيها ، ورحلوا إلى «معرَّة النعمان» ونزل العسكر مع «الملك المنصور» على «تلّ السّلطان» ثم رحلوا إلى «الحيار» .

ورحل «الخوارزميّة» إلى «كفرطاب» ، وجفل البلد بين أيديهم ، وأحرقوا «كفرطاب» ، وساروا إلى «شيزر» ، وتحيَّز أهلها إلى المدينة التي تحت القلعة ، فهجموا الربض ، واحتمت المدينة التي تحت القلعة يوماً ، ثم هجموها في اليوم الثاني ، ونهبوا ما أمكنهم نهبه .

وأرسل عليهم أهل القلعة الجروخ ، والحجارة ، فقتلوا منهم جماعة وافرة ، وبلغهم إستعداد عسكر حلب ، للقائهم ، وأنَّهم قد وقفوا بينهم وبين بلادهم ، للقائهم ، فطلبوا ناحية «حماة» ، وجاوزوها إلى جهة القبلة .

فسارت العساكر الحلبّية ، لقصدهم ، فقصدوا ناحية «سلمية» ، ثم توجّهوا إلى ناحية «الرّصافة»، وبلغ خبرهم عسكر حلب، فركبوا، وطلبوا مقاطعتهم ، ووقع جمع من العرب بهم ، بقرب «الرّصافة» ، وقد تعبت خيولهم ، وضعفت لقوة السير ، وقلَّة الزاد والعلف ، فألقوا أثقالَهم كلَّها ، والغنائم التي كانت معهم من البلاد ، وأرسلوا خلقاً ممَّن كانوا أسروه من بلد حلب ، وشيزر ، وكفرطاب ؛ وساروا طالبي «الرّقَّة» مجدّين في السَّير ، واشتغل العربُ ، ومَن كان معهم من الجند ، بنهب ما ألقوه ، ووصل

«الخوارزميّة» إلى الفرات ، مقابل «الرّقّة» ـ غربي البليل وشماليّه ـ بكرة الاثنين خامس شعبان .

وأما الملك المنصور وعسكر حلب ، فإنَّهم وصلوا إلى «صفّين» ، وساقوا سوقاً قوياً ، ليسبقوا الخوارزميّة إلى الماء ، ويحولوا بينهم وبين العبور إلى «الرقة» ، فوصلوا بعد وصول الخوارزمية بساعة ، فوجدوا الخوارزمية قد احتموا في «بستان البليل» ، وأخذوا منها الأبواب ، وجعلوها ستائر عليهم ، وحفروا خندقاً عليهم ، فقاتلوهم إلى بعد العشاء ، وأخذوا من الأغنام ، التي لهم ، شيئاً كثيراً ، ولم يكن عندهم علوفة لدوابّهم ، ولا زاد لأنفسهم ، فعادوا في اللّيل إلى منزلتهم «بصفّين» ، ونام جماعة من الرجالة في «البليل» ، فوقع عليه «الخوارزميّة» فقتلوهم ، وعبر الخوارزميّة إلى «الرّقة» ، وقد هلكت دوابّهم إلاّ القليل ، وأكثرهم رجّالة ؛ وسَرَوْا إلى «حرّان» ، وأحضروا لهم دوابَّ ركبوها ، وتوجهوا إلى «حرّان» .

وأراد «الملك المنصور» العبور من جسر «قلعة جعبر» ، فلم يمكنه لقلّة العلوفة ، فسار بالعساكر إلى «البيرة» ، وعبر من عبرها بالعسكر والجموع . وسار حتى نزل ما بين «سروج» و«الرّها» .

ووصل الخوارزميّة ليكبسوا اليزك ، فعلموا بهم ، وتاهوا في اللّيل ، وركب العسكر ، فعادوا والعسكر في آثارهم ، إلى «سروج» ، ولم ينالوا زبدة ، ووصلوا إلى «حرَّان» ، وجمعوا جمعاً كثيراً ، حتى أخذوا عوامَّ «حَرَّان» ، وألزموهم بالخروج معهم ، ليكثروا بهم السواد ، ووصلوا إلى

قرب «الرّها» إلى جبل يقال له «جَلْهَمَان» واجتمعوا عليه ، ورتّبوا عسكرهم ، وكثّروا سوادهم بالجمال ، وعملوا رايات من القصب ، على الجمال ، ليلقوا الرُّعب في قلوب العسكر ، بتكثير السواد .

وركب العسكر من منزلته ، بعد أن وصل رسول ، من عسكر «الرُّوم» ، يخبر بوصوله في النجدة ، بعد حطِّ الخيم للرّحيل ، فلم يتوقّفوا . وساروا ، إلى أن وصلوا إلى «الخوارزميّة» ، يوم الأربعاء الحادي والعشرين ، من شهر رمضان ، سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، والتقوا ، وكُسر «الخوارزميّة» ، واستبيح عسكرهم ، وهربوا ، والعساكر في آثارهم ، إلى أن حال اللّيل بينهم وبينهم فعاد العسكر ، ووصل الخوارزميّة إلى «حرّان» وأخذوا نساءهم وهربوا ، ورتبوا في قلعة «حرّان» والياً من جهة «بركة خان» ، وساروا ، ووصل «الملك المنصور» والعساكر إليها ، فوكّل بالقلعة من يحصرها ، وساروا خلف الخوارزمية إلى «الخابور» ، والخوارزميّة منهزمون ، وألقوا أثقالَهم ، وبعض أولادهم ، ونزلوا في طريقهم على «الفرات» ، فجاءهم السَّيل في الليل ، فأغرق منهم جمعاً كثيراً ، ودخلوا إلى بلد «عانة» واحتموا فيه لأنه بلد الخليفة .

وزيّنت مدينة حلب أياماً لهذه البشرى . وضربت البشائر ، ووصلت أعلامهم وأسراؤهم ، إلى حلب . واعتصمت القلعة «بحرّان» أياماً ، ثم سلّمت إلى الحلبّيين ، وأخرج من كان بها من الأمراء ، من أمراء حلب وأقارب السّلطان ، وبادر «بدر الدّين لؤلؤ» إلى «نصيبين» ، وإلى «دارا» فاستولى عليهما ، واستخلص من «دارا» عمّ السلطان الملك «المعظّم

تورانشاه» ، واستدعاه إلى الموصل ، وقدَّم له مراكب ، وثياباً ، وتحفاً ، كثيرة ، وسيّره إلى العسكر ، واستولى العسكر الحلبيّ ، على «حرّان» ، و«سروج» ، و«الرها» ، و«رأس عين» ، و«جملين» ، و«الموزر» ، و«الرقة» ، وأعمال ذلك ، واستولى «الملك المنصور» على بلد «الخابور» و«قرقيسيا» .

واستولى نوّاب «صاحب الرّوم» على «السويداء» ، بعد إستيلاء عسكر حلب عليها ، لكونها من أعمال «آمد» . ووصل نجدة ملك الرّوم ، بعد الكسرة ، فسُيّرت إليهم الخلع ، والنفقات ، وساروا إلى «آمد» ، والتقوا بعساكر الرّوم ، وحاصروها إلى أن اتّفقوا مع صاحبها ولد «الملك الصالح» على أن أبقوا بيده «حصن كيفا» وأعماله ، وسلم إليهم «آمد» . وأقام «الخوارزمية» ببلاد الخليفة ، إلى أن دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة .

وخرجوا إلى ناحية «الموصل» ، واتفقوا مع صاحبها ، إلى أن أظهر إليهم المسالمة ، وسلَّم إليهم «نصيبين» ، واتفقوا مع الملك «المظفَّر شهاب الدّين غازي» بن الملك العادل ـ صاحب ميافارقين ـ وسيّر إلى حلب ، وأعلمهم بذلك ، وطلب موافقته ، واليمين له ، على أنه إنْ قَصَده «سلطانُ الرُّوم» دافعوا عنه ، وكان قد استشعر من جهته ، فلم يوافقه الحلبّيون على ذلك ، ووصل إليه «الخوارزميّة» واتفقوا على قصد «آمد» ، فبرزت العساكرُ من حلب ، ومقدّمها الملكُ «المعظَّم توارنشاه» ، وخرجتْ إلى «حرّان» ، في صفر ، من سنة تسع وثلاثين ، وساروا بأجمعهم إلى آمد ، ودفعوا الخوارزمية عنها ، ورحلوا عنها إلى «ميّافارقين» ، فأغاروا على رستاقها ، ونهبوا بلدها ، واعتصم الخوارزمية بحاضرها ، خارج البلد .

ووصلت العساكر وأقامت قريباً من «ميافارقين» ، وجرت لهم معهم وقعات ، إلى أن تهادنوا ، على أن يُقطِع ملك «الرُّوم» الخوارزمية ، ما كان أقطاعاً لهم في بلاده ، وأنهم يكونون مقيمين في أطراف بلاده ، وعلى أن الملكة «الخاتون» بحلب ، تعطي أخاها الملك المظَّفر ، ما تختاره ، من غير اشتراطٍ عليها ، وعلى أن يكونوا و«شهاب الدّين غازي» سلماً ، لمن هو داخل في هدنتهم ـ وكان صاحب ماردين قد حلف للملك الناصر ـ ورجع العسكر الحلبي ، فلم ينتظم من الأمر الَّذي قرَّروه شيء ، ووصل رسل الملك «المظفَّر» ، ورسل «الخوارزميّة» . وعادوا من غير اتِّفاق . وأُطلق أسرى «الخوارزمية» من حلب .

وخرج «الملك المظفَّر» والخوارزمية ، ووصلوا إلى بلد «الموصل» . وعاد صاحب «ماردين» إلى موافقتهم ، ونزلوا على «الموصل» ، ونهبوا رستاقها ، واستاقوا مواشيها ، ثم توجّهوا إلى ناحية «الخابور» .

واتَّفق الأمر على أن ورد «الملك المنصور» ـ صاحب حمص ـ إلى حلب . وخرج السُّلطان «الملك النَّاصر» ، وأكابر المدينة ، والتقوه إلى «الوضيحي» . ووصل إلى ظاهر حلب ، في « . . . . . . »[1] ونزل بدار «علم الدّين قيصر» ، وجمع العساكر ، وتوجّه إلى بلاد «الجزيرة» .

ووصل «الملكُ المظفَّر» و«الخوارزميّة» ـ بعد أن عبر «الملك المنصورُ» الفراتَ ـ إلى «رأس عين» ، واعتصم أهلُها ، مع العسكر الَّذي كان بها ،

١ ـ فراغ بالأصل .

وكان معهم جماعةٌ ، من الرّماة ، والجرخية ، من الفرنج ، فأمَّنوا أهلها ، ودخلوها ، وأخذوا مَنْ كان بها مِن العسكر . ورحل «الملك المنصور» والعسكرُ من «الفرات» إلى «حرّان» ، فعاد الملك المظفّر والخوارزميّة إلى «ميّافارقين» ، وأطلقوا من كان بها ، في صحبتهم ، من العسكر الَّذين أخذوهم من «رأس عين» ، ثم توّجه «الملك المنصور» والعسكرُ إلى آمد ، واجتمعوا بمن كان بها من عسكر الرّوم ، وأقاموا ينتظرون وصول عساكر «الرّوم» ، مع الدهليز ، لمنازلة «ميافارقين» .

وتوفّي «الملك الحافظ أرسلان شاه» ، ابن الملك العادل ، بقلعة «عزاز» ، ونقل تابوته إلى مدينة حلب . وخرج السُّلطان «الملك الناصر» ، وأعيان البلدة ، وصلُّوا عليه ، ودفن في «الفردوس» ، في المكان الذي أنشأته أخته «الملكة الخاتون» ، وتسلَّم نواب «الملك النَّاصر» قلعة «عزاز» من نوّابه من غير ممانعة ، وذلك كلّه ، في ذي الحجة ، من سنة تسع وثلاثين وستمائة .

واتفق أن خرج «التتار» إلى «أرزن الرّوم» ، واشتغل «الرّوم» بهم ، وأغاروا إلى بلد «خَرْتَبرت» وخاف «الملكُ المنصورُ» والعسكرُ ، من إقامتهم في تلك البلاد ، وأنَّهم لا يأمنون من كبسة من جهة «التتار» ، فعادوا إلى «رأس عين» ، فخرج «الملك المظفّر» و«الخوارزميّة» ، إلى «دنيسر» ، فخرج «الملك المنصور» إلى «الجرجب» ، وساروا إلى جهتهم . فوصلهم الخبر أنهم قد نزلوا «الخابور» ، فساروا إلى جهتهم ، ونزلوا «المجدل» ، وكان قد انضاف إلى «الخوارزميّة» جمعٌ عظيم ، من «التركمان» ، يقدُمهم أمير يقال له

«ابن دودي» ، حتَّى بلغ من أمره أنَّه قال للملك المظفَّر : «أنا أكسرهم بالجوابِنَة الَّذين معي» . وكان عدّتهم سبعين ألف «جوبان» غير الخيالة من التركمان .

ورحل «الملك المظفَّر» ، حتَّى نزل قريباً من «المجدل» ، فعلم به «الملك المنصور» ، فأشار الأمير «شمس الدّين لؤلؤ الأميني» بمبادرتهم ، والرحيل إليهم في تلك السّاعة ، فرحلوا ، ووافَوهم ، وقد نزلوا ، في يوم الخميس ، الثالث والعشرين ، من صفر ، من سنة أربعين وستمائة ، فركبوا ، والتقى الصفَّان ، فما هو إلَّا أن التقوا ، وولى «الملك المظفَّر» منهزماً ، «والخوارزمية» ، وحالت الخيمُ بينهم وبينهم فسلَّموا ، وقُتل منهم جماعة ، ووقع العسكر في الخيم ، والخركاهات ، وبها الأقمشة والنّساء ، فنهبوا جميع ما في العسكر ، وأخذوا النساء وجميع ما كان معهنَّ من الأموال ، والحليّ ، والذَّهب ، ولم يُفلت من النساء أحد .

ونزل «الملك المنصور» ، في خيمة «الملك المظفَّر» واستولى على خزانته ، وعلى جميع ما كان في وطاقه ، وغنم العسكر من الخيل ، والبغال ، والجمال ، والآلات ، والأغنام ، ما لا يُحصى ، وبلغت الأغنام المنهوبة إلى «الموصل» و«حلب» و«حماة» و«حمص» ، بحيث بيع الرأسُ من الغنم في العسكر ، بأبخس الأثمان ، وضربت البشائر بحلب ، وزيّنت أياماً سبعة ، وتوجّه «الملك المنصور» ، والعساكر إلى حلب ، وخرج السلطان «الملك الناصر» إلى «قلعة جعبر» . وتوجّه إلى «منبج» للقائهم ، واجتمع بهم ،

فوصلوا إلى حلب ، يوم الأربعاء مستهلّ جُمادى الأولى ، من سنة أربعين وستمائة .

وطلع «للخاتون الملكة» قرحة في مراق البطن ، وازداد ورُمها ، وحدث لها حمّى بسببها ، وسار «الملك المنصور» ليلة الجمعة ثالث الشهر . وتوجّه في صحبته نجدة من حلب ، لتقصد بلاد الفرنج بناحية «طرابلس» ، وقوي مرض «الملكة الخاتون» ، إلى أن توفّيت إلى رحمة الله تعالى ، ليلة الجمعة الحادية عشرة ، من جُمادى الأولى ، من سنة أربعين وستمائة . ودفنت في الحجرة بالقلعة ، تجاه الصفّة ، التي دفن فيها ولدها الملك العزيز ـ رحمها الله ـ وكان مولدُها بقلعة حلب ، حين كانت في ولاية أبيها «الملك العادل» ، إما في سنة إحدى أو اثنتين وثمانين وخمسمائة ، وبلغني أنّه كان عنده ضيف ، فلمّا أُخبر بولادتها ، سمّاها «ضيفة» لذلك .

وأمر السّلطان «الملك الناصر» في ملكه ، ونهى باشارة وزيره «جمال الدّين الأكرم» والأمير «جمال الدولة إقبال الخاتوني» ، وعلّم السلطان في التواقيع ، وأشهد عليه بتمليك الأمير «جمال الدّولة» نصفَ المِلوحة ، والحصّة الجارية ، في ملك بيت المال «بالناعورة» . وأقرّ على نفسه بالبلوغ ، وملّك الوزير الحصّة التي بأيدي نوّاب بيت المال «تقيل» ورحاها ، وجعل يجلس في «دار العدل» ، في كلّ يوم اثنين وخميس ، بعد الركوب ، وترفع إليه المظالم ، وخَلع على امرائه وكبراء البلد ، وأقطع الأمير «جمال الدّولة» «عزاز» وقلعتها وما كان في يد «الملك الحافظ» بن الملك العادل ، وجميع ما كان من

الحواصل ، في الأماكن المذكورة ، وذلك في الحادي والعشرين ، من جُمادى الأولى من سنة أربعين وستمائة .

وعاثت «الخوارزميّة» و«التركمان» على بلاد «الجزيرة» ، فخرج عسكر حلب ، ومقدّمهم الأمير «جمال الدّولة» في جمادى الآخرة ، وساروا ، واجتمعوا في «رأس عين». فتجمَّع الخوارزمية، وانضوَوْا إلى صاحب «ماردين» ، واحتموا بالجبل ، فوصل عسكر حلب ، ونزلوا مقابلتهم ، تحت الجبل ، وخندقوا حولهم ، وجرت لهم معهم وقعات ، وتضرَّر عسكر حلب ، بالمقام، لقلة العلوفة، إلى أن ورد «نائب المملكة بالرّوم» وهو «الأمير شمس الدّين الأصبهاني» إلى «شهاب الدّين غازي» - وإلى صاحب ماردين - والخوارزمية ، وأصلح بينهم على أن يعطى صاحب «ماردين» «رأس عين» . وأرضى «ملك الروم» الخوارزمية «بخرتبرت» ، وشيء من البلاد ، والملك المظفَّر غازي «بخلاط» ، وتوجَّهت العساكرُ ، - و«النائبُ الاصبهاني» ، في جملتها - وخرج السُّلطان «الملك الناصر» ، وتلقَّاهم إلى «منبج» ، ودخل «النّائب» إلى حلب ، يوم السبت التاسع عشر من شوّال .

ودخل السّلطان والعسكر ، يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شوّال ، وورد مع «النّائب» أموال عظيمة ، لتستخدم بها العساكر من حلب نجدةً ، ومقدّمها «الناصح الفارسي» ، في ذي الحجة ، من سنة أربعين وستمائة ، فالتقاهم السّلطان «غياث الدّين» ، «بسيواس» أحسن لقاء ، وأعطاهم عطاء سنيًا ، وفوّض تدبير العسكر إلى «الناصح أبي المعالي الفارسي» ، وفرح أهل «بلاد الرّوم» ، وقويت قلوبهم بنجدة حلب .

وسار «السُّلطان» من «سيواس» إلى «أقشهر»[١] ، ووصله الخبر بوصول «التتار» ، فسيَّر بعضَ أمرائه ، وعسكر حلب ، ليكشفوهم . فوصلوا إليهم ، ونشب القتال بينهم ، ووقعتْ بينهم حملاتٌ ، فانهزم «التتار» ، بين أيديهم ، ثم تكاثروا ، وحملوا عليهم ، فانكسر عسكر «الروم» وثبت الحلبيون» ، وجرى بينهم كرّات ، وخرج عليهم كمينان ، من اليمين واليسار فأحْدَقُوا بهم ، فلم يسلم منهم إلاَّ من حمل ، وخرج من بينهم ، وذلك ، في يوم الخميس ، الثالث عشر من المحرَّم ، سنة إحدى وأربعين وستمائة .

وانهزم ملكُ «الرُّوم» في الليل ، ليلة الجمعة ، وأجفل أهل بلاد الرُّوم ، إلى حلب وأعمالها ، وعاثَ «التُّركمان» في أطراف الرُّوم ، ونهبوا مَن خَرج إلى الشَّام[٢] .

---

١ ـ على مقربة من قونية .
٢ ـ جاء في نهاية هذه الصفحة من مخطوطة باريس يقول كاتبها : كتبت هذه النسخة من خط مؤلفها المولى الصاحب كمال الدين أبي حفص عمر بن أحمد بن عبدالله بن أبي جرادة الحلبي ، رحمه الله تعالى ، وهذا آخر ما وجدته بخطه .
وذلك لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة ست وسبعين وستمائة ، أحسن الله ختامها ، والحمد لله ، وصلاته على نبيه محمد وسلم .

الفهارس العامة

- الآيات القرآنية
- الشعر .
- أعلام الجماعات .
- أعلام الأفراد .
- أعلام الأماكن .

الآيات القرآنية الكريمة

الشـــــعـر

أعـلام الجماعـات

حرف الألف

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف السين

حرف الشين

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الياء

أعلام الأفراد

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الزاي

حرف السين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الياء

أعلام الأماكن

حرف الألف

حرف الباء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

المحتوى العام

